

الحديقة بيضاء بالياسمين

الحديقة بيضاء بالياسمين (قصص)

يحيى سلام المنذري (كاتب عُماني)

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022



الجمعية العُمانية للكتاب والأدباء
THE OMANI SOCIETY FOR WRITERS & LITERATI

الجمعية العمانية للكتاب والأدباء



الآن ناشرون وموزعون

سلطنة عمان، مسقط

الأردن، عمّان

omani-writers@hotmail.com

alaan.publish@gmail.com

هاتف: +96824346753 / +96824346754

هاتف: 797162720، 65620722 (+962)

المدير العام: د. باسم الزعبي

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مُصنّفه ولا يعبر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

رقم الإيداع في سلطنة عمان: (2021/4107)

ISBN: 978- 99969- 868- 1- 9

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية الأردنية: (2021/12/6785)

يحيى سلام المنذري

الحديقة بيضاء بالياسمين

خمس مجموعات قصصية



الجمعية العُمانية للكتاب والأدباء
THE OMANI SOCIETY FOR WRITERS & LITERATI



فهرس المحتويات

13.....	بناء الحديقة.. نثر الياسمين
24.....	شكر وتقدير
25.....	حليب التفاح
25.....	الإهداء
31.....	لماذا لا تقرأ القصة من نهايتها؟
38.....	ما هي الحكاية الأخيرة لشهرزاد؟
47.....	هل في حقيبة الطفل فراشات؟
51.....	الأسئلة أغلى سعراً من النفط
58.....	الحسنة والقناع
68.....	من هم؟
72.....	حزن الفتيات
84.....	الطاحن الأول
88.....	كيف يمكن للكهرباء أن تنطفئ؟
91.....	سُم الكاميرا
98.....	ما الذي فعلته النقطة السوداء؟
106	الخلاط الآدمي
110	حليب التفاح

116	ثلاث رقصات في مالبورن
121	الابتسامة الصينية
125.....	الطيور الزجاجية
125	الإهداء
128	الجزء الأول
128	طائرة تبدد لون السماء
134	الطيور الزجاجية
143	إنقاذ
146	ليلة الخنجر
149	خوف العصافير الصغيرة
151	الجزء الثاني
151	سر الورقة
156	الباب الزجاجي
160	القطط الزجاجية
165	الساق
175	البيوت الحزينة
180	الجزء الثالث
180	يوم واحد يتلأأ في عينيّ
191	من جدار أبيض إلى جدار أسود
200	جدران ومرايا

203	وكر الحلاقين.....
205	الممثل.....
208.....	بيت وحيد في الصحراء.....
209	الإهداء.....
212	1. عُرف.....
213	سندباد صغير يمتطي غيمة.....
215	أين الذبابة؟.....
218	الشمس لا تجد من تقدم له دفئها.....
222	رعشة الصوت الثالث.....
224	بعيدًا عن شاطيء الإسكندرية.....
225	بيت وحيد في الصحراء.....
229	شارع يغوص في الظلام.....
235	ضجيج البيت الكبير.....
239	2. زارعو غابة الإسمنت.....
240	رسالة من تلك البلاد.....
241	صورة واحدة للذكرى.....
242	صور كثيرة للذكرى.....
243	أقرب نافذة إلى القلب.....
244	ذو الشعر الناعم.....
248	لهاث باتجاه السماء.....

250	المروحة البشرية
254	تلذذ
257	المشط
258	حظ الشارع من السيارات قليل
259	تشبه
260	خسارة الجبل
261	امتحان
262	امتحان رقم عشرة
263	الطابور والرجل الأخضر
264.....	رماد اللوحة
265	الإهداء
268	رماد اللوحة
279	نصفان
287	الحقيقية
289	قمة البرج
292	مساء صاخب
303	حمالة الحطب
305	ليل بعيد
308	عشرة مقاطع
312	أقاصيص حنين

1. شموع الحنين 312
 2. الملكة 312
 3. لمن هذا الحنين؟ 313
 4. الفقاعات الملونة تقبل خدي حنين بحنو 318
- نافذتان لذلك البحر..... 321**
- الإهداء 321
 1. لوحات 324
 - اللوحة 324
 - ذكرى 333
 - الرجل صاحب الصرة 341
 - حبّات البرتقال المنتقاة بدقة 346
 2. ثقل الكائنات الليلية 350
 - هنا الليل 350
 - الغرفة والمشهد الليلي 359
 3. ناحية الأمكنة البعيدة 369
 - الرحيل إلى كابوس مؤبد 369
 - نافذتان لذلك البحر 376

1. حليب التفاح (2016).
2. الطيور الزجاجية (2011).
3. بيت وحيد في الصحراء (2003).
4. رماد اللوحة (1999).
5. نافدتان لذلك البحر (1993).

بناء الحديقة.. نثر الياسمين

• مذاق المغامرة

«وأطعمت نفسي مذاق المغامرة».

كانت آخر جملة في المغامرة الأولى، مجموعتي القصصية «نافذتان لذلك البحر» (1993)، تلتها أربع أخرى على مدار 23 عامًا، كنت أخوض غمار كل واحدة منها بعد تردد وتأنٍّ وتأمل.

وها أنا الآن بصدد مغامرة سادسة، وهي إصدار هذا الكتاب الجامع لأعمالي القصصية. فكرت وترددت كثيرًا، فقررت أن أحميها من النسيان، ولتُوجد في كتاب واحد يمثل تجربتي المتواضعة في الكتابة، وليكون مرجعًا للمهتمين يعينهم على الاقتراب أكثر من عوالمها، وقراءتها كبنيان واحد متصل ومنفصل، وربما سيكتشفون حيوات وأماكن مختلفة، وسيقرؤون حركة اتجه عناصر التجريب والخيال واللغة بين كل إصدار وإصدار، وربما يحللون مدى نضج الكتابة ومفهوم الحداثة والتجديد. وربما سيكرهون بعض الشخصيات، ويحبون بعضها، سيتذكرون حبات البرتقال المنتقاة بدقة، وثقل الكائنات الليلية، والأمكنة البعيدة، وربما سيتعاطفون مع سلمان الذي رسم لوحات كثيرة وأحرقها ليرتاح من الجميع عدا لوحة أمه، وسيتحاورون مع السندباد الذي امتطى غيمة بجانب بيت وحيد في الصحراء، وسيتناقشون حول زارعي غابة الإسمنت، وسيتابعون الطائرة

التي بددت لون السماء وخلفت طيورًا زجاجية، وسيقرؤون قصص حليب
التفاح من نهاياتها، وربما سيتمكنون من الإجابة على الأسئلة المتناثرة هنا
وهناك.

في كل الأحوال هذا المشروع ليس نهاية لقصة كتابتي للقصة بل لعله
يمثل دافعًا لكتابات أخرى، ما دام في العمر بقية. وتمهيدًا لإنجازه كتبت هذه
الشهادة، ساردًا ملخصًا عن التجربة.

كان لا بد من طباعة قصص مجموعتي الأولى على الحاسوب، حيث
كنت كتبها بخط يدي أثناء دراستي الجامعية في فترة التسعينيات، ومعظمها
نشر في الملحق الثقافي بجريدة عُمان الذي كان يصدر كل خميس، وكنت
قبل ذلك جمعت قصص مجموعة «رماد اللوحة» التي صدرت عام 1999
من أرشيف مجلة نزوى، والبعض الآخر من دهاليز وجدران الإنترنت حيث
نُشرت في بعض الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية.

ولعل هذا الكتاب/ المشروع يمنحني سعادة كالتّي تتنابنى عند الانتهاء
من كتابة قصة قصيرة أو عند استلامي للنسخة الأولى من كل إصدار، أو
حين أتفاجأ بكتابات وقرئات نقدية لقصصني أو إصداراتي في السنوات
الماضية، مهما كان نوعها وتوجهها، محفّية كانت أو ناقدة.

وتبقى القصة القصيرة أحب الأجناس الأدبية إلى قلبي، التي بدأت
أكتبها وأنا في عمر مبكر، قارئًا لأعمال كتاب كثيرين، ناسجًا في مخيلتي
أحلام الكتابة وكيف ستكون.

• زجاجة من نار

في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، لن أنسى ذلك الخميس العجيب والمفرح، حينما اشتريت جريدة عُمان مترقبًا نشر قصة أرسلتها إلى بريد القراء. لأكتشف هذه المرة بأن القصة نشرت في الملحق الثقافي ولأول مرة. كان ذلك قبل دخولي الجامعة. كان عنوان القصة «زجاجة من نار». كان يومًا سعيدًا، لم أعرف كيف أحتفل وماذا أفعل، ظللت أقرأ القصة عشرات المرات. وكان حينها الصديق محمد اليحيائي هو المسؤول عن الملحق الثقافي، ولم تكن لدي حتى تلك اللحظة أية معرفة شخصية به. لكنه التقط القصة، وقرر أن مكانها ليس بريد القراء، وإنما الملحق الثقافي الذي ينشر في ذلك الوقت لمجموعة من الكتاب العمانيين والعرب في ظل عدم وجود مجلة ثقافية رزينة كمجلات تصدر من خارج عمان مثل «الأداب» و«الناقد» و«مواقف» و«الكرمل» و«العربي»، والتي مع الأسف أغلق معظمها. ومن خلال هذه المجلات، التي كنا نحصل على بعض أعدادها بصعوبة كبيرة عن طريق بعض الأصدقاء الكتاب، تعرفت على الكثير من الكتاب العرب واستفدت كثيرًا منها. وكم كانت فرحتنا كبيرة بعد ذلك بإنشاء مجلة نزوى التي أسسها الشاعر العُماني الصديق سيف الرحبي، والتي أضافت لنا الكثير من حيث النشر والمعرفة، وبحق تعتبر إنجازًا مهمًا في مجال الثقافة في عُمان. والجدير بالذكر أن كتابي الثالث «بيت وحيد في الصحراء» نشر في طبعته الأولى ضمن إصدارات المجلة، وكان يعتبر الإصدار الرابع لها بعد نشرها لكتب لسيف الرحبي

وإبراهيم المعمري وعبدالله الحراصي، وما تزال إصدارات مجلة نزوى مستمرة حتى كتابة هذه الشهادة.

ومنذ ذلك الوقت بدأت أرسل قصصي مباشرة إلى الملحق الثقافي بجريدة عُمان، وخاصة بعد دخولي جامعة السلطان قابوس ومعرفتي المسبقة، من خلال الملحق، بكاتبين سيصبحان صديقين، وهما يونس الأخرمي ومحمد علي البلوشي. كانا آنذاك ينشران كثيرًا في الملحق. وخارج الجامعة كنت كثيرًا ما ألتقي بصديقي الطفولة الكاتبين العزيزين محمود الرحبي وأحمد الرحبي، إضافة إلى الصديق الكاتب المصري إبراهيم فرغلي، والذي كان في ذلك الوقت مقيمًا في مسقط. كنا نلتقي بشكل مستمر تجمعنا بعض المقاهي لتحدث عن الأدب وشؤونه، وعن كتاباتنا، وعن حياتنا، أحببت تلك الأيام جدًا وليتها تعود.

• ضوء الخميس

وبهذا كان يوم الخميس هو اليوم المنشود. أستيقظ باكراً، متجاهلاً دخول الحمام، آخذ مائة بيسة وأخرج من البيت، أمشي مسافة ليست بالقصيرة متجهاً إلى الدكان في أول الشارع بمنطقة وادي عدي، وأبتاع جريدة عُمان. لم أكن أنتظر حتى أصل البيت، أفتحها وأنا داخل الدكان، أتوجه مباشرة إلى الملحق الثقافي للجريدة، أبحث بقلق مستمعاً إلى صوت خفقان قلبي، وحينما أجد قصتي منشورة مع صورتي بشنب أسود كثيف، وفي أسفلها كتب اسمي وتحتة عبارة «جامعة السلطان قابوس»، أطيّر فرحاً وأتأبط الجريدة وأركض إلى

البيت. أدخل غرفتي، أقرأ القصة المنشورة أكثر من مرة. وكل مرة كنت أفرح. وتشعل بداخلي نار الشوق لآراء أصدقائي حولها. حيث كنا نلتقي في ردهات الجامعة وخارجها، ونتحدث عن منشوراتنا من القصص ونطرح نقاشاً مثرياً وممتعاً. أتذكر الآن تلك السعادة وأجدها كبيرة لحدث صغير كان يدفعني إلى طريق الكتابة والإبداع، طريق مجهول في كهف زمني ضوؤه ينكشف تدريجياً مع تقدم العمر، ومع تراكم تجارب الحياة.

• جماعة الخليل بن أحمد الفراهيدي للأدب

أول يوم لي بجماعة السلطان قابوس، وقبل أن أتجه إلى أي مكان فيها، سألت عن مكان جماعة الخليل للأدب، ف قيل لي إنها في مقر عمادة شؤون الطلبة. تعرفت هناك على العديد من أعضائها، محمد علي البلوشي ويونس الأخرمي وسيف الرضائي وعلي باعوين وهلال الحجري وعاصم السعيدى وعبدالله الحراسي وبدر الشيباني وغيرهم. وكانت أول أمسية قصصية شاركت فيها بقصة عنوانها «وداعا صابرينا»، وأذكر بعد قراءتي للقصة، كان هناك تعليقٌ نقديٌّ من الدكتور أحمد درويش الذي كان أستاذًا بكلية الآداب في تلك الفترة.

وفي عام 1990 جاءني الصديق محمد البلوشي، وزف لي خبر حصولي على المركز الأول في القصة القصيرة بجائزة راشد بن حميد للثقافة والعلوم في عجمان، وكانت قصة بعنوان «زكريا»، وهي التي صارت بعد ذلك ضمن قصص المجموعة الأولى. وأضاف أن الطلبة العمانيين اكتسحوا المراكز

الأولى في مسابقتي القصة القصيرة والشعر. وبعدها تتالت الأمسيات والمشاركات داخل الجامعة وخارجها.

• اتصال غير متوقع

قبل نهاية سنة من نشري عددًا لا بأس به من القصص في الملحق الثقافي بجريدة عُمان، جاءني اتصال من القسم المالي بالجريدة، وأعلمني بأن هناك «شيك» باسمي، فسألته عن ماذا؟ اندهش، وقال إنها مجموع المكافآت للقصص التي نشرتها خلال سنة، ويجب استلام الشيك قبل نهاية السنة. وقع الخبر عليّ كأن مفرحًا، لم يخطر ببالي الكتابة من أجل المال أو الشهرة، كنت أكتب من أجل حبي للكتابة، ومن أجل رأي أنشده من قارئ. صرفت الشيك وأعطيت المبلغ لأمي وأبي على سبيل الشكر والتقدير.

• كسر السائد

«أريد أن أقفز إلى الماء لأسقط في السماء»

بابلو نيرودا

في بدايتي، ومع أصدقاء الكتابة في الجامعة كانت الحماسة والشغف واضحين في كسر أسلوب الكتابة السائد في تلك الفترة في عُمان، الأسلوب الواقعي، الذي يفتقر إلى الخيال، وكانت بعض الكتابات مجرد دروس ومواعظ في قالب حكاية ليست لها علاقة بالفن. وكيف يمكن لعمل يفتقر إلى الخيال أن ينجح؟ بل كيف يكون الإنسان مبدعًا في عمله وحياته دون ملكة

الخيال؟ الخيال هو البطل في قصة الفنون بكل أنواعها، فالرسام ليس كاميرا تلتقط مشهداً طبعياً، بل هو مبدع يخلق لوحة فنية فريدة، والروائي ليس ناقلاً لحكاية واقعية. كثيراً ما وصف دوستويفسكي بعض شخصيات رواياته بأنهم يفتقرون للخيال، خاصة الموظفين الحكوميين الذين يتصفون بالبرود الفكري، والذين لا يمكن أن يفعلوا شيئاً مبتكراً لا لحياتهم ولا لمجتمعهم. وقاسم حداد في كتابه البديع «موسيقى الكتابة» حذر من الواقع، ووصفه بالعدو الأول للشعر، وأنه «سمي بالواقع لينسج أشواكه للإيقاع بالشعراء». فليس من الصائب إذن أن ننسخ الواقع في أعمالنا الأدبية والفنية ونكتب عليها أسماءنا، وإنما نستفيد منه، ومن أحداثه، ونخلق منه عالماً جديداً بروح مغايرة ومدهشة غير مألوفة، وأسلحتنا في ذلك هي الخيال والمعرفة والتجربة.

في الثمانينيات كتبت قصصاً موغلة في الغموض، بلغة ثقيلة، وخاصة تلك التي أرسلتها إلى صفحة «بريد القراء» بجريدة عُمان، كان الهذيان يسيطر على الحكاية وتفتقر إلى الحوار والتشويق والدهشة. وهذه العناصر هي ضمن مكونات فن القصة القصيرة. ولكنني انتبهت وتأملت ما كنت أكتبه، واكتشفت بأنها ليست الكتابة التي أرغب فيها، وانتقدت اندفاعي ومبالغتي في التحديث، والتسرع في كسر المألوف، فراجعت حساباتي، عدلت بعدها أسلوباً في الكتابة، وأصبحت من وجهة نظري متوازنة، وكنت أشعر بسعادة بعد الانتهاء من كتابة قصة. وعشقت في التسعينيات الكتابات السردية المشحونة بلغة شعرية. كان ذلك واضحاً تأثيره في قصص مجموعتي الأولى. لكنني أزعم بأن

الحكاية ظلت متماسكة في معظم قصص المجموعة، وكان عنصر الخيال هو بطلها.

فقصة «حبات البرتقال المنتقاة بدقة» هي نتاج مشهد من الواقع. فذات مرة شاهدت رجلاً أعرج يعبر شارعًا مزدحمًا بالسيارات المسرعة، وبصعوبة بالغة وصل إلى الضفة الأخرى. تعاطفت مع الرجل ورسخ مشهده في ذهني، وحين وصلت البيت نسجت من المشهد القصة كما نشرت بعد ذلك بتفاصيلها المتخيلة مظهرًا سطوة الشمس وحنق السيارات على الرجل. تدفقت الحكاية مرة واحدة، واللغة تشكلت بناءً على الأسلوب السائد في تلك الفترة. فيمكن ملاحظة عبارات متقطعة، مثل:

«بينما..»

بينما الرصيف..

بينما الرصيف حارق حزين..»

كنت وأنا أكتب تلك القصة كمن يقوم بتصوير موسيقي للمشهد. سطوة السينما في هذه القصة حاضرة، كان لدى بعض الأصدقاء رغبة في تحويل القصة إلى فيلم سينمائي، وقد حدث ذلك فعلاً عام 2012، حينما أنجز الصديق الكاتب والمخرج عبدالله خميس الفيلم السينمائي بنفس عنوان القصة، بعد أن طلب مني كتابة السيناريو المناسب. كما أن هذه القصة بالذات حولها بعض مخرجي البرامج الإذاعية داخل عُمان وخارجها إلى تمثيلات، ولم أكن سعيداً بذلك.

ركزت على القراءة، أحببتها جداً، صارت ملاذي، وتيقنت من أنها وقود لإشعال المعرفة والوعي والكتابة. وحسبي أنها تكشف لنا معنى الحياة، وتظهر الجمال، وتزهر فينا الحب. قرأت قصص ألف ليلة وليلة وتأثرت بأساطيرها وعوالمها الموهلة في الغرابة. أسرتني أعمال كتاب كثر كنجيب محفوظ وكزنتزاكس وكافكا وتشيفوف وجوجول ودوستويفسكي وبورخيس ويوسف إدريس وغسان كنفاني وزكريا تامر، وسلبتني اللغة الشعرية لكتابات سرديّة لدى كتاب عرب كعبد الرحمن منيف وجبرا إبراهيم جبرا وأمين صالح. خلقت كثيراً مع أشعار محمود درويش ومحمد الماغوط وبابلو نيرودا وبريخت وناظم حكمت وأمل دنقل وطاغور وبدر شاكر السياب وأدونيس وغيرهم.

تخلصت من القصص القديمة. لم أقتنع بها. بدتُ كأنها نتاج ورشة تدريبيّة للكتابة أفادتني كثيراً. ويبدو بعد ذلك، أن الورشة التجريبية تكررت بعد كل إصدار. بدأت أشحذ خيالي في طرح قصص قصيرة مأخوذة بلغة محمومة بالألغاز والخيال الجامح، بدأت في خوض تجارب مختلفة، كانت دعوة إلى الحداثة والخيال والفتازيا والغموض. كانت مغامرات قصصية، وكانت تجارب في محل تقدير وترحيب لدى بعض النقاد، ومحل تساؤل لدى البعض الآخر. وأزعم بأن التطوير فيها كان تصاعدياً، وكان الاهتمام بالأفكار الجديدة حاضراً، كانت محاولات في البحث عن التفرد. وكنت أطرح أسئلة كثيرة، تجلت في مجموعتي القصصية الأخيرة «حليب التفاح». فبعد انتهائي من كتابة المجموعة حصرت علامات الاستفهام التي تناثرت في الكتاب، وجاء عددها

(264). وهو سي بالأسئلة قادي إلى مغامرة لكتابة قصة قصيرة بعنوان «هل في حقية الطفل فراشات؟»، كان السرد فيها عبارة عن أسئلة قصصية قصيرة، وكان هدفي أن يسعى القاريء لمعرفة الحكاية من خلال ربطه بالأفكار التي طرحها الأسئلة.

طبعاً ليس من الضروري أن تكون هناك أجوبة، وليس من أهدافي انتظارها. ولا أسعى إلى الكمال، فلا أحد سيدركه، حسب تعبير سلفادور دالي.

كان اهتمامي بكتابة القصة القصيرة أثناء دراستي الجامعية كبيراً، حتى أنه كاد يؤثر على دراستي. كنت كثير الكتابة والنشر في الصحف. وبعد تخرجي من الجامعة، اختلف الحال فأصبحت أكثر تأنيًا، ولكن إلى الدرجة التي أدت إلى قلة الإنتاج كتابةً ونشرًا. كان هاجسي تطوير كتابتي، وعدم الوقوع في فخّي التكرار والاستسهال، كنت تواقًا إلى طرح الجديد، وما زلت. وعلي أن أعترف بأن ذلك ليس السبب الوحيد في قلة إنتاجي، وهو بالمناسبة ليس عيبًا، فقد كانت هناك أسباب أخرى مرتبطة بالعمل والدراسة والعائلة، والمناخ الثقافي الرتيب السائد في البلد من حيث النقد والنشر والفعاليات وغيرها. وربما ساهمت هذه الأسباب في التقليل من قوة إخلاصي لمشروع كتابة القصة القصيرة.

• المغامرة الأولى

كان قراراً صعباً إصدار مجموعتي القصصية الأولى وأنا ما زلت على مقاعد الدراسة الجامعية، لكن تشجيع الأصدقاء وبعض النقاد، الذين كانوا أساتذة في جامعة السلطان قابوس في تلك الفترة، أمثال الدكتور شاكر عبد الحميد والدكتور أحمد درويش والدكتور سعيد علوش، هو الذي دفعني عام 1993 إلى اتخاذ قرار تجميع بعض القصص القصيرة في كتاب واحد، ليكون عنوانه «نافذتان لذلك البحر» ذلك الذي كان من وجهة نظري مغامرة كتابية قادتني إلى مغامرات عدة.

اخترت بعناية شديدة القصص المناسبة للكتاب، اخترتها من بين مجموعة كتبتها على مدار أربع سنوات. وكان للإصدار صدى أبهجني، فتناولها بالنقد والقراءة عدد لا بأس به من النقاد والكتاب والباحثين. وكنت سعيداً بأنني أهديت نسخاً ممهورة بإهداء وتوقيع إلى أصدقائي الكتاب، وسعيت لإيصالها بنفسني إلى العديد من المهتمين، ففي تلك الفترة لم تكن حفلات توقيع الإصدارات الجديدة موجودة، ولا توجد جهات تنظم مثل هذه الفعاليات. ويجب الاعتراف بأن اقتناعي ببعض قصص هذه المجموعة خفت بعض الشيء، لكنه الكتاب الأول الذي أسعدني في حينها فأصبح قريباً من القلب، ومن الصعب إنكاره والتخلي عنه.

يحيى سلام المنذري

26 مايو 2021

شكر وتقدير

- أولاً: أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى كل من كان له / لها أثر في تجربة كتابتي القصصية خلال السنوات الماضية ومعتزكي معها ومن قدم لي:
- التشجيع على الكتابة والنشر.
 - وقته لمناقشة ومراجعة إحدى قصصي أو أكثر، أو إحدى مخطوطات كتبي أو أكثر.
 - يد المساعدة المعنوية في المحن.
 - فرصة لنشر أحد كتبي أو أكثر دون مقابل.
- ثانياً: أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى من أجرى حواراً معي، نُشر أو بُث في مختلف وسائل الإعلام، وإلى من كتب بالنقد أو القراءة أو العرض أو التحليل أو الدراسة أو الترجمة لقصة كتبتها أو كتاب نشرته.

حليب التفاح*

* صدرت الطبعة الأولى في عام 2016 عن دار الانتشار العربي، بيروت، لبنان.

الإهداء

شرب ما تبقى من القهوة، وقال: «أخيرًا». أخذ نفسًا عميقًا. تأمل الطابعة وهي تلفظ المخطوطة ورقة بعد ورقة. هذه المرة انساب صوتها مثل مقطوعة موسيقية عنوانها «يا للروعة». كانت الأوراق ساخنة. صفها، ووضعها برفق على الطاولة. شاهد الصفحة التي تتبع مباشرة صفحة العنوان، لاحظ بأنه لم يكتب الإهداء. تناول تفاحة من صحن الفواكه وقضمها. رجع إلى الحاسب الآلي، فتح الملف. وكتب الإهداء: «إذا قرأت الكتاب على أنه قصص فالإهداء إلى إبني زكريا المنذري، وإن قرأته على أنه رواية فالإهداء إلى أصدقائي المجانين».

أضاف الجملة التالية: «شكرًا زوجتي، شكرًا على صبرك». حفظ الملف. غرز أسنانه في جسد التفاحة. ثم وجه المؤشر إلى أيقونة «طباعة». طبع صفحة الإهداء. أغلق الملف. نزع الصفحة الثانية من المخطوطة ووضع مكانها الصفحة الجديدة. تأمل مجددًا في المخطوطة، وقال: «أخيرًا». أكمل الحفر في جوف التفاحة. نطت قطرة من سائلها واستقرت على المخطوطة وبقعت عنوانها. تخيل للحظة بأنه يسبح بمتعة في حفرة من هذا السائل السكري. نُحتت الحفرة في طبقة صخرية من طبقات الجبل الأخضر. الحفرة تسكب عصيرها في فلج عريض يلتف حول أشجار النخيل والرمان والخوخ. يختلط العصير مع الماء ويتدفق في تيارات قوية ليسقط في بحر مسقط، ثم يذوب في الماء المالح.

حدّث نفسه بأنه سيناقش مساء اليوم أحد أصدقائه خيارات دار النشر. لم يكن يتوقع بأن عدد صفحات الكتاب سيصل إلى أكثر من مائتي صفحة. شعر بسعادة. تأمل في المخطوطة، وتساءل: «لماذا هذه الكتابة؟ ما جدواها؟ ما قيمتها؟ ماذا سيكون رأي القراء؟ آلاف الكتب تطبع يومياً، ماذا تفعل هذه الكتب الآن أمام جبروت التكنولوجيا والإنترنت وما فيها من معلومات وبيانات؟». بعد ذلك رمق رواية «الغابة النروجية» لهاروكي موراكامي التي انتهى من قراءتها أخيراً، فابتسم. فقد كانت رفيقته في الأسبوع الأخير من كتابته للمخطوطة. قرأها بمتعة وحب، قرأها في كوخ، في جزيرة بعيدة يحيطها البحر من كل جانب. تنهد، ورجع لأسئلته، وقال: «ربما، يوماً ما، ربما، سأسعد قارئاً، قارئاً واحداً وكفى».

تذكر أن عليه حفظ نسخة من الملف في قلم الذاكرة. بحث عن القلم الإلكتروني. لم يجده. بحث عنه في الدرج، في الحقيبة، في كل مكان بالغرفة. لم يجد شيئاً. الإنترنت لا يعمل، فعادة ما يرسل نسخة إلكترونية من الكتاب إلى عنوان بريده الإلكتروني. ماذا يفعل؟ خوف يداهمه كالعادة من فقدان ملف المخطوطة. نظر إلى الجزء المتبقي من التفاحة، قشرة رقيقة ساحرة حمراء اللون تغطي مساحة بيضاء، تدريجياً تتحول إلى صفراء. ظل فترة مستمتعاً بمنظرها ومشتهياً قضمها، لكنه كلما يتذكر الملف نسي لذة التفاحة المقضومة. استأنف البحث عن قلم الذاكرة. عاد إلى الحاسب الآلي وحفظ نسخة أخرى من الكتاب في مكان آخر. رجع بالكروسي إلى الوراء، وحقق في السقف وقال: «أيها الشبح الإلكتروني.. أين ذهبت؟»، أخذ يفكر بأن كل شيء معرض

للضياح. التكنولوجيا مفيدة وسهلة، لكنها قابلة للضياع والعطب وبأسرع مما نتوقع، دون معرفة الأسباب، الناس لا يعرفون الأسباب، هم يستخدمون التقنية فقط، وتمدهم بالسعادة، وحينما لا يحسنون استخدامها يجلبون لأنفسهم التعاسة. يتذكر كم من الأصدقاء ضيعوا كتاباتهم وعملهم نتيجة الإهمال. وقبل التكنولوجيا كم من الأصدقاء ضيعوا مخطوطاتهم الورقية، نتيجة الإهمال أيضًا.

فتح الملف من جديد. وقعت عيناه على جملة في الجزء الثاني من الكتاب. قرأها عدة مرات. توقف عندها. أعاد كتابتها. قرأ الجزء الثاني من جديد. أضاف نصًا جديدًا من خمسة أسطر. ظل ما يقارب الساعة يقرأ ويعدل. رجع إلى عنوان الكتاب: «الأسئلة أعلى سعرًا من النفط»، تمنع فيه عدة مرات، تأمله. وبعد تفكير قرر تغييره. مسح العنوان. كتب عنوانًا آخر: «الابتسامة الصينية». أيضًا مسحه، وكتب عنوانًا آخر وهو «264»، وبعد فترة من التفكير، مسحه، وكتب عنوانًا جديدًا. أضاف جملة في الصفحة التي تأتي قبل الإهداء: «قال السارد ذات يوم وهو في سفر المعرفة: ما يثير القلق هو أن غيمة خيال أمطرت كل الحكايات، لذلك لا وجود للواقع هنا». بعد ذلك مسحها، ولم يستبدلها بجملة أخرى.

أمسك المخطوطة المطبوعة. مزقها. رمى بها في سلة المهملات. كانت التفاحة المقضومة تنتظر. رجع إلى الملف الإلكتروني. حفظه. لم يجد قلم الذاكرة. أعاد كتابة الإهداء: «إذا قرأت الكتاب على أنه قصص فالإهداء إلى ولدي الحبيب زكريا.. كن مبدعًا، وإن قرأته على أنه رواية فالإهداء إلى

أصدقائي الرائعين». وأبقى على الشكر الذي وجهه إلى زوجته. وفجأة تجمد الملف. حاول فتحه لكنه فشل. أطفأ الجهاز. أعاد فتحه. حاول فتح الملف. لم يفتح. حاول فتح النسخة التي وضعها في مكان آخر لكنها لم تفتح. بحث عن قلم الذاكرة من جديد. فتش بين الكتب، تحت الطاولة، في جيوب الملابس. لم يجد شيئاً. وقف مذهولاً. تذكر أنه منذ شهر أرسل ملفاً إلى بريده الإلكتروني. لكنه ملف كانت عدد صفحاته حسب ما يتذكر لا تتجاوز المائة. حرق في الغابة النرجسية وتاه في موسيقاها، وكانت التفاحة بيضاء المتبقي تنتظر، وكأنها تنادي وتقول: «لماذا تخليت عني.. لماذا؟».

لماذا لا تقرأ القصة من نهايتها؟

(1)

سيارة مجنونة اخترقت أحد مطاعم مسقط وهشمت زجاجه، كان دھول الزبائن متنوعاً. بعضهم سقط في حوض القهقهات، وآخرون تمرغوا في تراب الصمت، والبعض الآخر التصق في شبكة صراخ. والقليل منهم على ما يبدو أصابهم الخوف. مشاعر تكونت بعد ثوانٍ من اختراق السيارة للواجهة الزجاجية، ولم تمر دقيقة حتى أطلقت السيارة صوتاً مثل الزئير. غضبت.

وانتفضت.

وثارَت.

ثم..

ثم انفجرت.

(2)

«لماذا لا تقرأ القصة من نهايتها؟».

التقط السؤال. تأمله. ثم التقط عود جزر مالح من صحن السلطة، ثم جاوب بحذر: «لا أرغب».

«لماذا؟».

جاوبه الصديق وقال: «لأن هذه الطريقة تفسد متعة القراءة».

بعد الاستمتاع بحبة زيتونة وجبنة بيضاء ورشفة من سائل ذهبي فوّار، قال السائل:

«هل جربت ذلك؟».

«لا أريد أن أجرب».

«ماذا؟».

«لا يهمني أن أجرب».

«أنا مهتم بالقارىء».

«أف، هذا المكان ممل».

«شخصياً أنا جربت قراءة القصة من نهايتها، وكانت قراءة ممتعة، صدقني هذه الطريقة تفتح لك أبواباً واسعة للتفكير، ولكن، طبعاً، أعترف وأتوقع أنها في أحيان كثيرة ستربك تفكيرك».

«بدلاً من طرح هذه الأفكار الغريبة، اكتب عن الفساد، اكتب عن الظلم. أو ما رأيك أن تكتب قصة حياتي، فيها الكثير من المطبات».

«كعادتك يا صديقي تريد أن تبعد عن الموضوع».

«لأنك لا تقول شيئاً».

«ماذا تقصد؟».

«نعم، لا تقول شيئاً، كلك غموض. كتاباتك غامضة، بعض الأحيان أتساءل رغم صداقتنا الطويلة، من أنت؟».

«لا تدخل في فلسفة فضفاضة».

«وماذا تسمي سؤالك؟».

(3)

هكذا، انفجرت السيارة فجأة، وتهشمت البناية. كان المشهد عجيبيًا، بناية من إسمنت وحديد، تحولت في ثوانٍ إلى رماد. لم يكن أحد يتوقع هذا الانفجار في مدينة هادئة كمسقط، مدينة تعودت على دغدغة البحر، والتحفّت بدفء الجبال والوديان. هكذا فجأة، السيارة انفجرت مثل بركان ثائر، بركان زفر كتلة من نار، كتلة أخذت تدور وتتسع مثل الدوامة، وفي ثوانٍ قليلة ويحتملها الحمراء والبرتقالية طحنت المكان ومن فيه.

(4)

شرب صديقه ما تبقى من كأسه، وحقق في الأضواء الملونة التي تتسابق في تسلق الجدران، وأمدّه ذلك بارتياح واسترخاء، وأطلق من فمه لحناً موسيقيًا لموزارت، وأتبعه بابتسامة. بعدها تناول عودًا آخر من الجزر، ولكن الكاتب أثر أن يبادره بسؤال آخر: «هل سبق وأن فكرت بالمقلوب؟».

ضحك صاحبه مرة أخرى، وقال: «سؤال ظريف».

اختلطت ضحكته مع الأضواء، وطافت تترنح حول وجوه الزبائن. ابتسم الكاتب وقال: «فكر في ذلك، أو جرّب مرة أن تفكر بالمقلوب، وإن نجحت، ربما ستحاول أن تبدأ في قراءة القصة من النهاية، وستصعد حتمًا إلى البداية. جرب، ربما ستستمتع أكثر».

آثر صاحبه الصمت، ولكن الكاتب بادره بضحكة زلزلت المكان، ثم توقف عن الضحك، وحاول أن يشرح فكرته: «تخيل أن القصة مثل الهرم، هناك قمة وقاع، ابدأ أنت قراءتك من القاع صعودًا إلى القمة». وبشيء من الانزعاج رد عليه صاحبه بسرعة وقال: «ما هذه الترهات؟ سوافك حامضة مثلك، أراك أكثر من الشرب، أليس من الأفضل أن نغير المكان، لقد قتلني الهدوء هنا، هيا إلى الصخب».

(5)

في اليوم التالي تناولت وسائل الإعلام الحادث المأساوي. لم يكن أحد يتوقع حدوثه، ليس كمثل الأعاصير التي يعلن عن قدومها قبل أن تحاول تدمير مسقط، ولم يكن كحوادث الطرق التي تحدث يوميًا. لم يكن أحد يستطيع أن يتنبأ بهكذا انفجار. وقد أكدت التحقيقات عن مصرع جميع من كانوا بالمطعم الذي كان يقع في الدور الأرضي في بناية من طابقين. وكان من بين الزبائن مسؤولون في الدولة وفنانون وكتاب وصحفيون وسياح أجانب. وتم الكشف عن سبب اختراق السيارة للجدار الزجاجي. فالسائق لم يكن ناقلًا، ولم يكن انتحاريًا، بل كان على ما يبدو مرتبكًا. أما سبب انفجار السيارة فلم يحدد على وجه الدقة، كانت هناك فرضيات مختلفة، فوسائل الإعلام الرسمية والخاصة ذكرت أن الانفجار بسبب ولاعة طارت في ماكينة السيارة وفجرتها، وفرضية أخرى قالت بأن السيارة صدمت صندوق كحول واختلط بوقودها، أما مواقع التواصل الاجتماعي فضجت بالفرضيات والتفسيرات، فمثلا قيل بأن الإرهاب له يد في الانفجار، وأن الظلم هو السبب، وآخرون قالوا

بأن الفساد هو السبب، وهناك فرضية كان لا بد لها أن تظهر في مثل هذه الكوارث وهي أن هذا الانفجار كان عقاباً من الله على عصيانه بسبب بيع الخمور المحرمة. كما أُعْتَبِرَ هذا الانفجار هو الأول من نوعه، رغم تكرار حوادث اختراق السيارات للواجهات الزجاجية، فمنذ ستين سيارة اخترقت الحائط الزجاجي لإحدى الصيدليات، وبعد شهور سيارة أخرى دخلت في دكان مواد غذائية وقتلت البائع وزبونة كانت تدفع الحساب. وبعد هذه الحوادث كان لا بد من أصحاب المحلات بناء حواجز إسمتية أمام النوافذ والأبواب، خوفاً من هجوم مفاجيء لسيارة ربما لا يعرف سائقها مكان الفرامل.

(6)

ساد الصمت لفترة بين الصديقين. أحضر النادل صحن سلطة جديداً. وحاول أن يكسر الصمت لكنه لم يفلح. وحينما ابتعد عن طاولتهما قال صديق الكاتب: «أريد أن أضحك».

حدق الكاتب فيه وقال: «وما الذي يمنعك، من حقك أن تضحك، هيا اضحك».

الصديق رفع يديه وقال: «ألديك نكتة؟».

«لا».

«طبعاً تقول لا».

«لا، هل تريد غيرها، لا، لا».

«هيا بنا نغير المكان.. هيا».

ولكن الكاتب على ما يبدو لم يتفق معه، إذ قال له: «لا.. الهدوء أفضل، وخاصة للمناقشة، وأنا أستمتع به أكثر».

«لكنني في هذه اللحظة أرغب في مكان صاخب، أريد أن أرقص، أرغب بشدة في الرقص».

«وماذا عن قراءة القصة من نهايتها، ألن تجرب ذلك».

غاص صاحبه قليلاً في التأمل والصمت. حك جبينه، ثم قال: «نعم، نعم سأفكر، أعدك بذلك».

«جيد».

«دعنا الآن نتقل من هذا المكان، فالمتعة والليل في انتظارنا، لنكتشف المجهول يا صديقي».

غمز الكاتب بعينه كمن اكتشف شيئاً، وقال: «أنت مصر على تغيير الموضوع والفكرة التي طرحتها، وهدفك ليس تغيير المكان، أرجوك دعنا نكمل هذا النقاش».

فكر صاحبه قليلاً، وبعد ذلك أطلق تنهيدة خفيفة، وقال: «أيها الكاتب، أيها الصديق، تخيل أننا نعيش في قصة مكتوبة، ونحن ضمن شخوصها، ما رأيك أن نبدأ في سرد حكايتها من مكان مزعج وننتهي بمكان هادئ. بعد ذلك بإمكانك كتابتها. هذا الهدوء قاتل. أين الصخب؟».

وفجأة هبّ واقفاً، وقرر أن يحسم الموقف، فتح ذراعيه لصديقه يدعوه للخروج: «هيا الآن، سأدفع الحساب».

نهض ليدفع الفاتورة، ظل الكاتب واجماً يحدق في صاحبه، ثم قال له بصوت مرتفع: «طيب.. تمام.. ولكن رجاء لا تنس أن تفعل شيئاً مختلفاً في حياتك».

وبشيء من التهكم ضحك صاحبه بينما كان يدفع الحساب، وقال له: «سأفعل يا صديقي، سأفعل، هيا بنا نرقص، هيا نخرج».

ما هي الحكاية الأخيرة لشهرزاد؟

ماتت أم حمدان وفتحت عينيها. كانت النسوة يغسلنها. تأكدن بأن قلبها صامت. وابتنتها أكدت لهن بأنها أغلقت عيني أمها بعد أن أسلمت روحها في المستشفى. حاولت امرأة إغلاق عيني أم حمدان، لكنهما رفضتا ذلك. اشتعل الذهول بينهما. يبدو أن روحها ما زالت عالقة فقط في العينين، وبقية أعضاء الجسد في موت أكيد.

هذا ما حكته «جمانة» لزوجها «راشد» الذي غطس في الدهشة.

جمانة موظفة. لم تنجب بعد، رغم مرور عشر سنوات على زواجها. لم تقرأ يوماً حكايات ألف ليلة وليلة. نعم، ربما سمعت عنها، وربما شاهدت أحد المسلسلات التي تحدثت عن شهریار وشهرزاد وعلي بابا والسندباد، ولكن لم تهتم يوماً بتاريخ هذه القصص وأفكارها وأحداثها وخيالاتها، ولم تحاول يوماً أن تكتب قصة أو شعراً، ربما كتبت خواطر عاطفية قبل زواجها. ولكنها في كل يوم، وتحديداً على المائدة برفقة زوجها راشد، تتحول إلى شهرزاد.

وزوجها لا يعرف أنها تتحول إلى شهرزاد، ولم يتقمص يوماً شخصية شهریار، كان يحب أن يستمع إليها وهي تسرد حكايات متنوعة عن أحداث وقعت في مكان عملها، وعن قصص جيرانها وعائلتها وصديقاتها، حكايات يسودها الغموض والمتعة والفرح والحزن. وبعض هذه القصص تسردها في

حلقات كما يحدث في المسلسلات التلفزيونية، ولا تخلو من مفاجآت وممتعة وتشويق.

وحكايات جمانة بدأت تقل تدريجيًا منذ ثلاث سنوات، بسبب تقنية الهواتف النقالة وتحديدًا نظام الواتس أب، فهذا النظام أصبح يلهيها عن سرد القصص، ويلهي زوجها راشد عن سماع ما يحب، وذات يوم قال لها: «الطعام بلا طعم»، بعد ذلك اتفقا على إبعاد الهاتف النقال عند تناول الوجبات.

وفي هذا اليوم، في بداية الوجبة بدأ حديث جمانة عن مشروع بعض التصليحات في الشقة، ووصفت مالك الشقة بالرجل الشرير، فهو يستغل وضع السكان في واقعهم المريع المتمثل في غلاء أسعار الإيجارات وعدم توفر شقق شاغرة، فقد قال لهم صراحة دون تردد: «لن أصلح شيئًا في الشقة، لن أجدد الأصباغ، إذا لم يعجبكم الوضع ابحثوا عن مكان آخر». أبدت جمانة مقترحاتها التي لا تنتهي في تغيير الأثاث والأصباغ، وغيرها من المشاريع الطموحة والتي من أهمها بناء بيت من طابق واحد. وفي كل مرة يردد لها بأن عليهما أن يتنهدا أولاً من تسديد الديون، ثم التفكير في هذه المشاريع. وكان ذلك كفيلاً بتغيير مجرى الحديث.

بالأمس كانت جمانة غاضبة لأنها لم تحصل على مكافأة من عملها، وأن المسؤول ظلمها، وأن زملاء لها أقل منها في الكفاءة حصلوا على مكافآت. حاول راشد أن يجد طريقة لتغيير الحديث، وقال لها: «من الأفضل أن تنسي العمل حينما تخرجين منه». لكنها غضبت أكثر، وقالت بانفعال: «كيف أنسى.. كيف؟ لا أستطيع، مريم ليست أحسن مني، ولا ذلك المدعو ماجد الذي يتغيب دومًا». ثم صمتت. رمق راشد وجنتيها اللتين أصبحتا ورديتين،

وقال: «يعجبني تورّد تفاحتيك». هدأت قليلاً. ابتسم هو متأملاً ردة فعلها. لكنها عاودت الانفعال وقالت: «لا توجد عدالة، هذه الدنيا شريرة.. شريرة». لم يستطع راشد أن يغير مجرى الحديث، بل أعطته جمانة قصصاً مألوفاً ومملة في نفس الموضوع المتعلق بالعمل والروتين الممل وظلم المسؤولين. راشد لم تعجبه الجلسة وكانت بالنسبة إليه غير مريحة على الإطلاق. وهذه الجلسة وهذا الموضوع يتكرران في نهاية كل عام، وقت أن توزع الوزارة بعض المكافآت والعلاوات لموظفيها. وراشد أصبح لا يستمتع بهذه المواضيع ويفضل قراءة رسائل الواتس أب حتى وإن كانت سخيفة وتافهة. وراشد قليل الكلام ومستمتع جيد، فقط يقول لها جمل بسيطة ويسكت: «عمري، هذه الحكايات تتكرر».

راشد يعرف بأنه لا يستطيع دائماً إقناع زوجته. ولكنه يحاول بقدر الإمكان تهدئتها أو التخفيف من أحزانها، في بعض الأحيان تقتنع بكلامه المقتضب، وأغلب المرات تنسى كلامه وتثور وتواصل سرد حكاياتها دون تركيز.



تكلّمت جمانة عن رحلة صديقتها وزوجها وأبناهما إلى باريس، والحكاية لم تعجب راشد، وبعد أن انتهت منها، قال لها راشد: «وجبة اليوم شهية حقاً». تورّد خذاها وقالت له: «ظننت بأن السمكة مالحة قليلاً». طمأنها وقال: «لا يا عمري، السمكة لذيذة».

وقبل نهاية الوجبة تغير وجهها، وحدثت في وجه راشد الذي كان ما يزال يمضغ قطعة من السمكة المشوية، فعرف بأن هناك حكاية جديدة. ولم يكد ينتهي من التوقع حتى حكّت له قصة زوجة أبي حمدان التي ماتت قبل خمسة

أعوام. وهذه الحكاية تعتبر استكمالاً واكتشافاً للحكاية الأصلية التي حكته في ذلك الوقت. أصيب راشد بنوبة حزن، ونسي متعة الأكل. وسأل زوجته بتوتر: «هل هذا صحيح؟».

أجابت بحماس: «مع الأسف.. صحيح».

أبو حمدان يسكن في بيت إلى جانب البناية التي يسكن فيها راشد، بيت قديم يتكون من طابقين، وبه موقف سيارة وحديقة صغيرة فيها ثلاث نخلات وشجرتا ليمون. وراشد نادرًا ما يلتقي بأبي حمدان. وعندما سمع بخبر وفاة زوجته كان راشد خارج البلد، وحينما رجع، على الفور ذهب إلى بيت أبي حمدان وقدم له العزاء. وعرف راشد من زوجته جمانة بأن موت أم حمدان كان مفاجئًا وغريبًا، حيث سقطت من سلم البيت وضرب رأسها على البلاط وكسر حوضها، وقضت أسبوعين في العناية المركزة، ولم يقتنع أبو حمدان بالمستشفى بحجة أن بعض المرضى لا يتلقون العناية الكافية وأنه سمع كثيرًا عن الأخطاء الطبية، وكان يثق كثيرًا بالطب الشعبي. وطلب من الأطباء ترخيص زوجته، لكنهم رفضوا بسبب حالتها الخطيرة، وحينما أصر سمحو له بإخراجها على مسؤوليته، وبعد شهرين فارقت الحياة.

كان أبو حمدان حزينًا جدًّا، ولم يكن قادرًا على منع نفسه من البكاء. كان يكبرها بعام واحد، ولديه منها ولدان وخمس بنات. الأكبر اسمه حمدان متزوج ولديه ولد وبنت، والثاني يدعى محمود ويأتي تربيته السابع بين أخيه وأخواته.

وكانت جمانة بعد وفاة أم حمدان ترمي لراشد -أثناء تناولهما وجبات الطعام- بحكايات قصيرة عنها بحكم زياراتها المتكررة لبنات وأخوات أبي حمدان. وكان يسمعها كمن يسمع مقاطع من نشرات أخبار القنوات الفضائية. جمانة تعرف بأن راشد تحدث له قصص كثيرة في يومه، في عمله، مع أصدقائه، لكنه لا يحكيها، يخبئها في قلبه، وهي حاولت مرارًا فتح صندوقه إلا أنها فشلت، ولذلك هي التي تحكي وتستمتع بذلك.

وأثناء تواجد أم حمدان في العناية المركزة، كان أبو حمدان صامتًا طوال الوقت. وتم تأجيل زواج ابنته، ولم يُحدد موعدٌ آخر للزواج. وبعد أن أخرجها من العناية المركزة ذهب بها إلى أحد بيوت الطب الشعبي لتجبير حوضها المكسور، ولكنها لم تستجب للعلاج وتدهورت حالتها كثيرًا، ثم أُرجعت إلى المستشفى، وظلت يومين ثم ماتت.

أبو حمدان مكافح صلب كان يعمل في الشركة العالمية للحديد والإسمنت، عمل أربعين سنة، بعد وفاة زوجته لم يقدر على العمل، وفقد شهيته للطعام، وأصابه النحول والوهن. أكثر أولاده تأثرًا هو محمود، عمره خمسة عشر عامًا، ترك الدراسة، ويبدو أنه كان شديد التعلق بأمه. ومن ضمن الحكايات الملفتة للانتباه والتي حكتها جمانة لزوجها هي حكاية حمدان، الولد الأكبر، فقد طلق زوجته بسبب ادعائها قراءة أفكار زوجها، وأن ذلك يعذبها وينغص حياتها، فكلما كانت تشاهده جالسًا وحده أو نائمًا كانت تقرأ أفكاره وتشاهد خيالاته والتي كانت معظمها، بناءً على قولها، مشاهد لفتيات جميلات يمارس معهن الحب. وأصبح حمدان لا يقدر على التفكير في أي

شيء لأنه مراقب من زوجته، فثقل زواجهما بالمشاكل والغيرة، وكان لا بد من الطلاق.

وفي العام السادس على وفاة أم حمدان، وأمام وجبة مكبوس دجاج، وبعد يوم من توزيع المكافآت على زملاء جمانة وغضبها، قالت وهي تضع في صحنها سلطة خضراء: «هناك مفاجأة صادمة في حكاية أم حمدان».

قال لها بتشوق: «عسى خير».

مضغت كمية من السلطة الحامضة وقالت: «انضح بأن زوجته لم تمت بسبب سقوطها عن درج البيت».

تساءل راشد بدهشة: «إذن كيف ماتت؟».

قالت وهي تشرب ما تبقى من عصير البرتقال: «بينما كانت تمشي خلف سيارة زوجها الواقفة في حوش البيت، رجعت السيارة إلى الخلف وصدمتها، وسقطت متأثرة، وكسر حوضها».

اضطر راشد أن يشرب كأسًا من الماء وقال: «ومن كان يقود السيارة؟».

قالت بشيء من السرعة: «ولدها محمود».

تطلع راشد إليها غير مصدق، ثم أكملت وقالت: «وطبعًا لم يكن يملك رخصة قيادة».

سألها بتوتر: «هل هذا صحيح؟».

أجابت بحماس: «مع الأسف صحيح».

وبعد صمت قصير، قال لها: «الآن فهمت القصة، لم يستطع أبوه أن يكشف عن الحقيقة خوفًا على ولده من مساءلة الشرطة».

ناولته زوجته جمانة كأسًا من عصير البرتقال وقالت: «بالضبط حبيبي، هذا ما حدث».

وبعد أيام ظلت جمانة تسرد قصصًا قصيرة وغير مكتملة. ولاحظ زوجها بأنها كسرت الاتفاق وبدأت تدريجيًا بإحضار هاتفها النقال، لتأكل بصمت وتقرأ منه. سألها زوجها راشد: «ما بك حبيبي».

ردت بحزن: «لا شيء».

قال لها: «الصمت ليس عادتك، وكان لدينا اتفاق بشأن الهاتف النقال».

ردت عليه وقالت: «ماذا تريدني أن أقول، أحضرت الهاتف لأنني أنتظر رسالة مهمة من صديقتي فاطمة».

حل الصمت بينهما لدقائق، وتركها راشد لبرهة وعاد إليها وقال: «ماذا هناك يا جمانة.. أخبريني».

أطرقت رأسها، ثم حدقت فيه وقالت: «كانت أم حمدان ضحية ابنها».

ارتجفت شفتها وأردفت قائلة: «هي ربه وأتت به إلى الدنيا، وهو تخلص منها وقتلها».

أحس راشد بشيء من القلق، فقد حكى له زوجته الكثير من الحكايات ولم تكن هذه الوحيدة الصادمة، قال لها: «وهل هذا ما يحزنك؟».

أجابته بشيء من الانفعال: «أحمد الله على أنه لم يرزقنا أولادًا».

انتبه راشد إلى تأزم الموقف، وخوفًا من الدخول في متاهات غامضة حاول تهدئتها وقال: «ما حدث لأم حمدان كان غير مقصود من ولدها، حتمًا لا يقصد أن يؤذي أمه».

سألته: «وماذا تسمي طيشه؟».

أجابها: «هذا يحدث دائماً لدى المراهقين».

حدقت في صحن المكبوس الذي ظل ممتلئاً، وغرقت في حزن وصمت. لكن راشد كسر الصمت وقال: «ولكن هذا غريب.. وأنا أعرفك جيداً.. أنت لست من النوع الذي يتأثر بسرعة ويفكر بهذه الطريقة.. ما القصة؟».

أجابته وقالت: «لا توجد قصة».

حاول راشد جاهداً هذه المرة تخفيف عبء الحكاية على زوجته، وقال: «إنها نزوات وأفكار طائشة تطرأ لدى الأولاد.. وقد تتولد منها مشاكل.. وهذه المشاكل تختلف في درجاتها».

بعد ذلك عرف راشد من زوجته جمانة أنه أثناء احتضار أم حمدان بالمستشفى، تم الاتصال بمعظم أسرتها، فحضروا، وشاهدوها لآخر مرة، وعندما صعدت روحها، جاءت ابتتها وأغمضت عيني أمها المتوفاة، وبعد أن أخذت إلى البيت أدخلت في الغرفة لكي يغسلنها النسوة، وفجأة حدث شيء غريب.

لاحظت النسوة بينما كن يبدأن في غسل جثة أم حمدان أن عينيها كانتا مفتوحتين، وفوراً أكدت ابتتها أنها أغلقت عيني أمها في المستشفى. مدت المرأة المكلفة غسلها يدها وأغمضت عيني الجثة. لكنهما أصرتا على الرفض، وفتحتا من جديد. حاولت المرأة مرة أخرى إغلاقهما. ولكن، كأن قوة خارقة فتحت العينين. اشتعل الذهول بينهن. وبعد تفكير قررت المرأة المسؤولة عن غسلها إخبار أبو حمدان، خرجت من الغرفة ونادته وأخبرته بقصة عيني زوجته. اندهش أبو حمدان وأخذ يتلو بعض الآيات القرآنية.

ثم سألتها المرأة: «هل هناك أحد من أقربائها لم تره في فترة احتضارها؟». فأجابها قائلاً: «نعم ولدي محمود». فطلبت إحضاره لرؤية أمه، فلبى طلبها وذهب لإحضار محمود، فحضر ودخل الغرفة الممتلئة بالنساء، وحدث في جثة أمه مفتوحة العينين، فأخذ يبكي بمرارة وحرقة. وبعد أن خرج، أغمضت المرأة عيني الجثة، ولم تفتحها من جديد. وأكملت المرأة بعد ذلك غسلها، ومن ثم دفنت.

ابتسم راشد وقال: «يا إلهي، حكاية خيالية». احتجت جمانة وقالت بشيء من الغضب: «ليست خيالاً، إنها حقيقة والجميع يتحدث عنها».

قال لها: «نعم، أصدقك، ولكن هل هذا هو الذي زاد في حزنك؟». قالت مرتبكة: «انتابني خوف شديد». ثم أشارت بيدها إلى جدار الصالة، وفاجأته جمانة بقولها: «انظر يا راشد إلى الجدار». توجهت عينا راشد ناحية الجدار، وقال: «ماذا به؟». ردت عليه جمانة وهي خائفة: «انظر.. عينا أم حمدان مفتوحتان.. ألا تراهما؟». ذهل راشد وأجابها: «لا طبعاً». ثم قال لها: «ماذا حل بك يا جمانة؟». أغمضت جمانة عينيها، وفتحتهما من جديد، وأصرت قائلة: «ألا تراهما.. عينا أم حمدان.. عينا أم حمدان».

سقط راشد في الدھول، وقال مدعوراً: «نعم.. نعم.. أستطيع رؤيتهما».

هل في حقيبة الطفل فراشات؟

1. لماذا بكى الطفل؟
2. هل كان الطفل في غرفة مظلمة؟
3. هل نادى الطفل أمه وأباه ليشاركاه البكاء؟
4. متى خرج الطفل من غيمة البكاء؟
5. متى رجع الضوء وتفتحت الألوان؟
6. لماذا حمل الطفل حقيبته على ظهره؟
7. هل في حقيبة الطفل فراشات؟
8. هل في حقيبة الطفل قوس قزح؟
9. كيف تسالت القطة البيضاء إلى حديقة المنزل؟
10. ماذا فعل الطفل حينما وجد الحديقة بيضاء بالياسمين؟
11. كيف كانت تعابير وجه الطفل حينما وجد القطة البيضاء تعرج؟
12. هل كان ذيل القطة البيضاء مقطوعاً؟
13. هل كانت القطة البيضاء تتألم؟
14. هل خبأ الطفل أسئلته تحت شجرة الليمون؟
15. هل تمنى الطفل وجود شجرة تفاح في الحديقة؟
16. هل تكلمت القطة البيضاء؟
17. أين وضع الطفل الحقيبة عندما قرر أن يخرج منها ألوانه؟
18. هل نادى الطفل أمه وأباه ليشاهد القطة البيضاء؟

19. هل رغب الطفل برسم القطة البيضاء؟
20. ماذا فعل الطفل حينما وجد الحقيبة مقفلة؟
21. هل يعرف الطفل القلق؟
22. لماذا لم يبحث الطفل عن مفتاح الحقيبة؟
23. لماذا لم يبحث الطفل عن الحقيقة؟
24. لماذا زادت القطة من موائها؟
25. لماذا حاول الطفل الابتعاد قليلاً عن القطة عندما تقدمت ناحيته؟
26. ما هو شعور الطفل حينما استلقت القطة البيضاء وتمطت أمامه؟
27. هل بحث الطفل عن مفتاح الحقيبة؟
28. هل يعرف الطفل الاستسلام؟
29. لماذا نظر الطفل فجأة إلى مكان دراجته الهوائية؟
30. هل اشتاق الطفل لركوب دراجته؟
31. هل ذكرته الدراجة بشيء ما؟
32. لمن قطف الطفل الياسمين؟
33. لماذا ركض الطفل إلى داخل البيت تاركاً وراءه الحقيبة والقطة؟
34. ماذا فعل الطفل حينما شاهد أباه صامتاً؟
35. ماذا فعل الأب عندما خدرته رائحة الياسمين؟
36. لماذا لم يسأل الطفل أباه عن مفتاح الحقيبة؟
37. لماذا أخذ الطفل كمنجته الصغيرة؟
38. ما هي المقطوعة الموسيقية التي عزفها الطفل للقطة البيضاء؟

39. لماذا بحث الطفل عن دراجته الهوائية؟
40. لماذا دخل الطفل مرة أخرى إلى البيت؟
41. لماذا قرر الطفل رمي الكمنجة؟
42. لماذا أخذ الطفل مسدسه اللعبة وخرج مرة أخرى إلى حديقة البيت؟
43. ما هو شعور القطة وهي تشاهد المسدس؟
44. هل استيقظت القطة وهربت أم ظلت مستلقية؟
45. لماذا فتح الطفل الباب الخارجي للبيت؟
46. لماذا ترك الطفل الباب مفتوحاً ورجع إلى القطة؟
47. من هو الرجل الذي دخل فجأة دون استئذان؟
48. لماذا ظلت القطة تداعب الياسمين الملقاة على الأرض؟
49. ما سبب بكاء القطة؟
50. أين ذهب الطفل؟
51. لماذا ترك الطفل الحديقة والقطة والحقيبة وشجرة الليمون؟



1. لماذا كان الأب يكتب صفحة عن الحروب؟
2. لماذا كان الأب يبكي بحرقة؟
3. كيف دخل الطفل من نافذة الغرفة؟
4. ما هو لون جناحي الطفل؟
5. لماذا مسح الطفل دموع أبيه؟
6. لماذا ناول الطفل أباه أقلاماً ملونة ودفتر رسم؟

7. هل طلب الطفل من أبيه أن يرسم له وردة ونحلة وعسلًا؟
8. هل طلب الطفل من أبيه أن يرسم له تفاحة لونها وردي؟
9. هل طلب الطفل من أبيه أن يرسم له قطة بيضاء؟
10. هل فرح الطفل باللوحات؟
11. لماذا طار الطفل مرة أخرى من النافذة؟
12. هل ترك الطفل أباه وحيدًا يدوس بقدميه الحافيتين شوك الأسئلة؟

الأسئلة أغلى سعراً من النفط

لم يكن المحاضر يحمل أوراقاً أو حاسباً آلياً محمولاً أو هاتفاً نقالاً أو حتى قلماً. دخل وجلس فارغ اليدين. صمتت القاعة. ضرب بإصبعه، ثلاث ضربات، على رأس الميكرفون. انتشر صوت الضربات في القاعة فسرت الطمأنينة في نفسه. نظر إلى الجمهور وابتسم. لم يكن وجهه يحمل أية ضغينة أو استياء رغم ما حل به منذ خمس عشرة سنة قبل رحيله إلى أستراليا. كانت نظراته رائعة ومطمئنة رغم الكارثة التي سوف يتحدث عنها والمستقبل الذي سيكشفه بعد قليل. ماذا سيقول لنا هذا العُماني الأسترالي؟ الذي غادرنا لسنوات وأصبح عالمًا ذائع الصيت في مجاله، وشهيرًا يطير من بلد إلى بلد. نظر إلى القاعة التي امتلأت عن آخرها، وكأنها تقول له: «انظر.. الجمهور العُماني تغير وأصبح أكثر ثقافة ووعياً وجدية».



عندما دخلتُ المقر الجديد للمركز الثقافي لحضور المحاضرة تذكرت المرة الأخيرة التي استمعت فيها إلى المحاضر نفسه. كان ذلك قبل خمس عشرة سنة، في تلك القاعة الصغيرة، في المقر القديم بالقرم. كان المحاضر في ذلك الوقت كثير الابتسام ومفعماً بالأمل، وهو يحذر الجميع من مخاطر نفاد الذهب الأسود، وكان يقترح الحل تلو الحل. كانت محاضرة ممتعة ولكنها مقلقة. أتذكر حينها أنني رأيت في القاعة براميل صغيرة من النفط موزعة بين الكراسي، وكانت الرائحة الكريهة تملأ المكان، وأحدهم من غير قصد أوقع

برميلاً واندلق سائله على الأرض، فظهرت أسماك ميتة، كان مشهداً فتازياً لا يحدث إلا حينما أغمض عيني، فأرى ما لا يراه الآخرون.

وبعد سنة من تلك المحاضرة سمعت بأن المحاضر العُماني التحق بالعمل في جامعة أستراليا، وبعدها ظل هناك وتجنس. وها هو اليوم المركز الثقافي في مقره الجديد بـ (المعيلة)، وفي قاعته التي تتسع لألف شخص، يستضيف المحاضر كواحد من العلماء الأستراليين. وقد وضع عنواناً غامضاً لمحاضراته، وهو «الأسئلة أغلى سعراً من النفط». العنوان جعل من القاعة تمتلئ بالحضور. كان الجميع متحمساً لسماع آرائه والتقاءه خاصة بعد هجرته.

لمحته من بعيد، كان جالساً في غرفة الضيوف ينتظر موعد بداية المحاضرة. كان بصحبته بعض أصدقائه ومحبيه. لبس بدلة سوداء راقية وشعره فضي اللون. في ليلة محاضراته القديمة لبس دشداشة لونها أبيض وربط رأسه بمصر بني اللون. كان عمره في ذلك الوقت ما يقارب الخمس والأربعين سنة. أتذكر أنني سلمت عليه، ومد يده ليصافحني بحرارة رغم أنه لا يعرفني.

وجدت صديقاً قديماً. لفت انتباهي اللون الأسود لكلمته، اقتربت منه وسلمت عليه. رحب بي ودعاني للجلوس إلى جانبه. سألته: «صار لديك اهتمام بالاقتصاد، أتركت الأدب؟».

نظر إلي وقال مبتسماً: «لا طبعاً، لم أترك الأدب، ولكنني متشوق لرؤية هذا الرجل وسماعه».

«من الجيد أن المركز الثقافي نجح في دعوته، سمعت بأنه نال جوائز عالمية في الاقتصاد».

«نعم سمعت بذلك، بلده كانت أولى به».

«لكنك تعرف أسباب هجرته».

«نعم أعرف».

«ما رأيك في عنوان المحاضرة؟».

«لا أعرف ماذا يقصد، ولكن بعد لحظات سنعرف».

دخل المحاضر وجلس في المنصة. أتذكر أن المحاضرة القديمة كان لها مدير جلسة، ومنذ خمس سنوات لم يعد المركز الثقافي يوظف في محاضراته مديراً للجلسات. أصبح المحاضر هو مدير جلسته، يعرف بنفسه، ويقدم محاضراته، ويفتح ويغلق باب الأسئلة والمناقشة. كما ألغت الهيئة الإدارية الجديدة للمركز عادة استضافة شخصية لامعة أو مسؤول كبير ليرعى المحاضرات أو الفعاليات والأنشطة الأخرى، أصبح يؤمن بأن الراعي هو الجمهور. وفي هذه القاعة، لم يستخدم المركز فيها الكراسي المصفوفة بعضها إلى جانب بعض، بل وضع طاولات نصف دائرية، وكل طاولة لها أربعة كراسي، وفي كل طاولة وردة وكوب من القهوة وزجاجة ماء ومناديل ورقية وناقل للصوت، وتوزعت الطاولات على مدرجات لسهولة رؤية المنصة.

قبل حضوري إلى هنا، تخيلت المقدمة التي سيقولها المحاضر الأسترالي: سينفخ فيها شوقه إلى البلد، وسيحليها بنكهة الغربة، وسينوه إلى آخر محاضرة

ألقاها في المبنى القديم، في القاعة التي كانت تتسع لمائة شخص، وحضر حينها ما يقارب الستين رجلاً وامرأة، وسيقول هناك فرق بين الماضي والحاضر، وسيستأهل إن كانت كل المحاضرات بهذا الحجم من الجمهور. ماذا سيقول أيضًا في مقدمته؟ لماذا لم يجلب حاسبه المحمول كسابق عهده؟ ويعرض محاضراته على شاشة بيضاء، ويقلب الشرائح المعلوماتية؟ اليوم جاء وحيداً لا بساً بدلة سوداء لامعة. كيف سيعرض الأرقام والرسومات البيانية؟ كيف سيحذر الجميع من الكارثة؟ هل المركز الثقافي استحدث تقنية حديثة؟ ما هي يا ترى؟ أم المحاضر هو من سيجلب التقنية الجديدة؟ هل سيفاجئنا بها؟ وربما ستكون كالتالي: أثناء حديثه ستظهر الأرقام والرسومات البيانية في هواء القاعة، تعرض نفسها للجمهور، وبذلك فهو ليس بحاجة إلى حاسوب وشاشة عرض.

أتذكر بعد محاضراته القديمة بستة أشهر تقريباً سمعت بأنه رحل عن البلد. رُفِضت ترقيته من قبل لجنة الترقيات. صدمه الخبر. اندهش زملاؤه. كيف لرجل أكاديمي وباحث بارز ومتمكن أن ترفض ترقيته؟ ثم سمعت بعد ذلك بأن المحاضر استقال من عمله وبعدها التحق بإحدى الجامعات الأسترالية. وها هو اليوم هنا، شامخاً ورافعاً رأسه يحدق في الجمهور الذي ينتظره منذ أشهر من إعلان عنوان المحاضرة.

واليوم انتهى النفط. كانت أسعاره تعلو وتهبط. جفت الآبار. شركات البترول أفلست، وموظفوها رجعوا إلى بيوتهم. تحدث في محاضراته القديمة عن الهبوط الحاد للنفط في ذلك الوقت، قدم من خلالها تحليلاً

عميقاً للوضع، ثم طرح حلولاً ومقترحات. وخرج الجمهور بعد تلك المحاضرة محملاً بالقلق والخوف من الكارثة التي تنبأ بها المحاضر. وبعد أشهر ارتفعت أسعار النفط وابتهج الجميع واستقرت الأوضاع، حتى جاء ذلك اليوم الذي أعلنت فيه الحكومة عن نضوب آبار النفط إلى الأبد.

ماذا سيقول هذا الرجل الزائر؟ نكس رأسه، ورفعته مرة أخرى، وقال: «مساء الخير أعزائي الحضور». هدأت القاعة. تفشى الترقب. واسترسل المحاضر: «لن أطيل عليكم». وفجأة انطفأت الكهرباء وأظلمت القاعة. تفشى الحر. انتشرت أصوات الاحتجاج مخترقة جدران الظلام. أغمضت عيني فسمعت صوتاً صاخباً لرفرة طيور، ثم صوت نقرها، ثم صوت صراخ. فتحت عيني فاخفت الأصوات. أغلب الحضور فتحوا أضواء هواتفهم النقال. تحولت القاعة إلى شبكة خيوط ضوئية. خرج المنظمون من القاعة. اختفى المحاضر في الكتلة الظلامية، هناك بعض من أجزاء جسمه يظهر بين الحين والآخر بسبب الكريات المضئية التي كان يوجهها له بعض الحضور باستخدام هواتفهم. كانت الكريات تتراقص في جسده. ظل صامتاً حتى رجعت الاضاءة، وبدأت أجهزة التكيف تلفح المكان ببرودتها.

أطفأ الجمهور مصابيح هواتفهم الذكية. رفع المحاضر رأسه من جديد ليستكشف تعابير الوجوه. ومرة أخرى ضرب المحاضر رأس الميكروفون، ثم قال: «مساء الخير مرة أخرى.. نعود إلى المحاضرة،

وكما قلت لكم لن أطيل عليكم». وانطفأت الكهرباء مرة أخرى. أصدر بعضهم ضحكات استهجان. مرة أخرى، خرج المنظمون من القاعة. الضوء يهرب في هذه الليلة ولا يريد المكوث للاحتفاء بالمحاضرة. صرخ المحاضر وقال: «هل صوتي مسموع؟ لا أعتقد أننا نحتاج إلى مايك». جاءت الردود محملة بالرفض لأن الصوت غير مسموع. سكت المحاضر. رجعت الكهرباء. دخل أحدهم ووجه اعتذاره للجمهور والمحاضر وقال: «أعتذر لكم جميعاً هناك مشكلة فنية بسيطة في الكهرباء، لكن الأمور جيدة الآن». ثم وجه إشارة إلى المحاضر باستئناف محاضراته التي لم تبدأ أصلاً.

ظل المحاضر صامتاً لفترة، كان يتأمل الحضور وفخامة القاعة. نكس رأسه، ثم تفحص هدوء وترقب الجمهور وقال: «ما رأيكم أن نفتح باب الأسئلة؟». اعترض الحضور. هذه المرة ضعفت الكهرباء. لم تنطفئ. ربما أصابها الوهن. انطفأت أجهزة التكييف، وظلت فقط المصابيح بضوئها الخافت. حاول المحاضر مرة أخرى إقناع الجمهور للتوجه إلى الأسئلة. لكن الجمهور رفض مرة أخرى. اشتعل لغط في القاعة وبدأ الحر يتسلل إليها. خرج المنظمون كالعادة. غفوت قليلاً، دخلت في كهف يسقط من سقفه مسامير حجرية مختلفة الأشكال والحجوم، فخرجت مسرعاً وسقطت على الأرض، بعدها لاحظت لي مشاهد قديمة: بيتنا الخشبي القديم يئن من قسوة الصيف، تلفاز أحمر يرتجف وكان متصلاً ببطارية سيارة بيك أب، بيوت تنزف مياه مجارٍ، شجرة المانجو القاسية

التي ركلتني ذات يوم إلى الأرض ترتعش خوفاً من الريح، يد تسحبني من أحد الأودية الجارفة وتهبني حياة أخرى، فتاة جميلة تمشي على حافة جبل تلفظ اسمي، إعصار قادم كان ينحت الخوف في وجه أحد أقربائي، جبين جدتي الأملس وهي تحتضر، رجال ونساء وأطفال يمسون أوعية ويبحثون عن شيء ما.

وعندما استيقظت، رأيت الجمهور يخرج من القاعة، والمنصة خالية.

الحسنة والقناع

من بعيد رأيت جسمًا ضئيلاً له قدمان صغيرتان كانتا تدغدغان الأرض، كان يمشي مثل البطريق. على الفور قدمت مواساتي للأرض، لأنها أصبحت تضحك رغماً عنها.

أعمل مندوباً لشركة تصنع الصابون المعطر. مهمتي تخليص معاملاتنا في الدوائر الحكومية. والدوائر الحكومية ترسم دوائر الصداع. وعادة ما أجلس في قاعة انتظار دائرية. أنتظر في دائرة الانتظار، حتى يحين دوري، لأحصل على ختم أزرق دائري في استمارات ورقية خفيفة ملونة. وفجأة رأيت ذلك الجسم الضئيل، تقدم ناحيتي وكشف بوضوح عن هيئته، شعرت بأنني رأيته في مكان ما، لكنني لم أستطع التذكر، حاولت تجاهله ولكنه كان قد جلس بجانبي، حدثت فيه وانتابني ضيق خفي بسبب الرائحة التي انبعثت منه، ورغم ذلك أخذت أتأمله، شدني سِنَاهُ اللتان كانتا تتلصصان من فمه المغلق، له لحية مشرذمة، ويلبس نظارات دائرية، وحينما حدثت في عينيه وجدتهما دائريتين ولاحظت أن لهما بريقاً ثقیلاً على النفس، له كرش صغير مكور لا يتناسب مع ضآلة جسمه، يده صغيرتان تحضنان أوراقاً، يلبس في إحدى أصابعه خاتماً ذهبياً، ويلبس في معصمه الأيسر ساعةً لونها أزرق. بدأت أحث ذاكرتي على الاستيقاظ، حتماً رأيته قبل هذه المرة ولكن أين ومتى؟ بدأ السؤال يبعث فيَّ الحيرة والقلق، وفجأة سمعت صوته بعد أن وجه لي سؤالاً. تلمست غرابية في صوته، صوت لم أسمع مثله من قبل، شعرت بعد سماعه بأن هناك من كسر

زجاجًا داخل أذني، وخيط من الدم سال منهما. كان سؤاله مفاجئًا وصوته مؤلمًا: «من أي شركة أنت؟».

لم أسمع مثل هذا الصوت من قبل يتساقط من فم إنسان، عاود السؤال: «عفوًا.. سألتك من أي شركة أنت؟». كلما تكلم أصرخ بداخلي «كفى.. كفى»، لم أستيقظ بعد من دوامة التوهان، واكتشفت أنه حينما يتكلم تتسع عيناه بشدة من وراء نظارته، وبعد أن يسكت تعودان إلى وضعهما السابق، فهل هذا دليل غضب أم غيظ؟ انتزقت وأجبته بسرعة بغية الهرب، بل بغية إسكاته: «أنا من شركة الصابون المعطر».

عرض لي ابتسامة كبيرة كشفت عن أسنانه التي كانت بقيادة نابين عنيدين، ومن المؤكد أنهما يشكلان خصمين عنيدين يخوضان حروبًا في تكسير كل ما يتكسر، وتدفقت نبرات صوته مثل هزات كهربائية مخيفة وقال: «آآ.. نعم.. نعم.. أنا لي أصدقاء في شركة الصابون.. تشرفنا». كنت متجمدًا ومتكهربًا، لم أفهم شيئًا، كان علي أن أخرج نفسي من الموقف بسرعة وأجبته بشيء من الغضب: «أهلاً وسهلاً»، أي أصدقاء أولئك من يتكلم عنهم؟ هل رأيته في الشركة قبل الآن؟ لا، لا أعتقد، أنا رأيته في مكان آخر وهذا حدس أثق به جيدًا. ثم فاجأني وقال: «أتعرف؟ أنا لا أحب الصابون». كنت غارقًا في الذهول. وعندما صرح عن كراهيته للصابون لم أستغرب. وفجأة سمعت صافرة أرقام الانتظار، ورأيت رقم تذكرتي الورقية يرقص في شاشة إلكترونية، فالتجعت فورًا إلى طاولة الموظف الحكومي. دوري في انجاز المعاملة انتشلي من الغرق، تركت ورائي ذلك الكائن جالسًا ينتظر دوره. وحينما انتهيت وجدته ما زال

جالسًا. كانت ابتسامته ساطعة. وكان الكرسي أكبر منه وكأنه مضغوط في صندوق كبير. أبرزت له ابتسامته مأكرة وخرجت مسرعًا إلى الشارع.

ظلت صورة الرجل ملتصقة في ذهني، وفي الليل حضر بجناحين أزرقين، طار باتجاهي في حلم ليس سيئًا ولكنه مقلق. هل كنت أبالغ في هذا الشعور؟ رجل تدفق هكذا من الخارج ورأيت. لماذا كل هذا الشعور تجاهه؟

وفي الصباح التالي وأنا جالس أنتظر دوري في قاعة الانتظار انتبهت إلى أنني كثيرًا ما أحرق ناحية الباب وكأنني أنتظر قدومه. كثيرون يدخلون، لكنه لا يظهر. ما الذي جعلني أهتم لظهوره؟ هل هو خوف من ظهوره؟ هل أحاول الهرب فور دخوله؟ ولكن لماذا؟ ما الذي فعله لي حتى أهرب؟ بالأمس كان يتسم لي طوال الوقت، يبدو أنه طيب. فقط هو صوته الغريب إلى حد ما، وما زلت أحاول أن أتذكر أين رأيته. كان يقفز كالبطريق أو ربما كالبطة، لكن لماذا يمشي هكذا؟ لم أتبين أي خطأ في قدميه، ربما بسبب جسده الضئيل ورأسه الكبير وكرشه، ربما بسبب عدم التناسق في جسمه. تذكرت شخصيات كرتونية وأنني حتمًا شاهدت شخصيات تشبهه.

وفجأة فتح الباب، وقبل أن أنظر كان لدي شعور بأنه هو هذه المرة. وإذ به يقفز إلى الداخل رافعًا رأسه الكبير إلى الأعلى، لكن قفزته كانت هادئة، دخل متأبطًا أوراقه، وكأنه ممثل فتحت له ستارة المسرح واستقبله هتاف الجمهور الصاخب، هل تخيل هو ذلك؟ إذن، أنا الآن أمام ممثل كبير يجسد شخصية خيالية، وبتعبير أدق شخصية كرتونية، والجمهور يقف لتحيته، وبعدها سياتظر

الجمهور الوقت الذي سيخلع فيه قناعه بعد أن ينتهي من أداء دوره. وقد احتكر صوتاً لنفسه لا أحد يستطيع تقليده، ولكن أي شخصية قام هذا الممثل بتجسيدها وظل مرتدياً قناعها حتى هذا الوقت؟ ربما كان هناك نوع من السحر في القناع، وأنه بمجرد أن يرتديه يلتصق في وجهه ويصير قطعة منه، ومن الصعوبة بعد ذلك أن يخلعه، والقفزة أيضاً لا أحد يتقنها غيره. وإذا انسابت موسيقى في المشهد ستتحول القفزة إلى رقصة. بل هي قفزة بطة تهرب من ولد مشاكس، يطاردها، لكنها سرعان ما تستخدم خبيثها، فتغلب عليه وتوقعه في بركة مائية وسخة.

وكما توقعت فقد جلس إلى جانبي، ترك كل المقاعد الشاغرة وجلس في المقعد إلى جانبي، ولم أكن أعلم حينئذ أن ذلك سيكون من حسن أو سوء طالع، وعلى الفور صعقني بصوته الكهربائي: «السلام عليكم.. كيف الحال؟ ما هي أخبارك؟». كنت بداخلي أستنجد وأردد: «كفى.. كفى حرام عليك». قويت نفسي وقلت له: «وعليكم السلام، أخباري جيدة».

أخذت أعبت بأفكاري، وقررت تجاهله، فأخذت أحرق في السقف وتخيلته أنه سيهم ويعضني بأسنانه، سرت في نفسي رجفة وتوتر، ونهضت على الفور إلى دورة المياه هرباً من عضاته، وتخيلته كائنًا فضائياً أرسل كي يدغدغ الأرض ويضحكها. لماذا كل هذا التوتر من شخصية لا أعرفها ولم أتعامل معها؟ حتى أنني لا أعرف كيف يتعامل مع الآخرين. اكتشفت حماقة كبرى تنبت في رأسي، ورجعت على الفور وجلست مكاني، حدقت في عينيه من وراء نظاراته، هل استعمل هذه النظارات الدائرية لأن عينيه دائريتان؟ فجأة انتابته

نوبة تتأؤب طويلة أصدر من خلالها صوتاً أكثر إزعاجاً، ظننت أنه سوف ينام، وفي بعض الأحيان يغطي فمه بيده ذات الخاتم الذهبي، وأحياناً أخرى ينسى أن يضعها عند تتأؤبه فتظهر أسنانه وناباه الأصفران. هل يستعرض لي خاتمه؟ وأثناء تتأؤبه لاحظت بأن جلد وجهه يتمدد وينكمش، وهذا كفيل لإقناعي بأنه يلبس قناعاً. سألته: «أين تعمل؟». أجابني بسرعة بعد أن تتأؤب وقال: «في شركة الصابون غير المعطر». سألته: «ماذا؟». قال: «أمزح معك».

أطلق ضحكة هزت المكان. بعدها قال: «في شركة شحن».

قلت له: «من المؤكد أن عملك متعب».

قال متهكماً: «ماذا تظن؟ أحمل طابوقاً؟».

عدل من نظارته وأردف قائلاً: «أنا مراسل مثلك، أخلص معاملات الشركة في الدوائر الحكومية».

أجبتُه: «نعم، نعم أتفهم الأمر».

قال: «بصعوبة حصلت على عمل، الجميع لا يريدون مثلي يعمل عندهم».

أطلق تنهيدة مؤلمة، وتابع قوله: «لا أعرف الأسباب، ولولا أحد أقربائي وتوسطه لدى صاحب الشركة لما حصلت على عمل».

حينما أحسست بأنني اندمجت معه ونسيت تقريباً صوته الجارح، سألته: «هل أنت متزوج؟». لماذا سألته؟ ندمت على طرحي هذا السؤال. ولكنه لم يعطيني الفرصة للتراجع عن سؤالي، إذ كانت إجابته فورية، كمن كان جائعاً لم

يكلمه أحد منذ أشهر، وكان ينظر إلى ساعته الزرقاء: «لا.. لم أتزوج بعد، ولكن كانت لي علاقة حب».

علاقة حب، هكذا قالها ليحطمني، ربما عرف بأني لم أدخل في علاقة حب قط، وأني تزوجت بالطريقة التقليدية. اشتعل في الفضول، قررت أن أحطم قلقي، وفكرت في دعوته للجلوس في مقهى لتناول الفطور، ولكنني ترددت، فلماذا أدعوه للفطور؟ هو ليس صديقي، وأنا منزعج منه، إنه غريب الهيئة والأطوار، ولديه علاقة حب، أقنعت نفسي بأن هذا يحدث وخاصة في الأفلام، وهو ممثل طبعًا، يلبس قناعًا ويمثل أماننا، يريد أن يجسد دور الوحش أمام الحسناء، ضحكت، لكنه ليس وحشًا، هو خليط من البراءة والخبث. ما قصة علاقته بالحب؟ لماذا ظل يطاردني؟

قررت دعوته. وحكى لي وبكل عفوية وبراءة عن قصة حبه. لم أستطع تصديقها، ربما أحتاج إلى بعض الوقت حتى أستيقظ من وجوده معي وسرده قصة حبه. فتاة أحبته لأنه مختلف. لأنه قبيح. وهي جميلة. كانا يلتقيان وتظل تحديق فيه. كان خجولًا لا يستطيع النظر في وجهها. في جلسته الثانية معها مدت يدها بجانب كأس الماء الذي أمامه. ظلت تمد يدها طوال الوقت. لم يكن يفهم هذا اللغز. وفي الجلسة الثالثة كانت يدها تتسلل كثيرًا ناحية يده النائمة. ولكنه استيقظ على حين غرة، دون شعور تحركت يده وأمسكت يدها، بل عصرتها برفق. انتصب كل شيء فيه. ابتسمت هي بسعادة بالغة. غاصت في بركة ماء عذب مملوءة بأزهار حمراء. على الفور قالت له: «أنا بحاجة إلى يدك.. دعها دائمًا تمسك يدي».

ابتسم خجلاً. وتذكر محاولاتها المتكررة في مناداة يده حتى تمسك يدها. تساءل إن كانت ترغب فقط في هذه الحركة؟ ظل محروماً من الحب حتى قابلها، كان يعد الدقائق إلى حين موعد مقابلتها في أحد المقاهي التي بها غرف خاصة. وبعد أن كان يرجع إلى البيت، يرمي بنفسه على السرير، ويستلقي ناسجاً، بالحرية التي يعرفها، خيالات واسعة وممتعة. كان مبهجاً وجود هذه الحرية في غرفته الصغيرة. اعتبرها نعمة كبيرة. لا أحد يراه، ولا أحد يسمعه، ولا أحد يحاسبه. كل شيء بينه وبين نفسه. يفعل كيفما يشاء، إنها الحرية داخل أربعة جدران. نعمة كبيرة هي نعمة الخيال. يشعر بأنه يطير ويطير ويكسر جميع الجدران. كان قادراً على القفز من أعلى غيمة في السماء دون أن يؤذي نفسه، وكان قادراً على أن يضحك ويداعب عشرات الفتيات، وكان قادراً على الحب بحب. هل يوجد في الحياة أجمل من هذا؟ وهذه الحرية تختفي خارج الجدران. تختفي مثل كل شيء جميل. كان يلبس ملابسه ويأخذ ما يريد في جيوبه وحقيبته. لكنه لا يستطيع أخذ حريته. يدعها نائمة في البيت. يرجع لها لاحقاً. يجدها بين الأربعة جدران منكشمة وحزينة، مثل حمامة مكسورة الجناح. يجلس معها، يحاول أن يبعث فيها الأمل. يتغزل فيها. يحاول دعوتها للخروج لكنها تأبى فقد تعودت على الحبس، وهو تعود على حبسها وحبس نفسه بعيداً عنها.

ولكن فجأة وبعد شهر اختفت الفتاة من أمامه ولم تظهر مجدداً، تبخرت مثل الحلم. وكأنها كانت من ضمن شخوص خياله التي تطير داخل الأربعة

جدران. قال لي إنه اكتشف أنها متزوجة. صعقني باكتشافه هذا. سألته: «كانت متزوجة؟» أجاب بحزن وقال: «نعم كانت كذلك». وبكى بحرقة.

إذن كانت تلعب معه لعبة الحب. أيمكن أن تكون كاتبة تريده شخصية في إحدى قصصها؟ ما الذي جذبها إليه؟ كيف أسر قلبها؟ كيف بدأت علاقته بها؟ قال لي إنه أيضًا اكتشف شيئًا آخر بعد أن ألح لي عرف سبب انفصالها عنه. فالفتاة كانت تشتعل حبًا فقط في شهر يناير، من خلال الرائحة، رائحة يناير، كيف يحدث ذلك؟ وما علاقة الرائحة بالشهر؟ لم يكن قادرًا على إعطائي إجابات واضحة. ولكن على ما يبدو فقد كانت تحب عندما يكون الحب في بدايته، في اللحظات الأولى منه، تلك اللحظات التي تشبه المغناطيس حينما يجذب بكل ضراوة الحديد. ويناير بداية السنة. السنة المولودة حديثًا. بدايتها البريئة. السنة الطفلة. وبشيء من التأكيد قال لي بحزن: «هكذا، هي تريد من الحب أوله». ثم أردف قائلاً: «وقالت لي إن الحب إذا اكتمل لا يكون حبًا، بالنسبة لي الحب رحلة استكشاف، لنفسى وللآخرين». حلق في السماء وقال متابعًا: «حتى الآن لم أفهم كلامها».

إذن صاحب القناع هذا وقع في الحب القصير جدًا. كان أول أسبوع من شهر يناير، ذهب لينهي معاملة في أحد البنوك التجارية. توجه إلى الفتاة الجميلة. وبينما كان يمشي باتجاه النافذة الزجاجية تمنى أن يدخل في علاقة حب معها. كانت بالنسبة إليه أمنية كحال كل الأمنيات التي تراوده ويستحيل تحقيقها، وكان دائمًا يتراجع عن الحلم، عن الأمنية. بالنسبة له المرأة كائن

جميل ومستحيل. لا يمكن أن يكون له. كانت له فقط في حيز غرفته، في الحرية المتوفرة في خياله.

تقدم من النافذة الزجاجية، وتلقى ابتسامة لذيدة خدرته لبعض الوقت، ورمته في سحابة سرحان وتأمل. واستيقظ على صوتها الناعم تقول له: «لو سمحت، بماذا أخدمك؟» ارتبك وأعطها المعاملة، وسجلت بياناته. وخرج من البنك كما يخرج دائماً، يشاهد الجميلات، مشاهدات فقط، يخزنها بقدر الإمكان في رأسه، حتى يدخل غرفته، ويفتح الملف الموجود في رأسه، ويشغل الشريط المسجل. ولكن هذه المرة اختلف الأمر، فأثناء عودته إلى البيت جاءه اتصال. وكانت المفاجأة. كانت هي، المرأة في ذلك البنك، خلف النافذة الزجاجية. قالت له: «هل بالإمكان أن نكون أصدقاء؟». لم يستوعب الطلب. كأنه دخل في غيمة خيال. لكنه تمالك نفسه، ورد عليها قائلاً: «طبعاً.. طبعاً.. نعم ممكن». وهكذا بدأت العلاقة. في أول أسبوع من شهر يناير، وبعد أن انتهى الشهر تركته. وقالت له: «أنا امرأة متزوجة».

تأثرت من سماع قصته. تحملت صوته المجروح والجراح. كان يتحدث بحرقه. وبعد عودتي تأملت في قصة حبه، وقصة محبوبته مع شهر يناير. فهي اشتمت بلذة رائحة يناير الذي انتظرته عامًا كاملاً. لكنه لم يتوقع أن يكون حبًا عذريًا وطفوليًا.

دعاني مرة إلى وجبة عشاء فاخرة في أحد مطاعم مسقط على البحر، وبعدها لم أجده. أصابني توتر وقلق، بالضبط مرت ثلاثة أسابيع لم أره فيها، لم يأت. لم يظهر. لم يمثل. لم يقفز. لم يجرح أذني بصوته. لم يتسم. لم ينظر إلى

ساعته الزرقاء. لم يحك. أين هو؟ لم أطلب منه عنوانه أو رقم هاتفه. وهذا من أغرب الأشياء التي حدثت لي. رجل أراه بشكل متكرر لمدة شهرين، ولم أطلب منه عنوانه أو رقم هاتفه، وحتى هو لم يطلب ذلك. الآن انتبهت. الآن انتابني قلق شديد عليه. أين ذهب؟

لماذا كل الناس ممن لا أعرفهم، ويتنظرون في أماكن عامة، ينظرون تجاهي؟ هل هناك ما يعينني؟ هل بالغت في وصف صاحب القناع، والسخرية منه؟ ولكن هذا حدث في سريرة نفسي ولم يسمعه أحد. عندما أنتهي من عملي أذهب إلى البيت مكسور الخاطر، وأفكر في تلك الشخصية التي ظهرت واختفت فجأة، وكأنه فعلاً عرض لي فيلمًا سينمائيًا قصيرًا، قام فيه دور البطولة ورحل. من هو يا ترى؟ من ذلك القناع؟ من هي حبيبته الوحيدة تلك؟ لماذا ظهر فجأة واختفى؟ أين رأيته؟ هل بالغت في وصفه؟ هل هو فعلاً ممثل؟ هل أنا من تركه ورحل كما فعلت حبيبته المؤقتة؟

من هم؟

فُتحت الصفحة وتذكرت بأنني لم أرَ صديقي سلمان منذ شهرين. وعرفت أنه تقاعد من عمله وتفرغ لمحبة الناس، ولم يتوقف عن استقبال أصدقائه وأصدقائهم، وأصدقاء أصدقائهم. في الصفحة التالية استأنفت زياراتي له، رحب بي كعادته في مجلسه الشعبي المطرز بالكتب. وجدت في ضيافته أربعة شبان ورجلاً في الخمسين من عمره. سلمت عليهم واحداً واحداً، وحينما حاولت الجلوس في المكان الذي ارتأيته لنفسه لم يرَضَ الحاضرون، وحينها بدأت المعركة.

أولئك الشبان احترموا كبر سني، وأرادوني أن أجلس في صدر المجلس، بجانب صديقي سلمان. ويعتبر هذا تكريمًا لشخصي، فلا يمكن من وجهة نظرهم أن أجلس بين أحدهم وهم صغار في السن. رفضت طلبهم وحاولت أن أجلس كما أردت، لكن أحدهم شدني من يدي ليوصلني إلى مقدمة المجلس. كان قوياً. حاولت الرفض من جديد، لكنني تخيلته يحملني كطفل ويجلسني في الجلسة الأرضية رغماً عني، ولكي يرضيني سيعطيني لعبة. شد وجذب، مفاوضات، نقاش استمر دقائق. بعد ذلك جلست حيثما رغبت بجانب صديقي العزيز سلمان. كانت الجلسة مستطيلة الشكل، وكان من يترأسها سلمان وأنا بجانبه، فصرت ذراعه الأيمن. وهناك أعمدة من الكتب تناثرت في أجزاء من المجلس شكلت لوحة فنية، وهناك خزانة كتب خشبية قديمة تحتاج فقط إلى كتابين ثقيلين لتسقط.

وظهرت صفحة تبادل الأخبار والعلوم. ورئيس الجلسة لا بد أن يسأل الحاضرين إن كانوا يرغبون في سؤالني عن الأخبار والعلوم، وطبعًا يرفضون رفضًا قاطعًا، وفي نهاية المطاف هو من يسألني. وكالعادة لا توجد أخبار، ولا يوجد علوم، بالرغم من وجود الأخبار والعلوم وكل شيء يسر خاطر ولا يسر خاطر.

في الصفحة التي تلت سابقتها، عرفت بأن الشبان يدرسون في إحدى الكليات بمسقط. وهم أعضاء في جماعة لأنشطة ثقافية ودينية. وتحدثوا بحماسة عن أنشطتهم ومشاريعهم. معظم أفكارهم كانت في التاريخين العُماني والإسلامي. كانت أعمارهم متقاربة، وصاحب أقصر لحية فيهم تحدث بإسهاب عن العلماء والشيخ العُمانيين، وبشيء من التفاخر والزهو سرد لقاءه مع بعض المعاصرين منهم. وتحدث عن بحث يعده كمشروع للتخرج. كان أصحابه يهزون رؤوسهم دلالة على موافقتهم له، ولا يتكلمون إلا قليلًا. كان واضحًا أنه الزعيم. كان هو من شدي بقوة للجلوس. رغم صغر أعمارهم إلا أنهم كانوا مسيطرين على الجلسة.

في الصفحة التي ظهرت بعد الصفحة السابقة، كان سلمان يحاول أن يجري حديثًا معي، لكن الزعيم لا يعطيه مجالًا، ولذلك حاولت مرارًا تغيير مجرى الحديث لكي أجعله يصب في مسار أحوال وقصص صديقي، وحاولت أن أفتح موضوعًا في الشأن العام، ولكن الزعيم الشاب أصر على طرح نفس الموضوع، كمن يريد أن يتشبث في السيطرة على الوضع واستغلال الوقت في الحصول على معلومات تساند بحثه. وكان صديقي سلمان هو المصدر، كونه

الباحث والمدرس السابق لمادة التاريخ. أُعجبت بالشاب وإصراره على الاستفادة من اللقاء، وطرحه لحوارات تاريخية تفيده وتفيد زملاءه. ولكنني استأثت من عدم معرفة أخبار صديقي.

وبعد فترة من الزمن وفي الصفحة الأخرى تذكرت بأن صديقي نسي أن يعرفني على أسماء الشباب، وهذا النسيان نادر الحدوث، لكن يبدو أن المعركة الأولى وإصرار الشباب على طرح رؤاهم حالت دون ذلك. ذكرته وقلت: «سلمان.. ما عرفتنا على الشباب». وحينها حدثت المفاجأة بعد أن عرفني على أسمائهم واحداً واحداً. ضحكت. سمعت الجدران أيضاً تضحك. أحد أعمدة الكتب انهار دون سبب، ولم يكثر له أحد. تساءلت: «هل هذا صحيح؟ جميعكم الأربعة تحملون اسم عبدالله؟».

ابتسموا جميعاً. شعرت بأن البيت اهتز من الضحك، ذلك الضحك الصامت الذي لا يطلع من الفم، ينتشر مع الدم فقط. كنت أنظر إلى خزانة الكتب بشيء من القلق، ورجوت أن لا تسقط هي أيضاً. نعم، من حقهم أن يشعروا بالارتياح وابتسموا، ومن حقي أن أضحك وأستغرب، قال زعيمهم: «إنها صدفة، والله صدفة». وضحك صاحبه وقال: «سبحان الله، هكذا وجدنا أنفسنا نعمل في جماعة أنشطة، ونشترك جميعاً في الاسم الأول». سألتهم: «كم عدد أعضاء الجماعة؟».

قال الثالث: «الأعضاء نحن فقط.. أربعة».

واصلت الضحك. وقلت: «نعم، يا لها من صدفة».

ثم سألتهم مرة أخرى: «ولكن ألا يوجد فتيات في الجماعة؟».

رد الزعيم دون تردد: «لا يوجد».

في الصفحة قبل الأخيرة خرجت من بيت مضيفي، قدت سيارتي متجهاً إلى بيتي، والشبان هناك يكملون سهرة التاريخ، وفجأة تذكرت بأنني لم أسأل عن اسم الرجل الخمسيني الذي كان جالساً متجهماً ومستمتعاً بصمته. لم أشاهده قبل هذا اليوم. كنت ألمح بين فترة وأخرى ظهور ابتسامته واختفاءها. من هو يا ترى؟ هل يمكن أن يكون اسمه عبدالله؟

حزن الفتيات

(1) ألوان زكي

إذا عرفت رجلاً اسمه زكي، فتأكد بأنك ستري الأيام ملونة، لكنها ألوان غامقة. وإذا تذكرته ستجده أمامك، وسيصبح يومك مثل لون ملابسه. فهذا سالم الموظف في إحدى الوزارات، كان في مكتبه، ولكنه سهواً للحظة، وبدأ يسترجع ويحلل حديث صديقه هاشم عن ألوان وأفكار زكي، فقط تذكره، وحينها دخل المدير ومعه رجل عرفه سالم بسرعة، إنه هو، يا للعجب، كان مَطْلِيًّا باللون البرتقالي. وقف مدعورًا، فمِنذ دقائق كان يتذكره فحسب، وها هو ظهر كالشبح ودخل المكتب. تمنى، وكما يتمنى أي إنسان قام بتذكر شيء غير مرغوب وراه أمامه، إنه تذكر شيئاً يحبه، ولكنه يعرف حينما يتذكر الأشياء التي يحبها لا تظهر له. يا للإنسان، يدخل في غيوم الغرابة، ويتحسس جدرانها الواهية، فيكتشف أنه الغرابة نفسها.

بدأ المدير يعرف زكي إلى سالم الملبد بالاندهاش، واقشعر بدنه حينما قال: «زكي سوف يكون زميلك في المكتب، فقد انتقل إلى وزارتنا».

هل صبغت الحياة فجأةً بألوان دكنا. ما هذه المصادفة الشريرة؟ قال سالم: «نعم، أعرف زكي قبل الآن، سبق أن التقينا».

أكمل سالم الجملة في نفسه وقال: «وكان حيثُذ أزرق».

اليوم يتذوق سالم طعم البرتقال والمانجو من مشاهدته لزكي، وبعدها غاص بقدميه في رمال الربع الخالي، ورأى شمس الغروب، وتخیل القمر يعطس. وأصبح المكتب كتلة من نار برتقالية. وخرج المدير تاركاً له الكائن البرتقالي، الذي في الغد حتماً سيتحول إلى لون آخر لا يعرف ما هو. هذا الزكي بإمكانه أن يكون شخصية في فيلم. كل صباح يخرج من البيت بلون مختلف، وكلما مر على مكان يلونه، وهكذا في كل مساحة تطوُّها قدماه. تضطر الحكومة حينها إلى القبض عليه لأنه يفرض ألوانه على البلد. وتزج به في السجن. لكنه يختفي، يتحول إلى لون الجدران، يتماهى معها. فيبحثون عنه في كل مكان يتلون. إذا شاهدوا إحدى البلدات تلونت بالأحمر، يذهبون هناك مستخدمين الكلاب في البحث. لكنها في كل مرة ترجع خائبة. لم يستطع أحد اكتشاف مكانه. هكذا أصبح لوناً. كائنًا لونيًا عجيبيًا. تستعين الحكومة بدول أخرى لديها تكنولوجيا متقدمة. فاخترعوا أجهزة عديدة لتعقب زكي. وكلها فشلت. وما يزالون يفكرون ليخترعوا أية وسيلة أو أجهزة للقبض عليه.

اضطر سالم أن يرحب بزكي. جلس إلى مكتبه ووضع حقيبة جلدية على الطاولة، والغريب في الأمر أن لونها أسود، هل بدأ يخفف من المبالغة؟ أخرج من الحقيبة كوبًا برتقالي اللون ووضعه أمامه، وأخرج قلمًا من اللون نفسه، وأخذ يحرق في لون طاولة مكتبه الخشبية وربما لعن في سره لونها المختلف، وكيف أن هذه الوزارة لا تجد الألوان، ثم رمق سلة المهملات وطبعاً شاهد لونها البني، وبناء على حكاية هاشم فإنه يكره هذا اللون كرهاً كبيراً، لأنه السبب في مرضه. فهو اللون الوحيد الذي كان يراه، الجبال والبيوت الطينية في قريته.

وبينما هو يستعد لفتح الحاسب الآلي الأسود اللون، بدأ سالم دون تردد في كتابة استقالته. ثم قرر تأجيل تقديمها إلى أن يضمن عملاً بديلاً في جهة أخرى بعيدة عن مسقط، وربما خارج عُمان.

(2) ثعابين سالم

ثعابين ملونة، غالية الثمن تزحف من الهند إلى عُمان. الباعة الهنود يعرضونها للبيع في الأسواق. يشتري سالم بعد جهد ومجادلة ثعباناً أنيقاً، ويدفع ثمنًا غالياً ليلف رأسه به بسعادة لا توصف. وبعد ذلك يكتشف أنه مزيف وأنه خُدع في الثمن. لكنه ينسى الخدعة، ينسى أن الثعبان مزيف، فيشتري غيره. وفي خزانة غرفته الكثير من الثعابين تلوت حول قضيب خشبي بين دشاديش أغلبها بيضاء اللون. في الليل تزحف الثعابين من باب الخزانة، تتجه إليه لتستمتع بمنظر نومه وهو يشخر. يستيقظ على غفلة، يراها ترقص على نغمات ناي هندي، وتحقق إليه، يطلق ضحكة قصيرة، ويدفن نفسه في حفرة النوم. وفي الصباح يختار أحد الثعابين، ويدعه يلتف حول رأسه. وعملية اللف والدوران هذه لا تقل عن نصف ساعة، لأن الثعبان يستمتع بربط نفسه بطريقة لائقة.

في غرفته الصغيرة بمسقط سرح شعر رأسه الثلجي. وغاص قليلاً في الحائط الحليبي للغرفة. سمع منبه هاتفه النقال. عليه أن يلتقي بصديقه هاشم في مقهى الطيور المشوية بالعذبية بعد نصف ساعة. فتح الخزانة الخشبية

الجديدة وتناول دشداشة رمادية اللون ولبسها، ثم عطرها، وحرص على أن يختار لون الكمة المناسب للون الدشداشة. والكمة صديقة الثعبان، تارة تحب أن ترقد تحته، يحضنها كما تحضن الدجاجة بيضها. وأخيراً، تعلم سالم عادة تنسيق الألوان، وحرص أن يكون لون المصمر أو الكمة قريباً من لون الدشداشة أو على الأقل من لون الخيوط الملونة للدشداشة. هذا الحرص من وجهة نظره طريقة لتجديد الحياة وكسر رتابتها. وأصر على هذه العادة بعد أن نال ترقية مالية من وظيفته، وبعد مشاهدته العديد من زملائه الموظفين يعشقون هذه العادة.

تذكر رجلاً اسمه زكي. وكلما تذكره ظهر له مثل الشيخ. وحينما حلق في المرأة ظهر زكي في زجاجها، فتلونت المرأة. كاد سالم أن يتخلى عن عادة تنسيق الألوان في اللبس بسبب زكي. ومراراً تجنب سالم التعرف إليه لأنه كان يبالغ وبشدة في عادة تنسيق الألوان، فأول مرة التقاه كان فتى أزرق بمعنى الكلمة. بل جعل من نفسه قطعة من البحر، فالأزرق كان مسيطراً على كتمه ودشداشته وساعته ونعليه وخاتمه وهاتفه النقال وسيارته. ومما زاد دهشة سالم، وزاد من قتامة زرقة زكي العدستان الزرقاوان اللتان ألصقهما في بؤبؤيه. حتى جلده الأسمر يتهياً لك بأنه أزرق، وعندما كان زكي يتكلم كان سالم يسمع صوت الأمواج، ويرى السماء ترش زرقتها على الأرض، ويشاهد ثعابين زرقاء تطير، وسيارات زرقاء تقفز فوق حواجز إسمتية.

قرر سالم عدم الذهاب إلى المقهى، لأنه خشي أن يجد صديقه هاشم مع الرجل الأزرق. وكم من المرات حاول هاشم إقناع سالم بعقد صداقة مع

زكي، ولكن هاشم فشل فشلاً ذريعاً في ذلك، ومن ضمن محاولات الإقناع تلك أن سرد قصة مختصرة عن حياة زكي، وأنه عاش محروماً من رؤية الألوان، فلم تر عيناه الحقائق المملوءة بألوان الأشجار والورد والأزهار والأنهار، فقد كان يعيش مع أسرته في أحد كهوف جبال الحجر حتى سن الثامنة عشرة. عيناه تعودتا لون الجبال. وحصل بعدها على بعثة دراسية في مسقط، وحينها فقط تلونت عيناه بألوان مسقط، وخصوصاً زرقة البحر واخضراره، وعندما التحق بوظيفة في إحدى الشركات، وعندما بدأت النقود تتسلل بخفة وغزارة داخل جيبه، بدأ يسبح في الألوان، ويغوص في أعماقها لدرجة الغرق.

لم يقتنع سالم بهذه القصة، واعتقد أنها حكاية تخيلها هاشم لخداعه كما يخدع الفتيات. وذات مرة فكر سالم جيداً، قبل أن يربط رأسه بالثعبان الملون، أن اللون البني هو لون عُمان، وأن اللون الأبيض هو الصديق الحميم لبيوت مسقط. وأن مشاهد الموظفين في جهات العمل الحكومية مثلها كالأفلام القديمة، أبيض وأسود، أسود وأبيض، رجال بدشاديش بيضاء ونساء بعباءات سوداء.

تراجع سالم عن قراره وذهب إلى المقهى، وفي الطريق قبل وصوله المقهى وصلته رسالة قصيرة من هاشم يعتذر فيها عن الحضور بسبب ظرف طارئ، نعتة كالعادة بالسخيف والتافه، لأنه يعرف ظروفه الطارئة، وماهي إلا مستجدات غرامية وعلاقات تتسع يوماً بعد يوم، رغم أنه متزوج ولديه أولاد وبنات إلا أنه يجيد خداع الفتيات وإيقاعهن في علاقات عاطفية. بينما سالم لا

يجيد سوى السباحة في نهر الفشل ونسج الأحلام والغوص في الخيالات العاطفية، وذلك بسبب خجله وخوفه وبحته الدؤوب عن فتاة حزينة. حاول التعلم من هاشم شيئاً من مغامراته العاطفية، لكنه لم ينجح، وكم من المرات كان يرافقه في بعض الأماكن العامة وبجراً هاشم المعهودة وخبرته يصطاد فتاة جميلة، تاركا لسالم الحسرة والفرجة فقط.

سالم يشعر بلذة وسعادة عند رؤيته فتاة حزينة، وإن ابتسمت وضحكت وفرحت شعر بتعاسة تؤدي به إلى النفور منها. لم يترك نفسه هكذا، ذهب إلى طبيب نفسي، وبعد الجلسة الأولى قال له الطبيب بأنه يعيش في خيمة وهم. ولا يعرف سالم لماذا اختار الطبيب بالذات الخيمة ليشبهها بالوهم؟ ولم يشبه الوهم بشيء آخر كالبيت أو كالسفينة. لكنه طبيب وربما يريد إيصال رسالة إلى عقل سالم. وبذلك لم يستطع الطبيب علاجه، وقال سالم معزياً نفسه، وضاحكاً، ومتهمكماً برأي الطبيب: «من المؤكد أن الأخ زكي مريض.. ويعيش في خيم واسعة».

ومثل معظم الشباب العُمانيين ترك سالم قريته، وجاء إلى مسقط من أجل الدراسة أولاً، ثم من أجل العمل، وكانت مسقط حاضنة له ولغيره بامتياز. لأن القرى ليست سوى قرى. ولأنه لا يوجد في القرية ما يوجد في مسقط. ولأن مسقط هي المدينة الوحيدة، ولا منافس لها. عمره الآن خمس وثلاثون سنة ولما يتزوج بعد، ومعظم أصدقائه تزوجوا وأنجبوا. ولكن ليس هذا ما يحزنه. ما يحزنه أكثر أنه لم يدخل في علاقة عاطفية إلا مرة واحدة أيام دراسته في الجامعة، عندما تعرف إلى فتاة حزينة، وأسعده حزنها، ولكن سرعان ما أصابه

الحزن عندما تعرف إليها عن قرب، وأصبحت بينهما علاقة وشعرت هي بالسعادة، وفورًا شعر هو بالحزن، وبهذا قطع العلاقة ورحل عنها، تركها تستمتع بسعادتها. وما زال يشعر بغيرة قوية من أصدقائه حينما يصادقون الفتيات ويدخلون معهن في مغامرات عاطفية. ويعزي نفسه بسؤال: «من يا ترى الأشد مرضًا أنا أم زكي؟».

(3) لوحة حزينة

لم يرجع سالم إلى البيت، واصل الذهاب ودخل المقهى وحيدًا. لم يكن مزدحمًا في ذلك الوقت. وبالطبع لم يجد هاشم ولا زكي، ولكن إلى طاولة ليست بعيدة وجد امرأة وحيدة. وبمجرد أن رآها وتفقد ملامح وجهها استطاع أن يقرأ حزنها. عيناها ذابلتان وقليلتا التوهج. متوسطة الجمال. ساهمة وصامتة. كأنها تفكر في هموم الدنيا. أمامها كأس من عصير البرتقال. كأس يشعر بالوحدة معها. هاتفها النقال راقد في سلام، ولم يغرد بنغمة. لم تقرأ جريدة أو مجلة. تتنفس بصعوبة. ملابسها بسيطة؛ لحاف باهت اللون وعباءة سوداء تؤكد حزنها. لا يعرف لماذا ربطها بالحزن والهموم؟ قرر الاتصال بهاشم لعله يمدّه بنصيحة ويجد له طريقة لمحدثتها. لكن هاشم لم يرد. استشاط سالم غضبًا وقال: «الحقير غارق في علاقة ويتجاهلني. ألا يعرف أنني في أمس الحاجة إليه الآن؟ ماذا أفعل؟ ما زلت أتدرب. على ماذا أتدرب؟ في كل الأحوال حزنها ولون عباها أفضل من حضور مفاجئ لـ زكي. فلا أريده أن يلون المقهى».

المرأة دفعت قيمة العصير بعد أن أخذت وقتًا لتعد الأوراق النقدية، وكأنها دفعت آخر ما تملك. وها هو سالم مرة أخرى يلصقها في الفقر، عجيبة هي تفاسيره. تحركت من مكانها وخرجت من المقهى. وبقرار جريء منه، وهذا نادرًا ما يحدث، تحرك من مكانه وتبعها دون أن تشعر. شاهدها تقف عند الشارع وتوقف سيارة أجرة. لكنها على ما يبدو لم تتفق مع السائق، ربما لأنه طلب منها مبلغًا كبيرًا. فكر سالم أن يتجه إليها ويعرض عليها خدمته لتوصيلها إلى أي مكان تريده. لكنه تراجع عن هذه الفكرة. شاهدها توقف باصًا صغيرًا. قال متهمكًا في نفسه: «يا لهذا التردد الذي يكبل مهاراتي العاطفية».

ركب سيارته وتبع الباص. يا لها من مغامرة. يا للجرأة. انتابته ضحكة. ثم بعد حوالي ربع ساعة توقف الباص، لكنها لم تنزل منه. واصل متابعته. بعد عشر دقائق توقف مرة أخرى وأيضًا لم تنزل منه. ظل يتبع الباص وكأنه يتبع الحزن. يعرف أن ذلك لم يكن ممتعًا، فقد كان مقلقًا ومزعجًا، لكن في الوقت نفسه كان يرغب بقوة في فعله. توقف الباص مرة أخرى لكنها لم تنزل. نزل جميع الركاب، وبقيت هي في مكانها لم تنزل. تعجب سالم حينما وقف الباص في محطة وكأنها الأخيرة لينتظر ركابًا جددًا. هي لم تنزل بعد. تساءل برية: «هل نامت هناك ولم يتبه السائق لوجودها؟».

ارتبك بشدة وانتابه غضب وقال: «سأقطع علاقتي بهاشم، سأطمس زكي في سائل أسود غليظ».

انتبه إلى أنه ليس الوقت المناسب في التفكير في هذين المزعجين، لعن الشر ونزل من سيارته واتجه إلى الباص وقلبه يخفق بشدة، فهو لا يحب المفاجآت

غير السعيدة. نظر إلى هيئة السائق الذي كان يلبس كمة مهترئة ودشداشة مفتوحة الصدر. انتبه السائق إلى وجوده ورحب به وعرض عليه الدخول إلى الباص. نظر سالم من أحد نوافذ الباص لكنه لم يجد أحداً بداخله. توجه إلى السائق وسأله بتردد: «ألم.. ألم.. ألم تكن امرأة حزينة بـ.. بـ.. بداخل الباص.. أين أنزلتها؟».

أمسك السائق مقود السيارة بقوة كمن يتشبث بمنقذ، ويعد أن تعجب من السؤال، أطلق ضحكة خبيثة وقال: «امرأة؟». ثم عطس بقوة، ومسح أنفه بكم دشداشته، وفتح عينيه على اتساع شديد، وأردف قائلاً: «اليوم بالذات لم تركب أية امرأة معي».

كان سالم ساهماً يفكر، فأخفى السائق ضحكته وصدرت منه رائحة خبيث وقال: «هل تبحث عن أحد معين؟».

ذلك سالم جبينه كمن يطارد فكرة اختبأت تحت الجلد، ورفع كتمته وحك شعر رأسه، وأنزلها مرة أخرى، وتردد مرة أخرى وخلعها وعصرها بيده. كان السائق مندهشاً ينتظر إجابة، عصر سالم الكمة أكثر. كان يرغب في تخفيف الصدمة، بعدها أجابه سالم وقال: «كيف حدث ذلك؟ رأيته بعيني تركب هذا الباص».

نظر السائق إليه بارتياح، وتعابير وجهه اتهمت سالم بالجنون. وبدأ يتهياً لتحريك الباص قليلاً كمن يريد الهروب ويتعد عن مشهد مفاجيء وغير سار. وبعد أن ادعى اللامبالاة قال: «ربما ركبت باصاً آخر.. أنا الآن مشغول.. مع السلامة».

ركب سالم سيارته. رجع إلى المقهى الذي كانت فيه المرأة. بحث عنها. لم يجدها. أتى في اليوم الثاني فلم يجدها. تساءل إن كان يبحث عن لوحة حزينة؟ وإلى متى يظل يبحث عنها؟ قرر الرجوع إلى بيته وليذهب هاشم إلى الجحيم.

(4) غيمة حلم

وفي يوم من الأيام الجميلة لم يحضر زكي، ولم يعرف سالم ما هو لون ذلك اليوم، دخل المدير إلى مكتبه ومعه امرأة، وبعد أن ألقى السلام والتحية رفع سالم رأسه وإذا به يشاهد المرأة نفسها التي رآها في المقهى. صرخ في سره: «إنها اللوحة الحزينة».

ثم أتبعها بصرخة أقوى، سببت له ألماً في ضلوعه، لأنه لم يطلقها خارج فمه: «وأخيراً هناك مصادفة ليست شريرة». رغم اندهاشه وتوتره، رحب بهما، تذكر السائق وكمته المهترئة وخبثه. ثم بدأ المدير وكعاداته بالتعريف بأي موظف جديد، وقال بأن اسمها زينب وهي الموظفة الجديدة، وأشار إلى المكتب الفارغ الملاصق لمكتب زكي، وقال لها: «وهذا سيكون مكتبك». ثم تمنى لها التوفيق وخرج.

لاحظ سالم أن ملامح وجهها لم تتغير. ما زالت غارقة في الحزن. وجلست هي على كرسيها خلف مكتبها. رحب بها مرة أخرى، وتمنى لها التوفيق في عملها وحياتها.

وبعد برهة استدارت نحوه وقالت: «كأني رأيتك قبل الآن».

تظاهر بعدم الارتباك، وقال بدون تردد: «أنا أيضا شاهدتك في مكان ما». سألته مرة أخرى وهي ترمق مكتب زكي، بعد أن كشفت خضرته؛ لوحات صغيرة وأدوات مكتبية وأقلام، وهو لونه بالأمس: «من هو صاحب المكتب الجميل هذا؟ أكيد موظفة؟».

تطلع إليها، وإذا بها تخفي حزنها قليلاً، وأجابها ببرود: «لا.. ليست موظفة.. إنه مكتب زميلنا زكي، اليوم في إجازة».

وقبل أن تهم بالرد على إجابته أو مناقشته، تسلمت رسالة قصيرة عبر هاتفها النقال. قرأتها. ثم خرجت من المكتب. وتركت غيمة غرابتها واجمة تتطلع في سالم بحسرة. وتركت غموض مزرعة زكي الخضراء وراءها. تذكر سالم صديقه هاشم الذي ما ينفك عن مطاردة الفتيات، وهو حتى الآن لا يعلم أن فتاة طاردت سالم حتى المكتب، وهو في كل حياته لم تطارده فتاة. تساءل سالم بفرح: «هل انتصرت عليه؟».

الشيء المحزن هو أن سالم بالأمس قدم استقالته من العمل، وسيلتحق بإحدى الشركات في الصحراء التي قدمت له عرضاً مالياً جيداً، وهذا هو آخر يوم يداوم فيه في هذا المكتب، فهل يقتنص الفرصة، ويأخذ رقم هاتفها. لكن لماذا يفعل هذا؟ هو حتى الآن لا يعرفها جيداً، متى سينال علاقة حب مع فتاة حزينة؟ اتصل بهاشم وأخذ يضحك ويتهمك على حظه، واقترح ضاحكاً ومستهزئاً أن يتراجع عن الاستقالة ويهنأ بصحبة زكي والفتاة. سخر سالم من فكرته وقرر قطع علاقته به.

ماذا حدث؟ لقد تأخرت زينب. خرجت ولم تعد. لم يستطع الانتظار. ذهب إلى المدير ووجده يوقع بعض الرسائل، سأله: «خير.. الموظفة الجديدة خرجت ولم تعد».

توقف المدير عن التوقيع ورفع رأسه، وقال: «أخذت إجازة طارئة، يبدو أنها تعرضت لظروف خاصة وطارئة، وربما ستغيب لأكثر من يوم». شهق سالم، وقال له: «لكنها لم تجلس إلا دقائق إلى مكتبها». لم يستطع المدير إخفاء غضبه، وقال: «لا أعرف.. لا أعرف ظروف البشر».

ثم أردف قائلاً: «هل أنت مستعد لحضور حفلة توديعك؟». رد عليه سالم دون أن يستطيع إخفاء حزنه: «نعم.. نعم.. مستعد». رجع سالم إلى مكتبه، ونظر إلى مكتبها الصامت، متجاهلاً صخب المزرعة القاتمة. وبدون تردد خرج من مبنى الوزارة، قاد سيارته إلى وجهة مجهولة. لم يحضر حفلة التوديع، ولم يشاهد زينب الحزينة قط.

الطاحن الأول

شعرت بأن شيئاً نقص من داخل فمي. حدثت الأمر. أدخلت أصبعي وبدأت أتلّمس أسنان الفك السفلي، سناً تلو الآخر. واكتشفت أن تاج سني في الجانب الأيمن ليس في مكانه. انتزقت. بقايا وجبة الغداء ما زالت موجودة أمامي. حبات أرز متناثرة بكثافة إلى جانب الصحن. بقايا عظام الدجاجة المشوية متراكمة في المفرش. والتاج ليس موجوداً في مكانه. عمره عشر سنوات. وفجأة تمرد وهرب من رأس السن.

منذ عشر سنوات كان هذا السن اللعين يؤلمني بشدة. ذهبت إلى الطبيب الذي ما إن رأى أسناني حتى ابتهج. كأنه شاهد كترًا ثمينًا سوف يفتحه، ويقلب ما فيه، ثم يخطط ليغرز فيه مناشيره ومشارطه. بعد الأشعة والفحص نُزع العصب من السن. ذلك العصب الذي كان موجودًا منذ أن نبتت لي أسنان. نزع من قاع السن نزعًا، ونزع ما تبقى منه على مدى ثلاثة أيام. جلسات النزع تلك أخذت من وقتي، وسببت لي آلامًا شديدة. وبعد ذلك نصحني الطبيب بأن أضع على السن منزوع الروح تاجًا. وقد نطقه باللغة الإنجليزية: Crown.

لنا أن نتخيل؛ بين ليلة وضحاها صار السن الذي قتله التسوس ملكًا، فعند نزع الروح منه ألبس تاجًا. كان «الكراون» غالي الثمن، لكنها نصيحة الطبيب. فهو من سيأخذ النقود. أما أنا فسأحافظ على سني الميت وأجعله حيًا وقويًا. وأراه يتفاخر وهو ميت أمام الأسنان الأخرى، بأنه سيلبس تاجًا وسيكون ملكًا

عليها. وسيُذكر الأسنان الأخرى بأن هناك سنّين ماتا وخُلعا من اللثة خلعا ولم يلبسا تاجًا. بل طُرِدَا من مملكة الأسنان هذه، ودفنا خارجها.

وها هو التاج هرب فجأة من السن. رأسه المنخور أصبح عاريًا. وبدا ضئيلًا وضعيفًا، وسيتحسس من السوائل الباردة والساخنة، ولن يقدر على طحن المكسرات أو حتى مضغ الحلويات أو اللحوم. والمشكلة الكبرى أن موعد سفري إلى لندن -للمشاركة في مؤتمر- هو فجر الغد، واليوم هو الجمعة، وعيادات الأسنان مغلقة.

لمحتني زوجتي، سألتني عن سبب تغير وجهي فجأة. وضعت يدي على خدي وقلت لها: سقط «الكراون».

وبسرعة بديهة فهمت المشكلة، واقتاحت أن أبحث عنه في صينية الغداء. على الفور نفذتُ مقترحها، فتشت بين بقايا الطعام في الصحن وفي المفروش. بقايا عظام الدجاج، بقايا الأرز البرياني، بقايا السلطة الخضراء. أدخلت إصبعي في صحن الزبادي وحركته، ولكنني لم أجد ذلك الجسم الصغير. أخرجت إصبعي مصبوغًا بالبيض. مصبتها حتى رجعت إلى لونها الطبيعي.

ومن جانبها بحثت زوجتي في صحنها وفي بقايا الطعام الذي تركته، وتساءلت: كيف يسقط «الكراون» في صحنها؟ لكنني أدركت أن البحث يجب أن يكون دقيقًا وفي كل الأماكن الممكنة وغير الممكنة، فأنا أحتاج ذلك التاج حتى أستفيد من قوته. فالسن دونه سينكسر وربما سآفقه إلى الأبد. وهو يتخذ موقعًا مهمًا وقياديًا بين الأسنان الأخرى. ويعتبر من الطواحن، بل هو الطاحن الأول. كان التاج سلاحه ودرعه الأصيل. كان جبارًا وهو فاقد الروح. ما هذه

المعادلة العجيبة؟ سنٌ ميثٌ ولكنه قوي، وفي مقدمة الطواحن. وكل ذلك بفضل التاج.

وبعد بحث دقيق وجدته. نعم وجدته تحت ورقة خس. ها هو اللعين. ظل صامداً عشر سنوات. وقع في وقت لا أحسد عليه. الآن وقت الظهر. اليوم الجمعة، غداً في الفجر موعد سفري. لا توجد عيادات. هل آتي بـ «سوبر جلو» وألصق التاج في السن بنفسي؟ اليوم لا يوجد طبيب أسنان ليرجعه مكانه. ولكن زوجتي اقترحت أن تتصل بإحدى صديقاتها التي تعالج أسنانها عند طبيبة أسنان صديقة لها.

سألت زوجتي: «وهل ستوافق على فتح عيادتها من أجلي؟». ردت علي أثناء انهماكها بتنظيف مكان الغداء: «لنحاول، سأذهب وأكلمها».

كنت ممسكاً التاج الثمين برفق، حتى لا يسقط ويضيع مجدداً، وحتى لا يتسخ مرة أخرى. يبدو عليه الشحوب والتقدم في العمر. عشر سنوات، عمر طويل. لكنه كان صامداً طوال هذه الفترة. اشتغل بقوة. بذل جهداً خارقاً. لحوم وأسماك ومكسرات وعظام وحلويات وخبز وسوائل باردة وساخنة. كان يؤدي مهامه بجدارة لا توصف. كان قوياً. لماذا هرب في هذه اللحظة بالذات؟ لماذا سقط وتمرغ في بقايا الأرز؟ لولا بحثي واكتشافي اختفاء المفاجيء لكان الآن في غياهب القمامة، وسيختفي إلى الأبد. وسأفقد أنا السن المتبقي. وأعرف سلفاً السيناريو الذي سيحدث لاحقاً، فلن أقدر أن أضع لقمة واحدة في الجانب الموجود فيه هذا السن، وربما سيسبب لي ألماً أو سينكسر.

أمسكته بحب. كدت أقبله لولا أن جاءت زوجتي، وقالت لي: «صديقتي أقنعت الطبيبة بأن تفتح عيادة الأسنان وتستقبلك قبل المغرب». إذن سيعود التاج إلى السن ولو لفترة مؤقتة. وضعت في علبة صغيرة حتى لا يهرب مجدداً. وبذلك بعثت الاطمئنان إلى السن الميت واعداً إياه بأنه سيعود حياً وسيلبس التاج، وسيعود ملكاً، ولكن هل سيستطيع الاستمرار؟

كيف يمكن للكهرباء أن تنطفئ؟

بعد أول رشفة من القهوة تحولت إلى طائر متشّ. كنت أتأمل هدوء البحر؛ السجادة الزرقاء الناعمة. الزبائن يحاولون الاستمتاع بوقتهم، يتبادلون الأحاديث، ويصغون بعضهم إلى بعض. البحر صَنَعَ منهم ممثلين بارعين. يجيدون احتساء القهوة والشاي والمشروبات الباردة. أرى طاولة حولها امرأتان؛ من خلال لباسهما أستطيع القول إن الأولى هندية والأخرى عُمانية. الأولى أمسكت الشوكة بيدها اليسرى أما العُمانية فأمسكتها بيدها اليمنى. هناك أب يقرأ في هاتفه النقال، جلس مع طفله الذي يشرب من العصير تارة ويذهب لاستكشاف جرة الزهور تارة أخرى. وهناك رجل وزوجته يحتفیان بالصمت، ربما كانا يحثان نفسيهما على تأمل صمت البحر. وهناك النُدل بملابسهم الصفراء يتقلون مثل النوارس من طاولة إلى أخرى.

في عمق هذا المشهد ظهر مشهذان جديران بالتأمل؛ أقله بالنسبة لي. الأول حينما اخترق المقهى عامل مطاطىء الرأس، يحمل على كتفه حقيبة قديمة، ويمسك بيده مفكاً. كأنه جندي يحمل بندقية، هرب من معركة في الصحراء واخترق شاطئء البحر. سحابة من الوهن تلف جسده، ورغم ذلك مشى مسرعاً دون أن يكثرث للزبائن. ويبدو أن حقيقته مثقلة بالهموم. مشى مسرعاً وسقطت منه أمانة الجلوس في مقهى أمام البحر، وتدحرجت تلك الأمانة مثل بالونة ملئت بالماء واصطدمت في شوكة الواقع وانفجرت. مشى وسط الطاولات والزبائن واختفى. ربما لم يتبّه إليه أحد، وكأنه شبح ظهر في مخيلتي

أنا فقط. كان لباسه أزرق مبقعاً بالأوساخ. ظهر في لحظة وتلاشى وكأن البحر ابتلعه. من هو؟ من أين أتى؟ إلى أين ذهب؟ ماذا يعمل هنا؟

وبعد فترة قصيرة من اختفاء العامل حضرت عائلة تكونت من ثلاثة رجال وامرأتين وأربعة أطفال، كانوا يحيطون برجل رابع يجلس على كرسي متحرك. كان الرجل الرابع مربوط الرقبة بلا يدين وبلا قدمين، ويتنفس من خلال جهاز طبي.

العائلة بصحبة قلب بالكاد ينبض. قلب نبت له رأس إنسان. شعرت بالحزن، فجميع الأصحاء يتنفسون براحة ويتحركون بحرية من على كراسيهم ليضعوا أقدامهم على الأرض ويمشوا بكل سعادة، ويتجهوا إلى المقاهي والمطاعم المتراحة من أجل الاستمتاع بوجبة طعام أو شراب ساخن أو بارد. لكن ذلك الرجل أو القلب، ورغم أنني لا أعرف شعوره الآن، مقيد، ولا يعيش إلا على جهاز طبي يصدر صوتاً مخيفاً كأصوات الأشباح التي نسمعها في الأفلام، أصوات سمعتها قبل ذلك حينما كنت تحت رحمة جهاز أشعة الرنين المغناطيسي في ليلة مطرة.

امرأة متقبة أخذت صحنًا مملوءًا بطعام أصفر مهروس، وأخذت تلقم الرجل بحذر شديد، بينما هناك طفلة تحديق فيه والأسئلة تطفح من تعابير وجهها. وجميع من حوله يُبدون اهتمامًا كبيرًا به. كأنهم ينفذون إحدى أمانيه، وهي الخروج به إلى مقهى على شاطئ البحر، وربما كان هذا المقهى هو المفضل لديه، خصوصاً وقت أن كان ينعم بصحة جيدة ولديه قدمان ويدان.

هل يا ترى أصيب في حادث؟ كان الجهاز الطبي على شكل صندوق به شاشة زجاجية تعرض بيانات ورسومات غير مفهومة، وتمتد منه أنابيب تصل إلى فمه وأنفه، وكان الجهاز متصلًا بنقطة كهرباء، ماذا يمكن أن يحدث إن انطفأت الكهرباء؟ هل يمكن أن تنطفئ؟ هل جاء من المستشفى، هل تم إطلاق سراحه لفترة قصيرة ومن ثم يعود إلى سرير الأيضى؟

هل هو مستمتع بمشهد البحر رغم أن عينيه متجهتان إلى السماء منذ أن وصل المقهى؟ فلا أعتقد أنه قادر على أن ينكس رأسه ويشاهد منظر البحر، ربما يكفيه سماع صوت أمواجه وشم رائحته، وهل يشم الروائح وهو بهذه الحالة المزرية؟ رجعت بنظري إلى سجادة البحر الناعمة، ولكنها لم تمح مشهد ذاك القلب الذي نبت له رأس إنسان، الذي كان ينبض بواسطة الكهرباء، ينبض بصعوبة. انتابتنى رعدة خوف من فكرة انطفاء الكهرباء، وإن انطفأت سأسرع بكل جنون في البحث عن العامل صاحب البزة الزرقاء، لأنه حتمًا سيكون هو المنقذ؟

سُم الكاميرا

(1)

رن جرس الباب. خفق قلبه. وقف مخترقاً سحب الدخان. ردد في نفسه قائلاً: «يد ناعمة تضرب جرس الباب».

مشى خطوتين وأردف بزهو: «يا لسحري.. نعم.. أراهن نفسي أنها فتاة.. وسأكسب الرهان».

أطفأ سيجارته، وتوجه ببطء ناحية الباب وفتحه. كانت هناك فتاة منتقبة رثة الملابس. عيناها واسعتان. تنهد بارتياح وسعادة. أشهر لها ابتسامة مصطنعة، وقال: «أهلاً وسهلاً.. أية خدمة؟».

بدون تردد أجابت: «السلام عليكم.. أعذر، ربما أزعجتك، لكنني أريد مساعدة».

نكست رأسها. حلق فيها بخبث. كان السواد يغطيها. رفعت رأسها ببطء وبعينين دامعتين واصلت كلامها: «زوجي مات في حادث.. وعندي خمسة أولاد».

حك جبينه، وتظاهر بالتفكير، وقال لها: «سأعطيكَ عشرين ريالاً، ولكن بشرط».

كان جوابه صادمًا. اتسعت حدقتا عينيها، قالت بتردد واستغراب: «شرط؟! ما هو؟».

خرج بكامل جسمه من الباب. أصابها الخوف عند تفحصها لطول قامته، وامتلاء وبياض وجهه. قال لها: «أرغب في تصويرك.. شرط أن تخلعي هذا النقاب».

ترددت. حدثت في الفضاء. ثم قالت: «ما هذا الشرط؟ أرجوك أعطني أي شيء ودعني أذهب إلى أولادي».

قال بغضب: «لا توجد مساعدة.. هيا اذهبي من هنا ولا ترجعي».

صمتت. بان الحزن عليها. همت بالمغادرة. خطت خطوتين. كان ما يزال واقفاً يرقب ذهابها وكأنه واثق بأنها سترجع. وقفت واستدارت. ثم رجعت. وقالت له: «طيب. أنا موافقة، لكن أرجوك أن تزيد المبلغ.. الله يحميك».

قال بارتياح: «طيب.. سأعطيك ثلاثين ريالاً».

ثم أمرها وقال: «تعال.. ادخلي».

ترددت مرة أخرى. ثم دخلت. أحست بثقل في قدميها. هناك قوة تشدها إلى الخارج. وقوة أخرى أقل تشدها إلى الداخل. الأسئلة تختلط بالنبضات المتسارعة لقلبها وتنهشها. نظرت في اللوحات المعلقة على الجدران، وقد تحولت إلى وحوش. كأنها دخلت في فيلم رعب. ثم تحولت اللوحات إلى صقور مفترسة انقضت عليها. أصابها دوار. كادت تسقط. تداركت الوضع. انتبهت إلى كل شيء حولها. تذكرت أولادها. تذكرت هدف دخولها إلى هذا البيت الفاخر. سمعت صوت الرجل يناديها أن تأتي باتجاه الكرسي. كان جسمها يرتعش وكأن حمى غرزت أظافرها في لحمها.

ببرود تناول هاتفه وأغلقه. رماه في الدرج، ثم قال لها محاولاً أن ييث
الطمأنينة فيها: «لا تخافي.. أنا فقط سأخذ لك بعض الصور».
رفع رأسه وأردف: «أنا فنان».
رآها متجمدة وواقفة في مكانها، فقرر أن يصرخ: «اجلسي على هذا
الكرسي».
صوته أمسكها من عنقها ورفعها إلى الأعلى. تقدمت بسرعة وجلست على
الكرسي. قالت له: «أعطني أولاً حقي».
دون تردد مشى باتجاه طاولة وأخرج منها محفظة. عاد إليها وأعطائها
النقود. كانت يدها ترتجف حينما أمسكت النقود الورقية.
تناول بعد ذلك وسادة من أريكة مجاورة. توجه إلى الفتاة وهي مشغولة
بعَدَ النقود. وبشيء من السرعة والقوة غطى وجهها بالوسادة. بدأت تتحرك
بقوة وتقاوم. لكنه كان قوياً جداً. وبعد ضغط مستمر جمدت المرأة. جلس
على الأرض وأخذ قسطاً من الراحة. بعد ذلك انتصب واقفاً مثل المسمار.
رفع عن رأسها النقاب. انكشف وجهها. تأمله قليلاً. ذهب إلى خزانة خشبية
وفتح أحد أدراجها وأخذ منه حبلاً متيئناً كان مجهزاً كمشنقة.
عاد إلى المرأة. ضبط قياس الحبل، ثم لفه حول رقبتها. فتح فمها وسحب
لسانها إلى الخارج. وجه الكاميرا باتجاه مشهد رأسها. ثم ذهب إلى خلف
الكاميرا وبدأ بالتصوير. فلاشات متكررة ومتسارعة. وصوت الكاميرا كان
يكسر الصمت. كان هو يسبح في بحر متعته.

(2)

وصل بسيارته الفاخرة إلى مدينة مطرح. توغل في الأزقة المتهالكة. على الكرسي الذي إلى جانبه وضع كاميرا تصوير كبيرة. وكمن يبحث عن شبح، حلق في المارة من خلف نظارة سوداء. أطال النظر في وجوه أطفال يلعبون، وحلق في بؤس متسولين وبائعين ونساء. كلما كان ينجز هذه الجولة كان يتذكر رحلات السفاري في البلدان التي سافر إليها، ويطفح سعادةً وزهوًا، ويرى نفسه مارداً مختلفاً لا يراه الآخرون. هو فقط من يراهم ويتحكم فيهم. يظل ينتفخ وينتفخ حتى يفقد وعيه. ثم يدرك أنه يقود سيارة، وأنه هائم بين بنايات قديمة أكل منها الدهر أجزاءً من حياتها، وأخذ يحاول استبعاد فكرة أنه ما يزال إنساناً ضئيلاً.

ظل يجوب الأزقة لأكثر من نصف ساعة، وبعد ذلك توجه بسيارته ناحية السوق. وصل عند بوابته وأوقف سيارته، لكنه لم ينزل منها. ظل يحلق في وجوه وتعايير الناس. نساء عمانيات يمشين بعباءاتهن السود، العرق ينز من وجوههن، وبعضهن يحمل أكياساً وأطفالاً، باعة جوالون افترشوا الأرض يبيعون بعض الحلويات والأجبان البيضاء الكروية التي صنعوها في بيوتهم. دهمه رجل كبير في السن مشعث الشعر، دشاشته ممزقة وملطخة بالسواد كأنه رماها في صندوق فحم قبل أن يلبسها. تقدم الرجل تجاه السيارة وطرق زجاج نافذة سيارته، لكن صاحب السيارة لم يعرفه أدنى اهتمام، بل قاد سيارته ورحل غاضباً.



جدران بيته مطرزة باللوحات، مشاهد طبيعية، وجوه وأماكن نادرة. جلس مزهوًا على كرسي هزاز يدخن بشراهة. دخان السيجارة يتلوى بطيئًا ليغطي لوحات قريبة إلى قلبه، لوحات يعتبرها من أجمل ما أبدع؛ لوحة بورترية لفتاة تصرخ بألم. لوحة بورترية لصبي يتدفق الدم من رأسه. لوحة لرجل يلبس نظارة سوداء إحدى عدستها مكسورة. صورة لفتاة وسكين مغروز في رأسها. ولوحات أخرى كثيرة معلقة في الغرف. واللوحات ليست وحدها من تبقع الجدران، بل هناك أسلحة مثل سيوف وخناجر وبنادق. كما أن هناك كتبًا مبعثرة على الأرضية وعلى طاولة وضعت في زاوية الصالة، ويبدو أن الكتب ما تزال جديدة لما تقرأ بعد.

كان يمسك ولاعة فاخرة ويلعب بها. يستمتع بإشعالها وإطفائها. ينظر إلى السقف تارة وإلى اللوحات تارة أخرى ويتنهد براحة وسعادة. في نهاية الصالة طاولة رص عليها -دون نظام- دروعًا وميداليات وجوائز وشهادات تقدير ونسخًا من جرائد نشرت مقالات عن تكريمه في مناسبات عديدة. في ركن آخر من الصالة أستوديو تصوير مصغر يحتوي على كاميرا تصوير فاخرة وضعت على حامل مصنوع من الألمنيوم، أمامها كرسي فاخر خلفه ستارة سوداء. رن هاتفه النقال. رمى بالولاة على الطاولة وتناول الهاتف وحدث في الشاشة المضئية، وبشيء من الارتباك والسرعة، ضغط على زر الرد، وقال: «ألو.. مساء الخير طال عمرك.. كيف الحال؟».

ثم قال: «نعم.. بالنسبة لموضوع الموظف مسعود.. عملت اللازم.. رسالة نقله ستكون على مكتبك غدًا.. لا تقلق طال عمرك».

«.....».

«صحيح؟ إنه لا يعرف الخجل هذا التعيس.. لسانه طويل.. حتى أنا وصفني بالديكتاتور.. الله يهديه.. مع أنه يعرف أنني فنان ومصور وخدمت البلد.. لكن لسانه طويل».

«.....».

«أرجوك طال عمرك.. امسحها في.. عموماً يستاهل النفي».

«.....».

«حياك.. طال عمرك.. الله يخليك.. دمت ذخراً لنا».

«.....».

«سأنتظر.. سأنتظر طال عمرك.. مع السلامة».

أغلق الهاتف. رماه بغضب على الكرسي. بصق في الأرض، وصرخ قائلاً:
«تفو.. تضحكوا علينا.. أنتظر وأنتظر.. خمس سنوات وأنا أنتظر».
ينهض. يمشي. يواصل غضبه ويقول: «خدمنا البلد أكثر منهم».

(3)

انتبه فجأة إلى صوتها تناديه: «لو سمحت، أنا تأخرت على أولادي».
بعد أن لمح الوسادة، شعر بأن ما تخيله كان لذيذاً، كانت لديه رغبة جامحة في تنفيذه، لكنه خاف على مجده وشهرته ومنصبه الحساس، ويكفي أن يصورها في مشهد تمثيلي. تذكر رئيسه في العمل، وانتابه غضب، ورجع إليها،

ونهرها قائلاً: «يعني بعد أن أخذت النقود، تريد أن تخرجي دون أن تنفذي الاتفاق».

أصابها الهلع، ودمعت عيناها وقالت بتوتر: «أأ.. أنت تترأخرت علي». رمقها بغضب، تحولت إلى ورقة ذابلة، أجهشت بالبكاء، وبالكاد استطاعت أن تقول: «أولادي.. ينتظرونني، أرجوك دعني أنتهي من هذا.. وأذهب في حال سبيلي، أرجوك».

أحس كأنه تعرض للإهانة، ولكنه كظم غيظه وقال: «اسمعي.. أنت أخذت أكثر مما تستحقين، عليك أن تنفذي ما قلته لك».

أزاحت النقاب عن وجهها. وكما أمرها، أخذت الجبل المتين ووضعتة حول عنقها. أمسك رأسها وسحب لسانها إلى خارج فمها. شعرت بأن جسدها يحترق، وأن أطفالها يحاولون الركض باتجاهها لكنهم لا يستطيعون.

ما الذي فعلته النقطة السوداء؟

بعد المكالمات الهاتفية ظل مسعود واجماً وغير قادر على التفكير في إيجاد حل لمعادلة برمجية في الحاسب الآلي. سمع صوت جون زميله المبرمج يناديه ليسأله عن الرمز المفقود، فأجابه مسعود على مضض ودون انتباه. رجع جون إلى مكتبه غير مكترث كعادته لقلق مسعود، لأن جون لا يبالي إن حزن أحد زملائه أو فرح أو مات، علاقته معهم علاقة آلية كعلاقته مع البرمجة، يفعل ما يُطلب منه، لا يضيف، لا يقترح، ولا يطور. لكنه ماهر في إعداد البرامج الإلكترونية، وحل المشكلات الفنية، يحضر الدوام، يجلس على مكتبه، يغوص في الحاسب الآلي، يأخذ استراحة ليفطر، وفي نهاية الدوام يخرج، وفي نهاية الشهر يفرح براتبه الكبير.

النقطة السوداء بالنسبة إلى مسعود شيء مختلف، حينما يراها يتحول إلى طفل. يمسك بالقلم. ينقط في البياض. تتكاثر النقاط. يصفّها دون أن تلامس بعضها بعضاً. يحرص على أن لا يرسم خطاً أو خطأ يوصلها بعضها ببعض، فقط يترك مسافة قصيرة بين نقطة ونقطة، بحيث لا يمكن أحد أن يلحظها من بعيد. تظهر كالجنود في طابور عسكري. تتبع النقاط بعضها بعضاً بانتظام وفق مسار دقيق حُدد لها. وبعد اصطافافها يظهر وجه فتاة لا تفارقها الابتسامة.

كُلّف مسعود حضور الاجتماع الكبير نيابة عن المدير. وهذه أول مرة سيحضر اجتماعاً مهماً وعلى مستوى كبير، فلم يسبق أن تغيب المدير ونائبه ورئيس القسم في يوم واحد. أغلق الحاسوب، أخذ دفتر الملاحظات، خرج من المكتب، توقف، رجع إلى المكتب وأخذ قلمًا. دخل المصعد فوجد رجلاً رث الملابس، له لحية بيضاء، ويرافقه شاب، شاهد مسعود شامة في أنف الرجل، فأخذ يحرق فيها، فاتبه الرجل لنظرات مسعود، وقال له: «هل تعرفني؟». انتزق مسعود ورد بسرعة وقال: «يمكن.. لا أتذكر». وفتح باب المصعد، وخرج الرجل وتبعه الشاب.



هكذا هو، منذ صغره تشده النقاط الصغيرة السوداء، يجد فيها متعة، تلهمه للرسم والشعر. وقبل كتابة قصيدة يمسك قلمًا أسود ويبدأ برسم نقاط صغيرة عشوائية، يملأ الورقة بها، ثم يجد نفسه يكتب قصيدة، وقبل أن يبدأ بأي برمجة إلكترونية ينقط على الشاشة قبل كتابة الرموز والأرقام. تساءل كثيرًا عن هذا الهوس، ولماذا يستمتع بالنقاط؟ لكنه لم يجد إجابة. واحتفظ بهذه العادة لنفسه، واعتبرها سرًا لا يمكن لأحد أن يعرفه. هناك فقط بعض القصائد التي أشار فيها برمزية إلى هذه النقاط وتأثره بها. وهناك البرنامج الرقمي الذي ابتكره لنفسه، وهو مشهد إلكتروني يظهر في حاسوبه حينما يتوقف عن العمل: جبل من النقاط السوداء، يتدفق منه شلال من النقاط، يصب في قاعٍ وادٍ يحمل قاربًا، ثم تتبعثر النقاط، تتلون وتتشر تدريجيًا لتغطي الشاشة.

وإن رأى مسعود فتاة على وجهها شامة يخفق قلبه، ويهيم ويظل يحدق فيها، ثم يُتبع ذلك بكتابة قصيدة. وإن رأى حقيقة منقطة يطلب أن يصورها بهاتفه النقال. كان يكره الأحاديث أو التعابير التي تقلل من قيمة النقطة السوداء، مثل الجملة التي تقول: «هذه نقطة سوداء في حياتك». يعتبرها جملة شريرة وحقيرة وعنصرية، وإن سمعها أو سمع ما يشبهها يصاب باكتئاب وحزن.

وصل مسعود. أمسك مقبض الباب الذهبي ودفعه بكل قوة يمتلكها، ودخل قاعة الاجتماعات، ولم يجد أحداً. قالوا له إن عليه الحضور قبل ربع ساعة من بداية الاجتماع. وقد حضر قبل ذلك تجنباً للتأخير. جلس في أحد الكراسي وحركه يميناً ويساراً. تحسس نعومة الطاولة وتمكن من مشاهدة السقف وأضوائه في داخلها. لديه رغبة في مشاهدة المسؤول الكبير الذي سمع عنه كثيراً. شاهده في الصحف فقط عندما كان يرعى بعض المناسبات. سمع عن جديته في العمل، وعن رغبته في رؤية كل شيء نظيفاً ومرتباً. تساءل: «لماذا أنا هنا؟ وماذا يمكن أن يقال في مثل هذه الاجتماعات؟». فجأة ساوره القلق. نظر إلى السقف المطرز بالديكور والمصابيح التي كانت كالنجوم، وقال: «ماذا يمكن أن أقول في مثل هذه الاجتماعات؟».

نظر في ساعته. رفع رأسه وشاهد الساعة المعلقة على حائط القاعة ليتحقق من تطابق الوقت مع ساعته. ولكنه اكتشف بأن ساعة الحائط لا تعمل. تأمل في حجم الطاولة، وتخيل أنها ساحة واسعة للمشى، فبالأمس لم يجد مكاناً آمناً يمشي فيه، وها هو اليوم أمام ساحة سباق. بحث عن نقطة سوداء في الغرفة فلم

يجد. نظر مرة أخرى إلى السقف فلم يجد فيه سوى مصابيح ذهبية تبعث على الكآبة، تخيل أنها ستكون أجمل لو أمطرت نقاطاً سوداء وملأت الطاولة بها. قال في نفسه: «هذه فرصة لأكلم المسؤول الكبير في موضوع استكمال دراستي»، «ولكن كيف؟»، «ما هي الطريقة المثلى؟». وجد مسعود نفسه في مستنقع حيرة. فهو يعرف أن مقابلة المسؤول الكبير صعبة جداً، وأن مديره لن يساعده أبداً في موضوع دراسته. مرت عشر سنوات منذ أن تعين في وظيفة مبرمج حاسب آلي، وتذكر أنه سبق وأن قدم طلبه مراراً للدراسة الماجستير لكنه لم يجد سوى الوعود فقط، بينما آخرون يُستجاب لطلبهم ويسافرون في بعثات دراسية بدون جهد يذكر. حاول مراراً أن يعرف سبب عدم إجابة المسؤولين لطلبه. ماذا فعل لهم؟ كل ما يعرفه أنهم يُثنون على عمله، فقد أنجز أعمالاً مهمة في البرمجة، وهو صاحب مبادرات ومقترحات. فلماذا لا يذهب ليدرس؟ كثيراً ما تخيل أنه يطير إلى بلاد بعيدة لكي يدرس. يغوص بين ناسها، ويدفن نفسه في مكتباتها ومقاهيها وسينماتها، ويشاهد شروقها وغروبها وثلجها. يلبس ما يشاء. يضع حقيبة على ظهره ويركب القطار ويرحل حيث يشاء.

دخل ناصر مقرر الاجتماع وقطع خيال مسعود. ألقى السلام، وعلى الفور أشار إلى الكرسي الذي جلس عليه المبرمج مسعود: «لو سمحت أخ مسعود.. هذه الكراسي لمدراء العموم.. المدراء أو من ينوب عنهم يجلسون هناك». وأشار إلى آخر الطاولة. توجهم وجه مسعود وانصاع للأمر، وانتقل إلى المكان المناسب. بعدها بدأ المسؤولون في الدخول إلى القاعة. تبادلوا التحية.

وكانوا يسلمون على مسعود بسرعة، وهناك من تجاهله. تبادلوا هموم العمل وموضوعات أخرى، لم ينس بعضهم إلقاء النكت، لتنتشر كالفقااعات الصابونية في الغرفة، وتدغدغ الأذان لتنتقل على أثرها الضحكات كالريح. وآخرون كان ملاذهم هو اتفهم النقالة، وهي الكائنات المبهجة، مولدة الابتسامات السريعة، التي تستمر لثوانٍ، وبعدها تغلق الأفواه، وتعود العيون إلى قراءة الشاشات الملونة.

بعد ساعة من هذا المشهد، دخل المسؤول الكبير وألقى السلام. وقف الجميع. ثم جلسوا. ابتسم مسعود إذ تذكر أيام المدرسة حينما كان يدخل المدرس غرفة الصف، ويهب جميع الطلبة وقوفاً، ولن ينسى مشهد مدير المدرسة ذات مرة حينما دخل غرفة الصف، ووقف له جميع الطلبة عدا واحد، ظل جالساً، فحده المدير بنظرات غضب، لكنه لم يعبأ ولم يقف. ثم طرده من الصف، وخرج مرفوع الرأس.

جلس المسؤول الكبير. وعلى الفور التقط مسعود مشهد الشامة الموجودة في رقبته، فارتبك قليلاً، ونكس رأسه. بعدها لاحظ وجود فتات طعام ملتصق بلحيته، سرعان ما التقط المسؤول منديلاً ورقياً ومسح الآثار من المنطقة الثلجية الموجودة في وجهه. رسم مسعود خلاطاً آدمياً يعمل ليل نهار، وتخيل وجود أزمة ستحل بالبلد وهي نقص في المواد الغذائية. رحب المسؤول الكبير بالحضور وألقى نكتة. انتشرت كالغبار. ضحك بعض الحضور. ابتسم مسعود معاملة لأن النكتة لم تضحكه.

نظر المسؤول في آخر الطاولة حيث يجلس مسعود، وسأله: «من أنت؟». على الفور أجاب مسعود وقال: «أنا مسعود مبرمج في دائرة تقنية المعلومات، حضرت بدلاً عن المدير». اندهش ناصر مقرر الاجتماع ومنسق المسؤول الكبير من كلام مسعود، فهو لم يذكر أثناء حديثه لقب المسؤول. لكن ناصر تجاهل الموضوع، وقدم العذر لمسعود لأنه بلا شك جاهل بالبروتوكولات، فقرر لاحقاً أن يقدم مقترحاً للمسؤول بتوفير دورات تدريبية للموظفين في الإدارة وفن البروتوكولات.

صمت المسؤول الكبير، ثم قال: «أه.. نعم.. نعم.. أنت مسعود الذي يكتب الشعر؟». أجابه مسعود بزهو: «نعم، إنها مجرد محاولات». ضحك المسؤول الكبير وقال: «ما الذي جمع البرمجة مع الشعر؟ نحن صرنا نخاف على التكنولوجيا». احمر وجه مسعود. نكس رأسه. لم يستطع أن يتكلم. وشعر في لحظة أن تلك الرقبة لا تستحق تلك الشامة الرائعة، ثم أردف المسؤول الكبير قائلاً: «لا عليك هذه مداعبة ليس إلا».

بعدها انتزق الجميع على إثر صرخة المسؤول الكبير. اهتزت القاعة. تساءل معظم الحضور، وأطلقوا تساؤلاتهم في نفس الوقت: «خير طال عمرك.. عسى ما شر؟». اكفهر وجهه. رفع ورقة جدول الأعمال ووجه كلامه لمقرر الاجتماع وقال له: «ناصر.. هنا نقطة سوداء بجانب الموضوع رقم خمسة».

فتح مسعود الورقة فور سماعه لكلام المسؤول الكبير، وشاهد النقطة، وتنهّد بمتعة. ارتبك ناصر مقرر الاجتماع، وحدث فوراً في الورقة التي أمامه، وقال: «نعم طال عمرك، حتى أنا موجودة عندي طال عمرك.. إنها بسبب الآلة

الطابعة طال عمرك». رد المسؤول الكبير بغضب أكثر: «يا برودك يا أخي.. لكنها تسببت في ربكة بين السطور.. ربكة كبيرة.. رجاء تصرف». ازداد توتر ناصر وقال بخوف: «ماذا أفعل إذن؟». ضرب المسؤول الكبير بيده على الطاولة، انتزق على إثرها الجميع وقال: «ناصر.. يعني تريد مني أن أعلمك شغلك.. اذهب واطيع جدول الأعمال مرة أخرى.. هيا».

اندهش مسعود لهذا الطلب، وتساءل بغضب بينه وبين نفسه: «ما هذه العقلية؟ ماذا سيضر وجود هذه النقطة الجميلة هنا، لماذا يعتبرها هذا المعتوه جريمة؟ ما هذا الاجتماع؟». جمع ناصر الأوراق من أمام الحضور، لأن جميعها كانت ملطخة بالنقطة السوداء بسبب رداءة حبر الآلة الطابعة. وخرج متوتراً. وبعدها دخل رجل وهمس في أذن المسؤول الكبير، فخرج من القاعة. كان مسعود متعجباً وصامتاً. وبدأ يكلم نفسه: «المسؤول الكبير يهتم لأصغر وأبسط الأشياء، هل هذا من حرصه على العمل؟ لماذا لم يتخلص من شامته؟ ولماذا خرج؟ هل ذهب وراء ناصر ليعلمه شغله ويساعده في طباعة الورق، وليؤكد بنفسه من عدم وجود النقطة؟ أظن أن الوقت غير مناسب للحديث معه عن البعثة، فهو شخص عصبي، كما أنه استهزأ بالشعر وبالجمال». أمسك القلم وبدأ يرسم أشكالا بنقاطه المعتادة، فشعر براحة، وأردف محدثاً نفسه: «ربما خرج ليوقع البريد، أو خرج ليجري مكالمة مهمة مع مسؤول آخر». استمر مسعود في العمل على الورقة، ورسم دوائر ومربعات. وبعد نصف ساعة رجع ناصر ومعه رزمة أوراق جديدة، سطورها منظمة ومرتبة، ولا يوجد فيها أية نقطة سوداء. وظل الجميع لفترة في انتظار عودة المسؤول الكبير.

وخرج المقرر، ورجع ليقول للحضور بأن المسؤول الكبير طال عمره ارتبط بعمل آخر وأن الاجتماع تأجل إلى وقت آخر.

ضحك مسعود بصوت عالٍ. التفت إليه جميع المسؤولين. حذوه بنظرات ارتياب. انتبه مسعود لنظراتهم. توقف عن الضحك. وقال: «لا عليكم، أنا تذكرت النقطة فقط». بعد ذلك وجد مسعود نفسه وحيداً في القاعة. تأمل الغرفة التي صارت خالية من المسؤولين وقال: «تيقنت الآن أنه ليس الخلط الآدمي الوحيد». ظل الفراغ يسبح بين الأثاث. انتابته نوبة أخرى من الضحك، وقال: «سأرسم خريطة من النقاط السوداء، وخرائط من الشعر». ثم فتح الباب وخرج. أحس بسعادة حينما تذكر أنه راجع إلى مكتبه الصغير، وأنه سيلتقي مجدداً زملاءه، فقد اشتاق إلى رؤيتهم.

الخلاط الآدمي

كالشور الهائج رفس جدران مكتبه. بخر الغرفة بدخان الغضب. تناول سماعة الهاتف عدة مرات يسأل عن مدير الدائرة القانونية. جلس خائر القوى على الكرسي الوثير وقلب في أوراق ابتلت بعرق يديه. تناول هاتفه النقال وبحث في الواتس أب، وعندما لم يجد مراده، وضعه على طاولة المكتب بغضب وقال: «أف.. حتى هذي ما ردت.. كأنها زعلت. طز».

طُرق الباب، ودخل مدير الدائرة القانونية مرتبكاً. استقبله المسؤول الكبير بالتقريع على تأخره. ولكن مدير الدائرة القانونية وبشيء من الخبث الواضح حاول التخفيف من غضب المسؤول الكبير، إذ قال له: «لا عليك أستاذي، بدأنا في التحقيق المبدئي في الموضوع.. وبسرية تامة، رجالنا يجمعون الأخبار، وسوف ينال عقابه هذا المجنون، ولن يكون هناك عقاب غير الفصل من العمل، اطمئن وهدىء من روعك ولا تعر ذلك الغبي أي اهتمام».

زفر المسؤول الكبير هواءً ساخناً من أنفه، حتى طير الغبار والحشرات غير المرئية من أمام وجهه. تناول هاتفه ونظر في الشاشة، وأرجعه بسرعة إلى الطاولة، ثم فتح درج مكتبه وأدخل يده كمن يريد أن يستل منه مسدساً. أمسكت أصابعه الخمس بكمية كبيرة من المكسرات، وبدأ برمي بعض منها داخل فمه. بدأت أسنانه بالعمل بكل جدارة وقوة. كان مدير الدائرة القانونية يشاهد بصمت وكأن المشهد بدا مألوفاً بالنسبة إليه. بعد ذلك هز المسؤول الكبير رأسه الكبير، واهتزت أيضاً كرشه الكبيرة. كان مدير الدائرة القانونية

على يقين أنها علامات الغضب. بعدها أخرج المسؤول الكبير من فمه الكبير كلامًا منفعلًا مختلطًا برائحة المكسرات المدخنة والمملحة التي ملأت الغرفة الكبيرة: «كانت كتاباته افتراءً.. والله العظيم افتراء في افتراء.. والله لن أتركه.. أعوذ بالله منه.. أنا يصورني بأنني فاسد.. أنا.. استمع إلي، يجب خلع قدميه من الأرض.. أعرفه هذا الملعون. إنه هو.. إنه هو».

كان مدير القانونية تحت سحر رائحة المكسرات المدخنة، كان يتمنى الاستحواذ على حفنة ولو قليلة منها، لكنه يعرف أن ذلك لن يحصل أبدًا، فكثيرًا ما يتكرر هذا المشهد والمسؤول الكبير يأكل ولا يدعوه حتى لواحدة. تلمظ بحرقة. كان واضحًا أن تفاحة آدم في رقبته لا تتوقف عن الرقص، وفجأة رمى على الطاولة حجر السؤال، وقال: «أستاذي العزيز، هل تشك في أحد غيره؟».

بعد أن تفتت حجر السؤال في أذني المسؤول الكبير، صمت قليلاً، ثم فتح شاشة هاتفه النقال، وقال موجهًا كلامه لمدير القانونية: «لحظة واحدة.. لحظة».

وبعد أن انتهى من قراءة الرسالة في الواتس أب، اشتد غضبه وقال: «دائمًا ما أقول إنهن ناقصات عقل.. طز فيهن». مدير القانونية حذق فيه باستغراب، ثم تلقى الرد على سؤاله: «لا يوجد غيره ذلك اللعين الذي رفضت ترقيته.. ولكن أنت تعرف لماذا رفضتها.. أليس كذلك؟». وفجأة سقطت حبة فستق مقشرة وكبيرة الحجم بجانب يد مدير القانونية، وعلى الفور أبعد يده عنها، لم يجرؤ على لمسها، رغم توقه الشديد لاختطافها، ورميها داخل فمه، ليسحقها بلذة،

وحتما سيحرص على عدم ابتلاعها، بل سيحاول أن يتلذذ بها لأطول فترة ممكنة. تلمظ اشتهاً وقال: «أستاذي.. لا تنس أنه شاعر».

المسؤول الكبير بدأ بكتابة رسالة في هاتفه، وقال أثناء الكتابة: «هذا الكلام سيجننها، بتشوف إذا ما ردت تعذر». مدير القانونية يسمع ويعرف أن الكلام ليس له، وكان ينظر بحسرة في حبة الفستق، وبعد أن انتهى المسؤول الكبير من الكتابة استرد حبة الفستق، ورمى بها في فمه الذي لم يتوقف عن الطحن. ثم قال لمدير القانونية: «أعوذ بالله من شعراء كهؤلاء.. كيف أنسى؟ وأنا منذ أن توليت هذا المنصب كنت أعمل له ألف حساب، بالرغم من أنه مجتهد إلا أنه لا يستحق الترقية نظراً لسوء سلوكه هذا».

توقف قليلاً لينظر في الهاتف ويبحث عن الرد، وحينما لم يجد شيئاً عبس وقال: «إنه يحرض الموظفين علي.. ثم يأتي ويكتب ذلك المقال باسم مستعار وينعتني بالفساد.. هؤلاء المدعون هم الفاسدون». وتوقف فجأة عن الكلام، وأخذ سماعه الهاتف وطلب «دايت كولا»، المشروب المفضل لديه وخاصة أثناء تشغيله لفكيه في طحن المكسرات، وبعدها أكمل حديثه الغاضب: «أكره هؤلاء الشعراء والأدباء.. لا يحبون أحداً.. لا.. لا.. هذا لا يحتمل.. ألا تعرف أنني أنتظر ترقية؟ ماذا سيقول المسؤولون عني؟ ماذا؟ هيا، وبسرعة كما اتفقنا شكّل لجنة تحقيق».

رجع المسؤول الكبير إلى الهاتف وبحث فيه، ثم وضعه على الطاولة. وبشيء من الارتباك، قال مدير القانونية: «أستاذي.. لا نريد أن نستبق الأحداث.. دعنا ننتظر نتائج التحقيقات السرية وإيجاد الدليل المناسب، ربما

يكون أحد الموظفين العشرة الآخرين الذين ينتقدونك يكون هو الذي كتب، وربما هناك غيرهم من الذين لا نعرفهم.. قد يكون منهم.. من يعلم؟».

وصل المشروب الغازي. رن هاتف المسؤول الكبير معلناً وصول رسالة في الواتس أب، أمسك الهاتف وحدث في وجه مدير القانونية، كأنه يسأله إن كانت هي من أرسلت الرسالة، فتح شاشة الهاتف بحذر، وأخذ يقرأ، وابتسم بعدها، ثم فتح زجاجة الكولا ودلق كمية كبيرة منها في جوفه. ثم وجه أمراً للمدير الذي أمامه: «هيا تصرف واقتلع رجله من الأرض.. هيا». ألحق المسؤول الكبير كلامه بتجشؤ قوي، أفسد رائحة المكسرات. رد المدير بارتباك كمن يستعجل كل شيء في تلك اللحظة، وقال: «إن شاء الله أستاذي».

فتح المسؤول الكبير درج مكتبه بغضب وقبض بيده الكبيرة على أكبر قدر من الحبات المملحة، وباليد الأخرى أخذ سماعة الهاتف وضغط على الأرقام بغضب وقال: «أيوا عامر.. حولني على مدير مكتب الأمن.. حولني بسرعة.. بسرعة». وبعدها خرج مدير الدائرة القانونية حاملاً خوفاً في بطنه، أحس بأنه كالطلبل، ووعد نفسه بشراء كمية كبيرة من المكسرات المملحة والمدخنة.

حليب التفاح

في جوف التفاحة بياض البياض

في طفولته تأمل بيت أسرته، وكان قمرًا في حضن الجبل. كان إسحاق يستمتع بالسباحة في الماء المتدفق من عين الجبل. كان يخاف النور، فكثيرًا ما كانت تحاول تفتيت العين فتفشل. كان يشتهي قضم تفاحة. لم يشتر أبوه تفاحًا قط. كان بعض زملائه في المدرسة يقضمون تفاحاتهم الحمر والخضر. كان يسمع صوت القضم، ويشاهد الرحيق الذي يقطر من الشفاه، ويحرك تفاحة آدم ويتلمظ باشتهاء. ذات يوم طلب من والده أن يشتري له تفاحة واحدة، لكن أباه لم يستطع. فرضي إسحاق بالتمر وبخبز أمه الساخن.

وحينما وصل إلى سن الخامسة عشر، أصيب أبوه بمرض نادر أفقده النطق والمشي. أخذه بصحبة أمه إلى حكيم الجبل. أعطاهما أدوية شعبية، وقال لهما: «الأدوية ليست سوى مسكن للألم ولكنها لا تشفي المرض، ودواء هذا المرض تفاحة لونها أبيض، وهي موجودة في بلاد بعيدة تكثر فيها الكناغر التي تحمل مثل هذه الثمرات في حقيبة بطنها، فحين يكبر أولادها ولا تستطيع حملهم، تحمل في كيسها التفاح الأبيض».

وجد إسحاق نفسه يمشي في طريق يشق غابة من التفاح.

بين تفاحة وتفاحة تُلَفِّظ امرأة.

ينبعث من جسد المرأة نور يضيء الطريق.

ثم تتحول المرأة إلى تفاحة ناعمة ينسكب منها سائل طازج.

الطائر يمسك بمنقاره عوداً نارياً

في رحلته مع أصدقائه إلى جبل شمس، كانت ضحكاتهم كالريح، هزت أغصان الأشجار المتناثرة، واصطدمت بحد الصخور، وسقطت كالسهام إلى قاع الجبل حيث البيوت المزروعة بين النخيل، وأحدثت دوياً كاد أن يوقظ سكان القرية.

شاهد شجرة تفاح في الجبل المجاور. ولاحظ أن إحدى تفاحاتها لونها أبيض. لم يخبر أصدقائه عنها، وحين حل الليل خرج من الخيمة وتركهم نائمين. تسلل البرد إلى داخل الخيمة وتلذذ بلسعهم، وانتشرت في السماء بالونات سوداء هرولت واصطدمت بجسد الجبل وتمزقت.

وجد خشبة متينة وقصيرة وضعت بين الجبلين. مشى بحذر فوقها ليصل إلى الشجرة. نظر إلى الأسفل فشاهد هوة سحيقة وطوراً بيضاء كانت قبل قليل ضحكات أصدقائه. تنفس بصعوبة. لفحه هواء ساخن رغم برودة الجو. حرك قدميه ببطء حتى لا يسقط. وعندما وصل إلى منتصف الخشبة ظهر طائر يشبه النسر يمسك بمنقاره عوداً طويلاً من النار. اقترب الطائر المجهول من الخشبة وأحرقها.

التفاحة تسقط إلى الأعلى

إسحاق الذي انتهى التفاحة صار لا يحبها، ولكنه يريد دواءها. الشجرة بأوراقها وأولادها وأحفادها تنمو إلى الأسفل. ثمراتها تسقط إلى الأعلى.

يتناثر التفاح في السماء. يطير متشراً في هواء الأرض. يطير مستخدماً خفته ولذته وعدوبته وحمرة وخضرته وبياضه. يتدفق مثل الأحلام الكروية، مثل بالونات الأعياد. إسحاق يعرف أن الأرض طردت التفاحة المطلوبة. أرسلتها إلى القمر. وتحولت إلى نجمة تدر سائلاً يسكر كائنات الأرض. إسحاق لا يحب التفاحة. والتفاحة تجذب كل شيء له روح، لأن في جوفها بياض البياض.

المرأة الفاتنة تتحول إلى بندقية

وصلت المرأة الفاتنة. مع مرور الأيام تحولت إلى بندقية. لبست ملابس الإغراء. اتضح خريطة أعضائها الملتهبة. أطلقت نصف نهدية للريح. أخذت تتفرس في فوهة جسدها. حشتها برصاصات الكبت والجوع. خرجت من بيتها إلى الشارع مهددة. وبمجرد ظهور أول فتى أطلقت نحو رأسه رصاصة. ثقبته بضراوة في مخيلته. تدفق اللعاب من فم الفتى. تألم من الجوع والعطش. دار حول نفسه. ضرب الأرض ضرباً مبرحاً بقدميه. غرز أظافره في التراب. كانت الرصاصة قوية، أقوى مما كانت تتوقعه المرأة الفاتنة.

ظل الفتى محقوناً بجوع خُلق من الغياب، جوع مدمر صاحبه العطش والجفاف وهشاشة في الذهن، وقذف أسئلة مجنونة: أين الكهف ببابه المعشب؟ أين الينبوع بمياهه الساخنة؟ أين البركان للزج؟ أين التلال اللدنة؟ أين غسل التفاحتين؟ أين البحر الأسود المتموج باللمعان؟ أين ثمرة التوت؟

أين الصوت العذب؟ مات الفتى متأثراً بجراحه. كانت الرصاصة نارية، أقوى من جميع التوقعات. وظلت المرأة هناك تصطاد الفتيان الجوعى، ولم تخرج قط.

الكنغر يتدفأ في كهف التفاحة

توغل في كهف التفاحة أكثر. كمن كان يتتقم من حرمانه للتفاح في طفولته. قاده الضوء إلى تلك البلاد البعيدة ذات الطقس البارد. تسللت أغنية الكنغر إلى أذنيه وتلذذ في روحها. هناك شاهد التفاح نضراً وأكثر لذة. وشاهد أنهاراً من الحليب. وشاهد البشر كالطيور لا يضعون أشباههم في عيونهم، ولا يراقبون أنفسهم وأفكارهم. يراهم تواقين للعيش، جسورين على الطيران. في كل صباح يدخل بستاناً ويفتش عنها. ويدخل إلى القطار السريع، ويشاهد المدينة تفاحة تضج حياةً وصخباً. وقف مع الأنفس التي تحمل أغصان التفاح. وحين وقف القطار في المحطة نزل متشيياً. ولكنه ازداد انتشاءً وحماسة حينما قرأ إعلاناً على شكل تفاحة خضراء كتب فيه: «لا تغلق مستقبلك». ثلاث كلمات فقط شحنته بالحماسة. ثم إعلان آخر على هيئة نهر متدفق إلى السماء، يقول: «لا تلتفت إلى الوراء».

شد على حقيقته المعلقة على ظهره. وطار مع البشر في هواء نقي. طار وطار. فصدره امتلأ بالطموح والحب. وظل يتذكر أنه يعيش في تلك البلاد البعيدة حيث البشر كالطيور لا يحاكمون أفكار غيرهم. تقدم في الطيران، ولم يلتفت إلى الوراء.

التفاحة ليست سبباً في طرد الجمال من الحديقة

شجرة التفاح خلقت من عودها العناد والكبرياء. كان هو، ذلك الفتى الذي اشتهى التفاحة، كان في الحديقة الساحرة التي أغوته بالموسيقى، في مسرحية شاعرية تسطع جمالاً لا يوجد إلا خارج الأرض. سبح في أنهار الحديقة الممتدة إلى فم البحر. مشهد خلّاب لا ينسى. والتفاحة ليست سبباً في طرد الجمال من الحديقة، كانت التفاحة هدفاً.

التفاحات الوردية

كانوا ثلاثة صيادين. جهزوا بنادقهم الوحشية. صنعوا من التفاحات الوردية أهدافاً. أطلقوا الرصاص. أزت رؤوسهم. تطاير سائل في الجو وارتد عليهم، وأعماهم. وحين جاء الصباح، تغير الكون. أصبحت كل الأشجار تثمر تفاحاً ملوّناً. وجاء الليل، وتبدلت الأزمان، والأشجار ما تزال تثمر التفاح.

نافذة جديدة

وهناك أخرج إسحاق رأسه من نافذة غرفته. شاهد الأشجار والرداذ والشارع الطويل بأصوات سياراته المسرعة وبأرصفتها التي تحضن بدفء أقدام المارة. لكن النافذة الصغيرة لا تنسى أن تضيف مشاهد أخرى تتغير من وقت لآخر، كمشهد الكناغر وهي تحمل أطفالها، وبساتين التفاح بألوان

مختلفة، ومشهد الفتاة التي حضنت صديقها من الخلف وهما يمشيان بسعادة باتجاه السيارة، انتقلت إلى جانبه وشبكت يدها في يده بكل حب وحنان، وحينما وصلا السيارة ألهمته بقبلات على خده وحضنته بحرارة، كان شعرها يتطاير مع الهواء ليرسم قلباً أحمر. بعدها أخرج من حقيته تفاحة. تناولتها حبيته برغبة عارمة.

نافذة قديمة

وبعد هذا المشهد تذكر سخونة الجبل في جوف الصيف، وشاهد النسور تقنص ضحاياها، ثم ظهر مشهد خلال نافذة بعيدة، عن فتاة تعيش بين البحر والصحراء، وبخوف حاولت اقتناص فرصة اللقاء، عرفت أنها ستدخل مغامرة حب في الكهوف الجبلية، قادت سيارتها بحذر ونظراتها تشبث في المرأة الصغيرة التي أمامها لتحقيق من أن أحداً لا يطاردها أو يراها. ذهبت بعيداً خلف بناية مهجورة وأوقفت سيارتها هناك بجانب سيارته، نزلت من سيارتها وقلبها يرتجف. ركبت في سيارته التي انطلقت بسرعة خوفاً من الأعين، ذهباً بصحبة المتعة والقلق إلى مكان مهجور وبعيد. شعرا بأنهما لصان، فقد كانا يحاولان سرقة لذة التفاح.

ثلاث رقصات في مالبورن

(1)

صاحبة المقهى ترقص

بعد ساعة من الآن سأحضر عرضاً مسرحياً. وحتى يحين العرض جلست في مقهى الجامعة بأستراليا. كان المقهى ضمن سلسلة مقاهٍ ومطاعم صغيرة وأماكن للترفيه والألعاب الرياضية المنتشرة في الجامعة. جلست إلى طاولة إلى جانب معرض للبوسترات واللافتات ونسخ من لوحات فنية شهيرة. صاحبة المقهى ترقص، والموسيقى تبهج المكان، وقبل أن أهم بالكتابة تناولت بالخطأ قلم السكر بدلاً من قلم الحبر، وسرعان ما انتبهت بأن قلم السكر للقهوة. وبلذة لا توصف أحسني «الكافي لاتي»، أحرق في عالم الطلبة المختلف تماماً عن عالمهم في جامعات وكليات عُمان، صاحبة المقهى مستمرة في الرقص أثناء إعدادها للمشروبات والمأكولات، كانت وسط اثنين من الطلبة يساعدها.

أتمعن في الوجوه من حولي وأجد بعضها -ومعظمها من الهند- فيها شبه من بعض أقبائي وأصدقائي في عُمان. وهناك إلى طاولة ليست بعيدة عني كانت فتاة تجلس وتتكلم في هاتفها النقال. اكتشفت بأنها تشبهني. سمعت لهجتها الهندية. تذكرت أنني رأيتها في حفلة راقصة على مسرح الجامعة. كانت ترقص وتغني بمهارة فائقة. الآن تذكرت أنني أثناء مشاهدتي لعرضها أحسست بشيء تجاهها لكنني لم أكتشفه. وها أنا اليوم أكتشف أن هذه الفتاة تشبهني

وربما يكون هو سبب انجذابي إليها حين شاهدها ترقص. كنت أصدق في هيتها وهي تتكلم عبر هاتفها النقال. وفجأة تلاقى عيوننا. لكنها سرعان ما نكست رأسها. هل أنهض وأتجه إليها وأسالها إن كانت تعرفني أو تُشبهني بأحد ما؟ هل أقول لها: «ربما تكونين أختي وقد فرقنا ظروف صعبة وها نحن نجتمع صدفة وفي بلد بعيد». ضحكت من هذا الخيال الساذج المتأثر بالأفلام الهندية. انتهت من «الكافي لانيه» ثم التفت لأكمل مشاهدتها فوجدتها غادرت المقهى. اتجهت بنظري إلى صاحبة المقهى النشطة، لأجد مساعدتها انضما إليها في الرقص مشكلين جوقة راقصة أبهجت الجالسين. نظرت لساعتي فوجدت أن موعد العرض المسرحي يقترب.

(2)

القطار السريع يرقص

في طريقي إلى العرض المسرحي تيقنت من وجود بطاقة القطار في جيبى. البوابة الآلية لمحطة القطارات ابتلعت البطاقة. فُتح الباب الحديدي، فدخلت بسرعة وسحبت بطاقتي بعد أن لفظتها الآلة من الجهة الأخرى، كانت المحطة مزدحمة بالناس الذين ينتظرون وصول قطاراتهم، الشاشة الإلكترونية تشير إلى أنه لم يبق سوى دقيقتين ويأتي القطار الذي أنتظره. قطارات كثيرة تأتي وتروح، أفواج من الناس تصل وأفواج أخرى تغادر. وصول ومغادرة. مغادرة ووصول. حركة دؤوبة. كائنات تضج صخباً وحياءً. دخول وخروج، خروج ودخول، قطارات تلتهم وتلفظ البشر، قطارات ترقص وترقص معها ركاها.

دخلت إلى القطار المزدهم ولم أجد مقعداً شاغراً فوقفت مع الواقفين وأحسست أن الهواء بدأ ينقص، ومثل كل مرة وحتى لا يقع أحد الركاب الواقفين تشبثوا بقضيب حديدي مثبت في سقف القطار. والتفت أصابع يدي اليمنى على الحديد وباليدين الأخرى أمسكت حقيقتي المحملة بالكتب. سرعان ما اكتشفت أن يدي تجاور يد امرأة عجوز. رقص القطار، انعطف يمينا ثم يساراً، ومع كل رقصة تهتز الأجساد، فمالت يدها ناحية يدي ولا مستها. وعلى الفور أبعدت يدي. وعند توقف القطار في المحطة التالية خرجت اليد المجمعة، ودخلت فتاتان، إحداهما مدت يدها اليمنى وأمسكت بالحديد، صارت يدها إلى جانب يدي، سرت حرارة في جسدي، وتحرك القطار فتدقق الهواء بكثرة ولطف.

ووسط الأيادي الكثيرة والملونة كانت اليدان بجانب بعضهما لكنهما لا تتلامسان.. يدان مختلفتان لا تتعارفان، بينهما مسافة قصيرة جداً، يد خشنة وأخرى ناعمة، يد سمراء وأخرى حمراء، وعند منعطف حاد اهتز وسط القطار بقوة فتلاشت المسافة واندفعت يدي تجاه يدها ولا مستها عن غير قصد، وبسرعة خاطفة ابتعدت اليد الناعمة، ولكن في تلك الفترة السريعة جداً كانت نعومتها قد اختلطت مع خشونة يدي، وشعرت بأن ألفة تكونت بين اليدين.

ويا لهذا القطار فهو بخيل، لأنه لم ينعطف مرة أخرى ولم يؤد رقصته الشهيرة، ويدي كانت متعطشة لتلامس نعومة اليد الأخرى، ومما زاد الأمر سوءاً هو توقف القطار في إحدى المحطات واختفاء اليد الناعمة. حملتها الفتاة ونزلت. وعند نزولها أمسكت بيد صاحبيتها ومشتا داخل المحطة وبينما القطار

يتأهب ببطء للانطلاق إلى المحطة التالية، نظرت إليهما، كانتا ترقصان كرقصة القطار.

رجعت إلى الحديد الأصفر الذي ظل ثابتاً متماسكاً ومسانداً للأيدي المتنوعة، وأتت أيادٍ أخرى إلى جانب يدي.

(3)

فتاة الألوان ترقص

في الفصل الأخير من المسرحية انتشرت الموسيقى. أدت الفتاة دورها البسيط ونزلت من المسرح ووقفت أمامنا. الأضواء تماوجت في جوف القاعة. الأضواء حضنت جسدها الممتلئ. الممثلون الآخرون أشعلوا نار الضجيج، فانتشرت في كل جوانب المسرح. خلعت الفتاة ملابسها العلوية. انطلق نهداها البضان الممثلان يرفرفان في هواء القاعة وكأنها أطلقت حمامتين من قفصيهما. تناولت بفرح أوراقاً بيضاء وألواناً مائية، وبرقة متناهية وضعت الورقة الأولى على أرضية المسرح. بعد ذلك غمست نهديهما في الألوان المختلفة ثم ألصقتهما على الورقة. الورقة ابتهجت. الممثلون ازدادوا صخباً داخل المسرح، بينما تشبث الجمهور بالصمت والتأمل.

واصلت الفتاة الرسم بالفاكهتين، بل بالفرشنتين الراقصتين مع الموسيقى الصاخبة. وجاءت بورقة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة، وصارت الأوراق لوحات مجنونة مفعمة بالحب والحنان، والألوان تقاطرت كالعسل والحليب من التفاحتين.

صوت الموسيقى أخذ يتناقص تدريجيًا، حينها أخذت الفتاة جميع اللوحات التي رسمتها ووزعتها على الجمهور. أعطتني لوحة أبهجتني. بينما الألوان تقطر من منبعين غامضين يأسران الأفواه. وكان المسرح والموسيقى، وكانت هي، وكنت أنا غارقًا في المتعة والدهشة.

الابتسامة الصينية

(1)

عالم صغير في غرفة

من الصعب أن تحكم على الشخص من مظهره. هي بريطانية من أصل صيني. في الوهلة الأولى لم أجد فيها شيئاً ملفتاً للانتباه. وذات يوم تحدثتُ معها بسبب نغمة هاتف كانت تنبعث من غرفتها. كل شيء فيها مألوف سوى شعرها الأشقر. الكثير من الصينيين تملؤهم السعادة حينما يجتمعون مع أقرانهم يرطنون بلغتهم التي لا نفهمها. ويبدون بعض التحفظ تجاه الآخر إلا فيما ندر. ويطلقون على أنفسهم أسماء أوروبية مستعارة وسهلة بسبب طول وصعوبة نطق أسمائهم الحقيقية. لكن البريطانية الصينية تختلف عن بقية الصينيين أقله من الذين التقيتهم وتحدثت معهم.

كانت غرفتها إلى جانب غرفتي التي تشبه كبسولة صغيرة جدرانها هشة أمام الأصوات. بداخلها حمام لا يغطيه سوى ستارة قماشية. كل شيء في متناول يدي: السرير والطاولة وجهاز الحاسب الآلي والتلفاز وجهاز (الدي في دي) والثلاجة الصغيرة والميكروويف، إلى جانب مغسلة مسطحة. كل هذه الأشياء في غرفة بحجم ثلاثة أمتار في أربعة. إن دخلت الحمام ونسيت شيئاً فلا داعي لأن أخرج منه، من هناك أمد يدي وأجلب

الشيء المطلوب بكل يسر. وإن كنت جالسًا على الكرسي أمام الطاولة واحتجت إلى شيء لآكله من الثلاجة، أيضًا أمد يدي وأجلب الشيء من داخلها وأدخله في الميكروويف لتسخينه. تلك الغرفة عالم صغير احتوى عالمي الأصغر منه. لا يوجد ما يثير الاستياء. في هذه الكبسولة أنام وأدرس وأعيش فيها. كبسولة مؤثثة بشكل جيد. حياة صغيرة. لكنها جميلة. وكفيلة بأن تجلب لي السعادة.

(2)

نغمة هاتف

نغمة هاتفها النقال اخترقت جدران غرفتي الصغيرة. استيقظت والنوم يثقل جفوني، ففي هذا الوقت بالتحديد يرن هاتفها لثوانٍ. وهذه الثواني تكفي لغرز أذنيَّ بإبر الانتزاق، وانتشالي من صندوق النوم.

كرهت تلك النغمة ولن أنساها أبدًا. تنطلق مثل صاروخ صغير كل صباح مخترقةً الجدار الفاصل بين غرفتي. صار قلبي يئن تحت وطأة صخبها. والذي يبعث على الأسى هو أن هاتفها يرن قبل موعد استيقاظي. أحاول أن أرجع إلى صندوق النوم، ولكنني لا أستطيع. ربما صديقها يهاتفها في ذلك الوقت، أو أنها وضعت النغمة كمنبه ليوقظها.

وبعد أن تعرفت على جارتي الصينية قررت أن أعترف لها بشعوري تجاه النغمة. ترددت في بداية الأمر حتى لا أزعجها. وبعد تفكير صرحت

لها عن استيائي ومعاناتي بشكل غير مباشر، قلت لها بود: «أنا معجب بنغمة هاتفك.. فأنا أسمعها كل صباح».

بادرتني بابتسامة، وقالت بأن أمها هي من تتصل بها. كانت تكلمها في هذا الوقت يوميًا لتطمئن عليها، فهو الوقت المناسب في بلدها، والمناسب إلى حد ما لجارتي. لكنه غير مناسب لي. ولكن بعد صبر وتفكير جعلت من هذه النغمة طريقًا إلى النشاط ومنبهاً يوميًا حتى في أيام الإجازات.

(3)

صباح من زجاج

صُنعَ هذا اليوم من الزجاج. خرجت من غرفتي واستقبلني صباحٌ زجاجي ولكنه مكسور، فكلما مشيت في طريق رأيت الزجاج مكسورًا، لوحة إعلانات تناثر زجاجها على الأرض، نافذة أحد المتاجر تشققت، زجاج سيارة تناثر هنا وهناك.

شاهدت جارتي الصينية تجمع قطع الزجاج الملون والمتناثر على الطريق والذي تدفق من لوحة الاعلانات، أسألها بلغة إنجليزية عمانية: «ماذا تفعلين؟». جاوبتني بابتسامة وبلغة إنجليزية ليست صينية بأنها تجمع قطع الزجاج من أجل درس في فن الكولاج. بادلتها الابتسامة وتيقنت من أنها تستمتع بتكسير الزجاج وتستفيد منه، ثم وكأني رأيتها تتحول إلى كائن زجاجي

ملون يحملني إلى السماء لنشر قطع زجاج ملون على بشر تحولوا إلى كائنات زجاجية. ثم عدت إلى الأرض، بينما هي ظلت جالسة في غيمة زجاجية. كل ما حولنا زجاج، بنايات شاهقة من الزجاج، مرآة الغرفة، الحاسب الآلي، المصاييح، النافذة، الهاتف النقال، التلفاز، ماذا إن تكسر كل هذا الزجاج؟ قلت لها: «ظننت أنك قلت لي إنك تدرسين تخصص التربية الخاص بالمعاقين».

أهدتني ابتسامة وأجابت: «هذا صحيح.. فن الكولاج هواية». صمتت قليلاً ثم أردفت: «على فكرة هذا التخصص ليس طموحي.. أقصد تربية الإعاقات الخاصة».

قلت لها: «هل أجبرك أحد على دراسته؟».

أجابت: «لا.. أنا اخترته بنفسني».

قلت: «ولكن؟»

أجابت: «بعد أن أنتهي من دراستي الحالية سأفكر بدراسة التخصص الذي أحبه.. أنا الآن أدرس هذا التخصص من أجل أخي المعاق».

الطيور الزجاجية*

* صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في عام 2011 عن دار نينوى، سورية، دمشق.

الإهداء

إلى

ثلاث زهرات مضيئة

وجد

ليان

سارة

الجزء الأول

طائرة تبدد لون السماء

في وقت الظهيرة كانت جدران البيت الخشبية هادئة لأن الطقس لا يعكر صفوها بالرياح. وكان حمود يبشرته الحنطية يحلم بركوب أرجوحة في حديقة خضراء طقسها بارد ومليء بالرضا. لكن أمه أيقظته فجأة، فأحس بالعرق يتصبب منه. وقالت له: «هيا قُم.. اليوم موعد الموكب». لم يفهم كلامها ولكن النشاط دب في جسمه الطويل ونسي الحلم والحر، وركض كالأرنب ولبس نعليه. أمرته أمه بأن يأتيها «بالترمس»⁽¹⁾ الصغيرة التي وضعت في المطبخ. سألها بدهشة: «لماذا؟».

وبعد أن استخدمت لحافها في مسح قطرات العرق من على جبينها أجابته وقالت: «سنملؤها شربت فيمتو»⁽²⁾.. اشترت الثلج». أحس بعطش وتمنى شرب عصير «الفيمتو» مثلجاً، وبعد أن جلب الترمس أضافت الأم وقالت: «هذا سنيعة للناس الذين سيحضرون لمشاهدة الموكب».

سألها: «ما الموكب؟».

«ستعرف هناك». أجابته بسرعة بينما كانت تسكب الماء في الترمس وتخلطه مع قطع الثلج والسائل الأحمر الغليظ، كانت تعمل بنشاط وسرعة، رغم افتقادها لزوجها الذي رحل منذ سنوات ولم تعرف عنه شيئاً. وقد

(1) وعاء لتبريد السوائل.

(2) شراب من عصير التوت.

أوهمت حمود بأن أباه سافر إلى الهند في رحلة عمل وسيعود، وحمود ما يزال ينتظر عودة أبيه من البلاد البعيدة التي لا يعرف عنها شيئاً سوى الحلويات ذات نكهة النارجيل التي تذوقها حينما رجع خاله راشد ذات يوم من الهند.

حمل حمود كيساً به أربعة كؤوس بلاستيكية، والأم لبست نعلها وحملت الترمس وإناءً يحتوي على ماء لغسل الكؤوس، وذهبا ناحية الشارع المسفلت حيث الناس واقفون وجالسون على الأرضية المتربة بمحاذاة الشارع. سؤالان ناوشا رأسه: ما قصة هؤلاء؟ وما الفائدة التي سيجنونها من وقوفهم في هذا الحر؟ حين وصلا إلى هناك انشغلت الأم بالبحث عن مكان تضع فيه عدة العصير، بينما هو أخذ يبحث عن منفذ لرؤية الموكب، كان الناس مثل أحجار رصت حول الشارع، الرجال يلبسون دشاديش أغلبها يحمل اللون الأبيض والنساء بعباءات سوداء، بينما الأطفال يبدو أنهم غير عابئين بشيء لأن حديثهم الأكبر هو اللعب بالتراب والحصى والكرة. الناس هناك يتجرعون الانتظار والعطش، وقد عرفوا أن الترمس لبيع «الشربت» البارد. وضعت الأم الترمس على حجر مسطح وبدأت تبيع العصير البارد ذا اللون الأسود. كانت هناك فتاة صغيرة تبيع الحلويات للأطفال. وهناك امرأة بدينة عملاقة تبيع عصير البرتقال ورجل مسن منحني الظهر يبيع الماء البارد.

كان مصدر رزق أم حمود هو خياطة الملابس النسائية في بيتها، ودائماً ما تذكر زوجها حين دخل عليها منذ سنوات وهي بالغرفة بهيئته العملاقة حاملاً على ظهره بندقية عتيقة وحقيبة صغيرة، على الفور أحست بالقلق يسري في فؤادها، لم تتكلم، فقط كانت تحديق في هيئته المزرية تلك، تسجل قامته

وتجههم وجهه المتعرق مع تلك البندقية، تخزن الرائحة الكريهة التي تنبعث منها ومن الحقيبة.

نظر إليها بحدة وقال لها:

«اسمعي يا حرمة.. أنا راحل.. حمود أمانة عندك.. كلها كم شهر وأرجع.. لا تخبري أحداً».

أغلق الباب وراءه ورحل، تركها مع ولدها الصغير، ولكنها ما زالت تسأل لماذا لم تدمع عيناها في ذلك الوقت؟ رحل ولم يرجع حتى الآن، ربما بلعه البحر، وربما خطفته حورية جميلة وعاش معها على ضفاف الشواطئ الهندية.

كان حمود متلهفًا لرؤية شكل الموكب، والشربت بدأ ينقص وينقص وكأنما الشمس هي التي تشربه، ويالحاح شديد شرب آخر كأس من «الفيمتو» وأحس بأن كل شي أصبح باردًا، بعد ذلك جلست أمه مع أخريات افترشن التراب تحت ظل شجرة. بدأ يبحث عن منفذ ولو صغير بين الأحجار البشرية المترصة ليكتشف الموكب، حاول أن يجد ثقبًا يمر منه، وهو يسأل: «هل ينتظرون فلوسًا؟». سمع رجلين يتحدثان عن موعد مرور الموكب وأن هناك ضيفًا كبيرًا، كان جدالهما صاخبًا، فالأول يزعم أن موعد الموكب بعد نصف ساعة، والثاني يؤكد أنه لم يتبق سوى عشر دقائق فقط. ثم حدثت جلبة صاخبة بسبب سقوط بائع الماء، تنبه الجميع للحدث وعلى الفور جاء رجل قوي يشبه الثور حمل بائع الماء وكأنه حمل طفلًا نائمًا وأودعه داخل سيارة «بيك أب بو

غمارتين⁽¹⁾» كانت تقف قريباً من التجمع، ثم صنعت غيمة من الغبار بعد أن ولت مسرعة بعيداً عن الشارع المسفلت. اضطرب قلب حمود من أثر سقوط الرجل الضعيف ورجاً ألا يكون قد فارق الحياة، وتذكر الآن أنه رغم وجهه المتغضن كان كثير الابتسامات. ثم سمع حمود صوتاً جهورياً يقول: «مسكين.. سقط بسبب الشمس والوقوف»، بقلق توجه حمود بنظره إلى أمه التي جلست تحت ظل الشجرة فاطمأن عليها.

وفجأة ساد الصمت بين الرجال والنساء وتحولوا إلى أصنام، بينما استمر الأطفال يعزفون المرح والصخب، أيقن حمود على الفور أن تلك هي إشارة وصول الموكب إلى منطقتهم، وبسرعة نجح في إدخال رأسه بين رجلين، ومن هناك رأى الشارع خالياً من السيارات، وهذه أول مرة يشاهد شارعاً وحيداً دون عجلات سوداء وعلب حديدية تسرع وتزأر، وفي الاتجاه الآخر من الشارع كان هناك أيضاً سور آخر صنع من لحم ودم، وبعد قليل انكشفت من بعيد سيارات ودراجات للشرطة تقدمت مسرعة وأطلقت صفيراً حاداً، لكن المشهد انقطع فجأة لأن أحد الرجلين أخرج رأس حمود عنوة ليجد نفسه خارج السور، لكنه صمم على محاولة اختراق الحاجز البشري مرة أخرى، فحشر رأسه هذه المرة بين امرأتين مكتنزتين تفوح منهما رائحة العرق ليشاهد سيارات كثيرة زرقاء لم يستطع أن يتبين أحداً فيها لأنه سرعان ما رُكِّل إلى الخارج، حاول أن يقف ويمشي مرة أخرى باتجاه الشارع، لكنه تعثر بحجر

(1) سيارة نصف نقل.

وسقط، فشاهد السماء زرقاء صافية، وقبل أن يستمتع بالمشهد ظهرت طائرة مروحية اخترقت صفاءها، فتبدد لونها واستحال إلى رماد، نهض حمود من سقطته ليسمع صوت أمه تنادي عليه، شاهدها واقفة بجانب الترمس وأدوات العصير، كانت مثل حمامة تدعوه لتحمله على جناحيها وتطير به إلى البيت، اتجه ناحيتها وحمل معها عدة العصير، لكنه لم يلتفت خلفه ليشاهد ماذا سيحدث بعد مرور الموكب وما إذا كان الناس سيظلون هناك في انتظار شيء آخر أم سيعودون إلى بيوتهم سعداء، كل الذي يعرفه الآن أنه موجود مع أمه بأمان، يعودان إلى البيت لكي يشعلا السراج بسائل الـ«حل تراب»⁽¹⁾ لإبعاد كمية ولو قليلة من الظلام. انتابته سعادة مؤقتة حينما تذكر أن أباه سيعود وسيجلب معه هدية السفر إلى جانب الحلويات الهندية. ومع كل خطوة يخطوها يشعر برغبة قوية في احتضان أمه.

(1) سائل الكيروسين.

الطيور الزجاجية

1. نقطة سوداء صغيرة

اقشعر بدنه فقد رأى شعراً خفيفاً نبت في ظهره، ارتعب، ماذا يفعل ليداري هذه الجريمة؟ كلما دخل الحمام وشاهد ظهره رأى الشعر ينمو بوضوح، أصابه القرف من المشهد، وقرر ألا يكشف ظهره لأي شخص بما في ذلك أفراد أسرته، ظل هكذا يخجل من كشف ظهره وكأنه عورة لا يجوز لنظرات الآخرين أن تقع عليها، ولكن الشعر نما بكثافة في يديه ورجليه و صدره وبطنه وفي أذنيه وأنفه، واختفى الشعر من ظهره، والأعضاء التي لا يستطيع مداراتها نبتت فيها غابات سوداء. أصبح كائنًا خُرافيًا بدائيًا يخرج من البيت ليمشي في شارع أسود، ويشاهد المشاة بدون شعر كثيف، إلا هو، فقد تحول إلى نقطة سوداء صغيرة في هذا الكون. وأيضًا مع مرور السنوات أصبح يشاهد ثلاثة طيور زجاجية تتراقص حول رأسه وتنقر ذاكرته تاركة فيها ثقبًا تسرب رعشات حزن.

2. كرات زجاجية

قبل غروب الشمس كان مازن يلعب مع أصدقائه بالكرات الزجاجية الملونة.. وكان ضحكهم وصراخهم يتردد بين جدران الحارة وسماؤها، فحدث شيء فجأة شرح كل ذلك وخاصة عند مازن. فقد سقط صحن من السماء على طائرين كانا يقفان على سلك كهرباء.. وبعد ذلك وقعا على رأس

مازن. تحسسهما ورفع رأسه عاليًا ليجد ريشًا يتطاير حوله وذرفًا يصبغ ملابسه. غضب بشدة وأصابه الحرج، وركض إلى البيت تاركًا أصدقاءه يضحكون، وفي طريقه سمع ضحكة متكسرة صدرت من الهندي «راج» صاحب البقالة الذي كان يدخن مع صديق له. لم يتردد مازن في شتم الجميع.. وها هو يتذكر أنه منذ قليل كان مسيطرًا على اللعب.. وكان يضحك معهم على زيت النارجيل الذي يتصبب من شعر راج، وها هو الآن منكسر وحانق على الطيور وسيتوقع توبيخًا من أمه.

وعند وصوله إلى البيت وجد بابه مقفلاً. ازداد غضبًا لأنه سيقف وهلةً يطرق الباب وسيستظر حتى يفتح له، وأثار الطائرين على قميصه. التفت يمينًا وإذا بالفتاة الجميلة منى تمر لترى هيئته المزرية وريش الطائرين، شاهدها بتبسم بسخرية، ازداد غضبًا ولكنه انتهاز الفرصة لرؤية مؤخرتها، تذكر أنه حاول مرارًا أن يكلمها لكنه يتراجع في آخر لحظة خوفًا من أن تصده، وهو يعرف أنه ماهر فقط في التحديق في عينيها، ويشعر أنها تبادله الإعجاب، لكنه لا يتجرأ في خوض حديث معها لدرجة أنها بدأت تغضب حينما تراه.

حينما فتحت أمه الباب استقبلته بغضب بعدما رأت منظره المزري.. سحبته كالخروف داخل الحمام وغسلت له رأسه.. أخذ يفكر: لماذا هو بالذات سقط الطائران على رأسه؟ فقبل أن يخرج كان يستحم ويغني أغنية سمعها من المذياع.. والآن تؤنبه أمه على وقوفه تحت أعمدة الكهرباء. رد بغضب، إنه دائمًا يقف هناك ويلعب بالكرات الزجاجية الملونة، ولم يحدث شيء. بعد أن انتهت أمه من غسل رأسه أجبرته على عدم الخروج في اليوم

التالي عقاباً له. دخل الغرفة وفتح مجلة لي شاهد صوراً كثيرة لنساء، ونسي الطائرین والكرات الزجاجية.. ونسي كل شيء.

3. بنت إبليس

اقتلع مازن نفسه بصعوبة من السرير بعد أن تحقق من عدم وجود أية مادة لزجة ربما كانت «بنت إبليس» سبباً في خروجها، ثم تأكد من عدم نبت الشعر في جسمه. وقف متصلياً باتجاه السقف ودار ثلاث دورات ثم ارتمى مجدداً على السرير وسأل: «ما الذي حدث لي؟».

اليوم هو ثاني أيام عيد الفطر، ودشداشته البيضاء الجديدة التي لبسها بالأمس تنتظر جسده من جديد، مشى بثقل ناحية طاقته التي ملأها بالعيدية، فرغم اعتقاده بأنه تجاوز سن الحصول على عيديه إلا أن بعض أقاربه ما زالوا يُناولونه شيئاً من النقود. بعد ذلك أحس بانقباض في صدره حينما حلق في ثلاث زجاجات صغيرة خالية كانت على الطاولة الخشبية التي بجانب سريره. وبعد تفكير وتردد أخذ زجاجة واحدة وأخذ يحرق فيها كمن يتفحص عينة في مختبر تجارب، ثم تناول المجلة المصورة ودخل إلى الحمام وكأنه جندي أسير ارتمى داخل كهف مظلم.

4. أي يد ستمسك الحبل؟

أبو مازن عقد صفقة مع أحد معارفه من أجل زهق روح جدي صغير. وجاء الرجل حاملاً سكينه كبيرة حادة وساطوراً حديدياً لم يستطع الصداً أن يلتهمه.

جاء وألقى التحية ثم خلع دشداشته ليكشف عن ظهر مشعر كثيف، فاشتعل الاستغراب في ذهن مازن: «يا لهذا الشعر». خفق قلبه بشدة من الخوف وقال في نفسه: «هل سأكبر وسينبت لي مثل هذا الشعر؟». استهجن المنظر، كان أبوه يأمره بأن يجلب الماء، فيذهب صاغراً دون رغبة وتركيز. رmq أيضاً الجدي محاولاً تأمل شعره الأملس وسأل: هل يعلم الجدي الصغير أن روحه سوف تفارقه بعد لحظات؟ كأنه يعلم، فالقلق والذعر تدفقا في عروقه، وأصبحت نظراته ناقمة على كل الناس منذ أن كان في السوق وسط حشد من الماعز والأبقار والناس والخرفان، وكان الجدي يسأل: أي يد سوف تمسك الحبل المقيد به؟ أي يد سوف تتفحص لحم ظهره وتختبر ثقله وخفته وكثافة شحومه؟ هل يعلم الآن أن هذا آخر صباح له على الأرض؟ وهل سوف يحدث شيء يحول دون ذبحه؟

أحس مازن بأن الجدي يحدق فيه وكأنه يتوسل له طالباً إنقاذه من الموت، لقد فقد أمه، وربما، من يدري، قد شاهد أو سمع أئينها وهي تذبح، تمنى ألا يكون الجدي قد شاهد أمه تذبح، إذن.. فقد تقرر أن الجدي سيؤكل بعد ساعات. سوف يقطع ويشوى، وسوف يستحيل إلى لحم فقط بدون عظام.. لحم مقطع وعظام مكسرة. هل يعلم بكل ذلك؟ ويله.. إن السفاح الذي تأمر مع أبيه بيدو سعيداً.. حمل معه كل الأشياء الحادة التي تحفر قنوات الدم.. لبس قميصاً مخططاً ولف مئزراً حول وسطه، وكانت ملابسه ملطخة بالدماء فيبدو أنه مر على عدة رؤوس في طريقه، قطعها، وجاء دور هذا الجدي المسكين، يا له من جزار شاحب الوجه، ابتسامته خبيثة، كبير السن ولكنه

قوي، عضلاته بارزة، ولجسده شعر كثيف، مهتته الأصلية صياد، ولكن في يوم العيد يترك البحر وراءه وينساه ويتفرغ لقطع رؤوس الأغنام والأبقار.
تقدم الرجل ووجه السكين ناحية الجدّي، وسأل:
- أهذا هو..؟

أجاب أبو مازن باستغراب: «طبعًا.. لا يوجد غيره هنا».
فك رباطه، جرّه باتجاه شجرة المانجو التي على ما يبدو أنها كانت ترتعش خوفًا هي الأخرى. حاول الجدّي أن يقاوم، حاول أن لا يتحرك من مكانه، فلديه إحساس بمصيره، قال الرجل: «هذا الجدّي عنيد». حينها قال مازن في نفسه: «ها.. أيها المسكين المغلوب على أمرك، أظنك تأكدت الآن من أنك سوف تموت، سامحني.. لا بد أن أشارك الرجل وأبي في هذه المؤامرة». أمر الرجل مازن وأباه أن يمسكا رجلي الجدّي جيدًا. كان الجدّي يرفس ويصيح «مباع.. عااا.. عااا.. عاا..»، قطتان اقتربتا من المكان وعلى الفور أصابهما الذعر من رؤية السكين. بيده الضخمة أمسك الرجل صدغي الجدّي، والأخرى سنت السكين، ثم أبرز رقبتة، وتمتم ببعض الأدعية، وبحركة سريعة قطع الرقبة، انبثق شلال من الدم ولطخ مئزر الرجل وملابس مازن وأبيه، ثم أمرهما أن يتركا قدميه كي يتمكن من تحريكهما. طارت روح الجدّي ليستلذ الجميع بطعم لحمه. بعد ذلك حمل الرجل الجثة وربطها منكبسة في معلاق بأحد أغصان الشجرة البائسة. وضع الرأس في جردل ماء بعد أن ألغمه بقطعة صغيرة من الحجر، وكل قطعة يترها كان يناولها لمازن وأبيه كي يغسلاها ويضعها في صحن كبير.



فجأة نظر الرجل السفاح إلى مازن، وأشهر سكينه ناحيته وقال: «إن كنت تريد أن تلحقه فأنا مستعد للمساعدة.. ها ماذا تقول؟ أليس من الأفضل أن تلبي رغبتني؟ أرجوك فأنا لذي رغبة في قطع رأس إنسان». تجمع حول السفاح العديد من الماعز والجديان، جميعها تحلق بغضب ناحية مازن الذي أصيب بالذهول والخوف من نظراتها، سأل إن كان الرجل يمزح، كان يتقدم ناحيته ومازن يتراجع إلى الوراء، هل فعلاً انتهى ذبح إنسان أم أصابه الملل من كثرة ذبح الحيوانات؟ إذن لماذا بالذات يحاول ذبح مازن وقد مر على العشرات من البشر هذا الصباح؟ هرب مازن بسرعة، سكين السفاح ملطخة بالدماء الساخنة، سأل من سوف يأكل لحمه؟ وحينما تأكدت نيته في ذبحه وقف أمامه والعرق يتصبب من جبينه، رفع حجراً كبيراً محاولاً رميه ناحيته، صرخ في وجهه: «كفى.. كفى عبثاً.. أيها السفاح سوف أنال منك».

كان الرجل يرشه بالماء على وجهه وهو يقول لأبيه: «هيا.. أريد نقودي.. تأخرت.. هناك ثور ينتظرنني».

5. ثلاث زجاجات صغيرة

بينما كان مازن يمشي متجهاً إلى بيت صديقه ماجد، وقفت سيارة فارهة أمامه، وأطل من نافذتها «خلفان» الرجل المعروف بثرائه ونفوذه في البلد. ابتسم الرجل ومدّ يداً مرتعشة ليصافحه ولا حظ مازن أنها دون شعر. مد مازن يده. عصرها الرجل بخفة. فسحب مازن يده بسرعة بعد أن داهمته قشعريرة خوف. داهمه الرجل بالكلام وتلصصت سن ذهبية من داخل فمه:

- كيف حالك يا ولد؟
- بخير
- كيف العيد؟ هل حصلت على عيدية زينة؟
- يعني.. ويش تريد؟
- أريد منك خدمة وسأعطيك عيدية كبيرة
- ارتبك مازن وسأل في نفسه أية خدمة يريد هذا الثري من ولد مثله؟، ثم سأل:
- أية خدمة؟
- أجاب الرجل بعد أن خفف من ابتسامته وقال:
- اسمع، سأعطيك ثلاث زجاجات صغيرة، وسأعطيك عن كل زجاجة عشرة ريالات.
- اندهش مازن وقال:
- ماذا أفعل بالزجاجات. ولماذا تعطيني النقود؟
- ابتسم الرجل والسن الذهبية تشع خبثاً من فمه، وقال:
- فقط أريد منك أن تمارس العادة السرية لتملأ هذه الزجاجات،
- عملية سهلة، صحيح؟
- توتر مازن واندهش لهذا الطلب وهذه الجرأة، وقد سمع الكثير عن قصص هذا الرجل ولكن هذه لم يسمعها، إلا أنه أمام الثلاثين ريالاً تراجع وقبل الصفقة، وفكر بأنه لن يخسر شيئاً. وحينما أخذ الزجاجات تبدت السعادة على وجه الرجل واتضح أكثر تلك السن الذهبية، وأعطاه مهلة ثلاثة أيام، لكي يعود مازن بعدها بالإنتاج الوفير، ليسعد الثري.

بعد أن التقى مازن بصديقه ماجد وحكى له الحادثة، ضحك صديقه وقال:

- في العام الماضي طلب مني طلبًا مختلفًا.
- ماذا؟. ماذا طلب؟
- طلب مني أن ألبس «فانيله» داخلية لمدة شهر ولا أحلّعها أبدًا مقابل خمسين ريالًا.
- وهل فعلت؟
- نعم.. إنها خمسون ريالًا.. فقد لبست الفانيلة لمدة شهر ولم أستحم طوال تلك الفترة، وسلمتها للرجل صاحب السن الذهبية الذي فرح بها جدًا.



كل عيد يفرح بالملابس الجديدة والعيدية، وكلما تقدم العمر يختلف العيد وتقل البهجة، أخذت الأفكار والأسئلة تنبت في عقل مازن، لماذا هذا الشعر الكثيف على ظهر ذلك الرجل، أبوه لا يوجد لديه مثل تلك الغابة السوداء، ولكن هل سيصبح له مثل تلك الغابة، وماذا سيستفيد الرجل الثري من محتوى الزجاجات؟ بعد ذلك اليوم بدأ يحرق في وجوه البشر وأجسادهم بتركيز سبب له إعياء، فيشاهد بعضهم له لحية خفيفة والآخر حليق اللحية، وآخر تصل لحيته حتى عينيه، وفي مناظر أخرى يشاهد الشعر ينمو في الأذنين، وينمو في الأنوف، أصبح الشعر هاجسه المخيف والمقزز، لاحظ أن بعض النساء ينبت شعر فوق شفاههن، كأنهن رجال، وبعض الرجال يرى في أياديهم غابة سوداء من الشعر، أصبح يفكر ويخاف من هجوم الشعر على جسده، سيتحول إلى

حيوان أو غوريلا مشعرة، ويتذكر أنه ما زال صغيراً وأنه حينما يكبر سيتشر الشعر في جسده لا محالة، يرى شعيرات صغيرة في يديه، ويرى شاربه ما يزال ينمو، ولكنه لا يخاف من الشارب واللحية فوجودهما في وجه الرجل طبيعي، ولكنه يخاف من أن يكسو الشعر ظهره، يفكر أن الصدر ليس فيه مشكلة فأبوه في صدره شعر كثيف، لكن وجود الشعر في الظهر لم يستسغه قط. وتذكر يد الرجل صاحب السن الذهبية وأنها كانت بدون شعر، فلماذا لا يوجد بها شعر؟

6. فم مليء بالشعر

ثلاثة طيور زجاجية حملت مازن إلى أعلى. شاهد مدينة مغطاة بأشجار لونها أسود، وشوارعها بيضاء اللون، ولاحظ أن المشاة من الناس عراة يغطيهم شعر كثيف عدا رجل واحد ليس له شعر، لكن له ناب ذهبي يطل من فمه، كما شاهد الأرصفة سوداء ناعمة، السيارات مشعرة، البيوت والعمارات بلون أسود، والحدائق مزروعة بالشعر وكانت لها رائحة عفنة، وبعد قليل سقط مطر غزير من الشعر، ثم كاد يسقط في بركة مملوءة بمادة مخاطية. بعدها أسقطته الطيور في بطن المدينة. داهمه الغثيان فحاول الركض والهرب فلم يستطع لأنه أحس بأن قدميه ثقيلتان ومشعرتان وتلك المادة في البركة تحولت إلى دم ساخن. حاول أن يصرخ فلم يستطع لأنه اكتشف أن فمه مليء بالشعر وبذلك المادة اللزجة، أحس بالضيق، صارت أنفاسه قليلة وغرق في كابوس أسود.

إنقاذ

بعد أن أحصى أيمن الجدران الخشبية للبيت ذهب إلى الموقع الذي كسره
بقدمه نهار الأمس. شاهد أثر الضربات في الجدار الذي يفصل بين بيته وبيت
الرجل السكير، لقد ركل الجدار عدة مرات فأحدث به صدعاً، وبعدها خلع
القطعة الخشبية المتشققة وصنع فتحة كافية لمرور المرأة. كانت أمه هي
معاونته الأول. وكان دورها كبيراً في عملية الإنقاذ، فقد تعاطفت مع المرأة
حينما سمعت نشيجها ودار حديث طويل بينهما من خلال فتحة سرية في
الجدار الخشبي، وكان الفتحة جهاز هاتف من خلاله تبث الفتاة شكواها
ومأساتها.

تسلل أيمن إلى خارج البيت وانتظر حتى خرج السكير من بيته، راقبه يغلق
بابه بقفل أسود كبير ولا حظ قبلاً غريباً يشع من وجهه، كانت دشداشته
متسخة، وبكبرياء أحرق أوقف «تاكسي» بداخله مجموعة من الآسيويين، ركبته
ورحل. لم يدخل أيمن البيت إلا بعد تأكده من أن «التاكسي» اختفى تماماً.
دخل بعدها إلى البيت متشياً. بسرعة نادى أمه واستعجلها في تنفيذ العملية
السرية. شحذ همته، ورغم صغر سنه إلا أنه كان طويلاً وعظامه صلبة. رأى أمه
تأخذ من الأرض قضيباً حديدياً وقالت بشجاعة: «هذا هو المفتاح.. ما
رأيك؟». لكنه رفض بشدة وأبرز عضلات ذراعيه وقال لها: «لسنا بحاجة إلى
هذه الحديدية». فاستجمع قوة قدمه اليمنى وركل الجدار الخشبي مرة ومرتين

حتى انقشع، كانت المرأة تقف بعيداً تنتظر لحظة الإفراج من الأسر والدخول إلى بيته من خلال الفتحة، كانت مثل حمامة جريحة وضعيفة ووحيدة تنتظر فتح باب القفص، حمامة لها ريش ملون، ولها عيناان دامعتان.

كان أيمن هو المنقذ. ركل الجدار من جديد حتى توسع أكثر وانكشف له بيت السكير. قدمه النحيلة هي الأداة القوية، وكأن شيئاً حقنها بالقوة فَعَظُمَتْ واحتدت وأصبحت كالمطرقة. جاءت أمه، غمرها الفرح، ودعت المرأة إلى المرور من خلال الفتحة والدخول إلى بيتها.

بانت على وجه المرأة سعادة طفولية أسرة وعدم مبالاة بردة فعل زوجها بعد أن يعرف بقصة هروبها. دخلت وكأنما ضوء ملون انسكب في حوش البيت، ذاب حزنها بمجرد أن فتح لها باب حريتها، كانت تلبس لحافاً أحمر اللون وفستاناً مزركشاً لامعاً، وأيقن أيمن الآن كم هي امرأة بائسة. بعد أن مشت خطوات داخل الساحة الترابية أخذتها أمه من يدها إلى الداخل حيث جلستا حول صحن التمر والقهوة واستمتعتا بسر الأحدث. وها هو يتأمل ما فعله بالأمس، شعر بفخر شديد، وبأنه بطل أنقذ امرأة جميلة من بين براثن زوجها الذي كان يضربها. وقرر بعد أن أنجز المهمة بنجاح أن يخرج ليلعب بالكرة مع أصدقاء الحارة.

عندما رجع أيمن من الخارج ودخل البيت كان وجود المرأة ما يزال مضيئاً، فهي ما زالت جالسة مع أمه على بساط في فناء البيت، نظر إليها وكانت هادئة، وبدأ يركض حول الحوش كمن يستعرض قدراته، بينما الأم غارقة في

تبادل الأحاديث مع ضيفتها، لكن أيمن أحضر علبة ملح بلاستيكية خالية، وبدأ في استعراض لعبته المفضلة وهي أن يضع العلبة على الأرض ويضربها بقدمه بقوة فينقذف غطاؤها ويطير كقذيفة ناحية هدف معين. استمر في اللعب والاستعراض وهو يشعر بأنه نال إعجاب المرأة بتلك اللعبة، إلا أنه في المرة اللاحقة لم يحسن اختيار الهدف، فحينما ضرب العلبة انقذف الغطاء تجاه عين المرأة، فاشتعل بكاؤها وصرخت أمه، من هول الصدمة لم يعرف ماذا يفعل سوى الهروب من ذاك الموقف الغريب غير المتوقع، خرج حينها بسرعة وهو لا يعرف ماذا حل بعين المرأة الجميلة بذلك الغطاء الدائري الساخط.

تسلق أيمن شجرة مانجو كبيرة وجلس على أحد أغصانها. شاهد أغصانها مملحة تتطاير نحو بركة دموع، كما شاهد عينين جميلتين تغطيها السحب. لكنه غير متيقن من أن الغطاء ضرب العين فربما ضرب الجفن ولم يمس العين، كان الندم يخزه مثل شوكة سامة، وكان الخوف يدب في قلبه. ظل أيمن في حضن شجرة المانجو التي ارتفعت به إلى أعلى لي شاهد طيورًا متنوعة وغروب الشمس، وتذكر أن له قدمًا قوية أنقذت الفتاة فطار فرحًا، لكنه أيضًا تذكر أنها ألمت عينها فسقط في الحزن.

ليلة الخنجر

لبس ناصر دشداشته البيضاء وشعر بأنها قصرت بعض الشيء، قالت له أمه: «هل أنت مستعد للذهاب إلى العرس؟» قال لها وهو ينظر إلى دشداشته القصيرة: «نعم أمي.. أنا مستعد.. لكن من الذي سيحضر هناك؟» ردت أمه بينما كانت تمسك مجمر البخور الفخاري الذي ينفث الدخان: «هناك الكثير من الناس وأغلبهم أقرباؤك». شعر ناصر بحزن يسري في قلبه لم يعرف سببه. وضع كتمه الرمادية على رأسه، وأخذ يفكر في طريقة لتطويل دشداشته.. وحينما فشل، خلع كتمه وقرصها ثم حشرها في الجيب الصغير للدشداشة. لكن أمه نهزته: «البس الكمة يا ناصر.. وهيا بنا».

ذهب مع أمه إلى بيت إسمتي كبير أصفر اللون، مزين بأضواء ملونة. شاهد سيارات كثيرة حول البيت، سحبه أمه إلى داخل البيت. شاهد على أحد الجدران لوحة بها خنجر وأخرى بداخلها سيف فضي فشعر بخوف. التقى هناك ببعض أقربائه الذين كانوا من عمره، وتذكر أن حاجزاً كبيراً أزرع بينهم رغم مشاركته اللعب والضحك والجري معهم. كان البيت غاصاً بالنساء اللواتي تزين ولبسن الملابس العمانية التقليدية ذات الألوان الصارخة والمختلفة رغم سطوة اللونين الأحمر والأخضر، بينما أياديهن تحولت إلى لوحات من الحناء، وكان الرجال خارج البيت يستمتعون بالانتظار والثروة. شاهد رؤوس النساء كرات ملونة تنقذف باتجاه وجهه محاولة تقييله، لكن فور

وصولها ترد وتلاشى، يغمض عينيه ويتغير المشهد إلى خناجر تتطاير وتنغرز في الجدران. ثم شاهد غرفة يخرج منها دخان على شكل مارديدعوه إلى الدخول. وشعر بخوف وجلس إلى أقرب كرسي. بحث عن أمه فلم يجدها. ازداد خوفه. نساء تأتي وتروح وأصوات تختلط مع الدخان ولا يفهم منها شيئاً. رأى الأولاد يدخلون غرفة الدخان الكثيف. قرر أن يدخل وراءهم والأسئلة تدور في رأسه. تبين له أن الدخان هو بخور العود. اكتشف أنه ليس مثل بخور أمه. توغل مع الأولاد داخل الغرفة ليكتشف أنها غرفة العريس الذي كان محاطاً بامرأتين تعملان على رش العطر في الدشداشة البيضاء التي يلبسها ومن ثم تبخيرها بالدخان. ظهر المارد من جديد فقد كان يطير حول العريس ويدخل ريشة طائر في أذنه ويخرجها من الأذن الأخرى. وقف مع الأولاد يشاهد ذلك العريس وهيئته الغريبة والخنجر يربط بطنه بقوة، وكان رأسه مربوطاً «بالمصر» الملون الذي تحول إلى خيوط ضخمة تذكر ناصر بأنه شاهد مثلها عند رجل يطلع بها نخلة. كانت المرأتان تضحكان بسعادة غامرة ولم يكن العريس على ما يبدو سعيداً لأنه لم يضحك منذ أن دخل الأولاد، ربما كان المارد يزعهجه. سأل ناصر: «لماذا أنا غريب وسط أقبائي؟». اقترب الأولاد من العريس. ثم لحقهما ناصر بعد تردد لأن المارد الدخاني يرمقه بنظرات غريبة. أخذ العريس يرحب بهم على مضض وخبث. تذكر ناصر أنه التقى به سابقاً في مجلس بيت جده وتذكر كيف كان يضحك ويثرثر بسذاجة ويتفاخر بأنه يمتلك بيتاً وسيارة، ها هو اليوم في هذه الغرفة العابقة بالدخان والعطر وثرثرات النساء واقف بخنجره ومصره ذي الألوان القبيحة وكأنه

يسخر من الأصغر منه سنًا، شعر ناصر حينها برغبة في أن يعرف ماذا يوجد في ذلك الخنجر فقرر أن ينتهز الفرصة ويستله من مكانه، وفعلاً بجرأة ونزق طفولي حاول أن يسحب رأس الخنجر، لكنه وجد مقاومة من العريس، إذ أمسك بيدي ناصر وعصرهما بقوة صارخاً في وجهه أن يتأدب ويتعد عنه، كما تلقى تأنيباً وصراخاً من المرأتين وذهولاً واستغراباً من بقية الأولاد، كما شاهد المارد يخرج من الغرفة ضاحكاً مكرراً. خجل ناصر من فعلته، وسأل لماذا فعل ذلك؟ بينما إحدى المرأتين أمرت جميع الأولاد بالخروج ولكن قبل ذلك تناولت زجاجة عطر ورشت في ملابس الجميع، ولكنها لم تقترب من ناصر ولم تعطره كالبقية، حينها شعر بأنه كائن منبوذ، وأنه يكره الخناجر والسيوف، كما يكره الدخان الذي يتحول إلى مارد ضاحك وغريب الأطوار.

خوف العصافير الصغيرة

كأن المعلم طلب منهم الاستعداد للحرب. كأنه طلب منهم الابتعاد عن النوم. كما طلب منهم أن يتذكروا الأحزمة الجلدية ذات اللون الأسود، وأن يتذكروه شخصياً بعد سنوات طويلة. وبعد أن يعلن لهم بكل صراحة بأن الغد مخصص لتسميع جدول الضرب تصبح أمنيته الوحيدة هي أن لا يأتي الغد. بعدها تطير العصافير إلى أعشاشها منفطرة القلوب.

في اليوم التالي جاء المعلم بابتسامة صفراء لأنه بعد قليل سيبدأ بالاستمتاع بمجموعة من العصافير حبست في قفص إسمني. سيتف ريشهم. سيتهج، وستزداد شهرته وشهرة حزامه الأسود وبث رعبه بين الطلبة.

قال «جلوس»، فجلسوا.

قال «وقوف»، فوقفوا.

قال «جلوس وقوف»، جلسوا، ووقفوا، وجلسوا. وكرر الأوامر عدة مرات.

كان يتهج بهذه اللعبة اليومية، لعبة الجلوس والوقوف، بعضهم أحبها وبعضهم عرف أنها ليست إلا تمهيداً لمسرحية الجلد. يشعر المعلم بأنه المسيطر على كل شيء، ويمسك كل شيء، فهو لاعب متصّر وبذلك تحولت العصافير الصغيرة إلى دُمى، أخذ يلعب بها حتى يحين موعد تكسيرها. ما الذي يريد فعله؟ هل يريد في بداية الصباح أن يصطادهم بسنارة المرح؟ لكنه ما لبث أن زار وقال: «يا بهائم.. هل حفظتم جدول الضرب؟».

كما قلت.. الذي لم يحفظ سياكله هذا الحزام». ثم كوّر كف يده وضرب بها الطاولة. وكان الصمت والخوف يعبثان بقلوب العصافير الصغيرة. لم يجرؤ أحد أن يتفوه بحرف واحد حتى لو حفظ الجدول مئة مرة. عدا عصفور واحد كان يجلس في آخر الصف فاجأ الجميع بضحكة غريبة. اندهش لها الأسد وصوب له نظرات حادة كالسكين حتى قطعت ضحكته البريئة.

بدأت العصافير المرتعشة تتابع يديّ الأسد ذات المخالب والعروق النافرة، يدان تتحركان وتمسكان المعدن الذهبي للحزام الأسود. تفتحان المعدن الذي حرر الحزام من وسطه وتحول إلى أفعى، لف رأسها بين كف يده اليمنى. العيون الصغيرة ذبلت وقلوبها تحاول الطيران إلى بيوتها. مشى ببطء إلى آخر القفص، وبشكل مباغت وجّه ضربة قاسية إلى العصفور الذي كسر خوفه بالضحك. صرخ بحرقة، أما بقية العصافير فبلعت صراخها وطارن قلوبها أمامها. بعد ذلك سحبه من دشاشته ورمى به خارج الباب. تكور مثل حشرة مهروسة لا تستطيع حتى أن تن. بعدها لمحّه الجميع يمشي مطأطء الرأس والجدران تتقاذف بكاءه. يزداد خوفهم مع كل دقيقة تزيد في أعمارهم.

انتهت لعبة المرح وازداد خوفهم. ازداد وما زال يزداد حتى هذا اليوم. كاد الغضب يُخرج مارده من داخل القفص، لكن، ولحسن الحظ نجحوا في إخماده. كانوا بحاجة إلى التنفس لكنهم لم يستطيعوا.. كانوا بحاجة إلى شيء لينسوا للحظة خوفهم، الذي لا يعرفون متى سيبتعد عنهم ويجعلهم يهنؤون براحة المعرفة.

الجزء الثاني

سر الورقة

أمسك الشيك جيداً، ثم سرعان ما أدخله في الجيب الثاني للدشداشة بعد أن تأكد أنه ليس الجيب الممزق. الموظف الذي سلمه الشيك لمح سعادة تتطاير من وجهه الغامض والمغطى بتاريخ حزين. ومن فرحته كاد أن يصدم الباب الزجاجي إذ حسبه ممرًا مفتوحًا لولا رؤيته لشبح يشبهه داخل متاهات الزجاج، توقف وأدار رأسه إلى الخلف ليشاهد ردة فعل الموظف، ولكن لم يجده.

نزل السلالم بسرعة فائقة.. تخيل شخصًا يتنظره تحت البناية ويقوم بخطف الشيك ويمزقه. وحينما وصل عند باب البناية ذات العشرة طوابق لم يجد ذلك الشخص، فتنفس الصعداء وعب هواءً نقيًا، ثم نظر إلى السماء ورأى فيها ابتسامات وضياء سعادة لم يألفها من قبل.. أخرج الشيك وحدث طويلاً في ألوانه الزاهية وحروفه وأرقامه السحرية التي لا يعرف كيف يفسرها.. تلك التي حتمًا ستتحول إلى أوراق نقدية. مشى طويلاً حتى ابتعد عن تلك البناية، أخذ يفكر.. ماذا يفعل الآن ذلك الموظف؟ وأين اختفى؟ هل ما زال داخل البناية يزود بعض الناس بأوراق صغيرة ستتحول لاحقاً إلى نقود؟ وهل يأخذ نصيبه من هذه الأوراق؟ خاصة أنه يعمل لدى التاجر الذي أمر له بالشيك بعد أن تفهم ظروفه السيئة.

مشى بعيداً.. مفتوناً بالشيك.. وقرر أن يركب تاكسي.

- «خذني إلى أقرب بنك».

- «أقرب بنك؟ تريد إنجيز⁽¹⁾ يعني».
- «ما مشكلة إنجيز.. لكن بسرعة».
- «إذا كان إنجيز.. ما أوصلك إلى بنك واحد بس.. أوصلك إلى ألف بنك».



- بعد مسافة نصف ساعة أوصله التاكسي إلى ساحة بنايات عالية يخترقها شارع طويل مزدحم بالسيارات. تعجب ونهر سائق التاكسي بسذاجة:
- «يا خي يكفي بنك واحد.. أنا بس أريد أصرف الشيك».
 - «يا رجل.. ادخل أي بنك من هذه البنوك واصرف الشيك».
 - «انزين.. كم الحساب؟».
 - «ريالين».

بعد ذهول قصير نتيجة وقع المبلغ على أذنيه نقد السائق بثاقل.. لإيمانه الشديد بقيمة الريالين.. لكنه سوف يستلم نقدًا تكفيه لأشهر، وسوف يشتري دفاتر وأقلامًا وأسرّة لأولاده، ولن يصلح السقف والباب والسور فقط.. بل سوف يقوم بتصليح جميع أبواب غرف البيت والحمام.. ويشتري أيضًا برميلاً جديداً للماء مصنوعاً من البلاستيك كي يكون بديلاً لذلك القديم الذي أكله الصدأ.. لم يكمل، إذ دخل أقرب بنك قادته إليه قدماءه. سلّم الشيك للرجل الجالس خلف جدار زجاجي به فتحة دائرية. نظر الرجل إليه باستغراب وقال:

(1) إشغال سيارة الأجرة لحساب الزبون.

- «هذا الشيك لازم يصرف من بنك آخر وستجده بالخوير».

اندهش وتسارعت دقات قلبه.. أول مرة يمسك فيها شيكاً.. كيف له أن يعرف أسماء البنوك.. أخذ الشيك.. وقبل أن يهيم بالرحيل قال له الرجل: «لازم تسرع.. البنوك تغلق بعد نصف ساعة». وعندما هم بالخروج اصطدم برجل ضخم جعله يلتف حول نفسه حتى سقط. ساعده الرجل الضخم على النهوض بعد أن بلع ضحكة في كرشه المتكور، تدارك الأمر رغم صداع تسلل فجأة إلى رأسه.. وصادف صعوبة في فتح الباب الضخم، إلا أن ذلك الرجل اتجه ناحيته وساعده في فتح الباب بعد أن أطلق ضحكته المكبوتة لتلفت انتباه جميع من كانوا في البنك.



قال سائق التاكسي: «ريالين». حرارة الشمس لسعت رقبتة وزادت من صداعه، أمسك الشيك جيداً واتجه ناحية البنك، صعقته المفاجأة حينما وجده يقع في أسفل البناية التي استلم منها الشيك، ضرب فخذ ساقه الأيمن كعادته حينما يغضب من نفسه، أرجع يده مبلولة بالعرق، ثم أمسك باب البنك الذي كان مغلقاً، انكمش سريعاً وأغمض عينيه، وغاص في دوامة حالكة الظلام.. ثم نهض وقال: «باكر.. من الصباح». فشل في أن يجد باص نقل، التعب تسلل إلى عظامه، تحول الشيك إلى طائر ينقر عقله، ثم تحول إلى بالون ينفجر ويمطره بالنقود.



في الصباح تناولت يده ريالين من جيبه، ابتلعها سائق التاكسي ومضى، هذه المرة مشى بخطوات وثيدة تجاه باب البنك، وبمجرد أن فتحه انبعث منه هواء

بارد، اتجه ناحية نافذة زجاجية خلفها فتاة جميلة، ناولها الشيك، ثم لسعه صوتها حينما قالت: «أعطني البطاقة الشخصية». ارتجف من فكرة نسيان البطاقة في البيت، لكنه استدرك سعادته حينما فتش عنها ووجدها مهروسة بين أوراق أخرى في جيبه، ناولها إياها، ثم طلبت منه أن يوقع على ظهر الشيك. احمرّ وجهه ووجد نفسه يقول لها: «لا أعرف.. أنا ما متعلم..». ندت عنها ابتسامة خجل.. وناولته على الفور صندوقًا صغيرًا به حبر أزرق، عرفه بسرعة. استقبل ابتسامة الفتاة بارتياح حينما ناولته ورقة نقدية بقيمة عشرة ريالات، انتظر معاودة الفتاة في أن تناوله باقي الأوراق النقدية، لكنها توقفت. جف حلقه ثم سألها: «وين الباقي؟». تحول وجهها إلى كتلة اندهاش وقالت له: «يا والدي.. ليس هناك باق.. هذا كل المبلغ المكتوب.. عشرة ريالات». تبادلت الفتاة الحيرة مع زميل لها وقالت له بصوت خافت: «تبا لهذا التاجر البخيل.. كثرت ضحاياها». تردد في تصديقها، وعمل جاهدًا على حبس دموعه في حدقتي عينيه.

الباب الزجاجي

طرق بابًا زجاجيًا.

تألمت يده الخشنة.

ارتعش قلبه قلقًا قبل أن يفتح الباب الثقيل.

امرأة أزاحت وجهها عن شاشة الحاسب الآلي واستنكرت الرائحة الكريهة التي فاحت بمجرد دخوله. تفحصت دشداشته وعمامته المهترئة المائلة للاصفرار. حسبته متسولاً مثل البقية الذين يأتون بروائحهم الكريهة لولا تأبطه أوراقًا بالية.. لذا، بسرعة توعدت بأن تعاقب حارس الشركة لأنه سمح بدخول هذا المتسول. لكنه بخجل طلب منها مقابلة المدير العام وأخبرها أنه جاء من طرف قريب له وذكر لها اسمه.. رغم شعوره بالخوف وتوقعه بعدم الموافقة على المقابلة إلا أنه لم يتوانَ عن رؤية صدرها النافر وفمها الأحمر وشعر رأسها الأشقر المتدفق كشلال ناعم على ظهرها. بعد أن سألت عن اسمه وتفحصت هيئته بدقة وأبدت امتعاضها الصريح سألته عن سبب الزيارة، فارتبك بشدة وقال لها متلعثمًا بأنه سبب خاص، زادت من امتعاضها وفتحت بابًا خشبيًا لم يأبه لضخامته وجماله ودخلت منه إلى غرفة مجهولة.

وحينما رجعت بابتسامة مكرة طلبت منه الانتظار قليلًا. لم يستغرب بداية لتذمرها الشديد فقد تعود ذلك عندما كان يعمل في إحدى الوزارات، ولكن ابتسامتها الغريبة تلك فاجأته وخففت من توتره، فربما المدير العام قدر صديقه

وها هو يعتني بأحد أقربائه. بعد برهة وصمت شاهدا تتناول زجاجة عطر ورشته في المكان فتناثر رائحة الياسمين، ثم ظهرت قطعة بيضاء من باب صغير وقفزت في حضنها. انتشى وجهها سعادة وكأنما القطعة أنقذتها من الغرق في بركة الامتعاض.

جلس على المقعد الجلدي وانشغل بالتحديق في المكان، ثم أخذ يسترق النظرات ناحية وجه المرأة الذي اعتبره عذبا، والقطعة الغريبة التي تعلق عنقها. كاد يجروء على الحلم بالنوم معها، لكنه تردد فقد تذكر مشاكله التي تسد مداخل أحلامه بجدران قوية.. يكفي أن يشاهد هذه الفتاة بطريقة عابرة كما شاهد الكثيرات من مثيلاتها.

تناولت الفتاة بشيء من النعومة والغنج كأسا من الماء البارد وشربت، ورغم عطشه الشديد لم يصرح لها عن رغبته في الماء. سقط نظره على سجادة صلاة وضعت بين كتابين في رف بالمكتبة التي بجانب طاولتها، كما لمح زجاجة عطر على رف آخر، ولكنه قرر أن يتجاهل كل شيء، ورسم لنفسه أملا في مقابلة المدير العام، فهو يعرف بأن احتمال تجاهله كبير ولكنه وضع احتمالا آخر أكثر تفاؤلا. حاول أن يلغي كل ما سمعه عن هذا المدير، من يعلم.. ربما كانت هناك نقطة بيضاء في قلبه تظهر هذا اليوم كظهور هذه القطعة.. ربما سيكون حالة خاصة بالنسبة له في هذا اليوم.

طال انتظاره لأكثر من ساعتين، كان يحرق فقط في الفتاة وتذمرها وطريقة ردها التمثيلي على المكالمات باللغة الإنجليزية ودخولها عبر ذلك الباب الخشبي وخروجها منه، وحضور أشخاص يتجاهلون ويضحكون معها

ويمسدون على رأس القطة وظهرها، ثم يُسمح لهم بالدخول من الباب الخشبي، لاحظ بأن ملابسهم أنيقة، و«المصر» الذي على رؤوسهم مرتب بشكل جيد، وآخرون لا يلبسونه ولكن شعر رؤوسهم مصفف بدقة ويلمع تحت ضوء المصابيح المشتعلة كما يلمع البلاط الذي يطؤه برجليه. يؤمل نفسه بعبور ذلك الباب الخشبي وأنه بعد لحظات سيكتشف ما خلفه وسيتوقع بأن مكتباً ضخماً هناك، وأثاثاً فاخراً، ونافذة تطل على منظر بديع. وسيتكلم مع المدير العام وسيستمع إليه وسيقدر موضوعه وسيلبي له طلبه. لكنه أغمض عينيه وتذكر قطرات المطر التي كانت تتصبب على رأسه وعينه حينما كان يحرق بصعوبة وحسرة وتوسل ناحية السماء ولا يجد معيناً. ويتذكر أنه يعوم في الفقر والمشاكل طوال حياته، ويتذكر أمه التي ماتت بين يديه، كان يبحث عن سيارة نقلها إلى المستشفى، وحينما رجع إليها وجدها فارقت الحياة، تذكر تجاعيدها الغاضبة وعينيها المنطفئتين، كان جبينها يلمع بشدة مثل قشرة ذهب رقيقة. كادت تسقط دمعة من عينيه لولا أنه تدارك مكان وجوده وجفل على أثر عطسة انطلقت بخفة من فم المنسقة. وفي لحظة خاطفة لمح قلادة ذهبية تغوص في نهديها وكانت تقفز ناحية صدرها بينما كانت القطة البيضاء تلحس كأس الماء. وجد نفسه يسبح في ذلك الماء البارد محاصراً بجدران زجاجية وفي لحظة قصيرة تشفط المنسقة جرعة ماء كان هو يتلوى داخلها حتى ذاب في سهاد عميق.



وبعد أربع ساعات من انتظاره شعرت المنسقة باحتقان وغصة في حلقها وكأن شوكة سدت منفذه فأطلقت سعالاً مدوياً جعل القطعة تهرب خائفة، ارتجف وانكسرت خيالاته إثر ارتطام صوت المنسقة ممزوجة بالسعال بأذنيه: «أنت.. المدير العام ارتبط باجتماع مفاجيء.. أعطنا رقم تلفونك وستصل بك لتحديد موعد». أثناء سماعه لكلامها كان قلبه يخفق بشدة حتى أيقن بأنها سمعت صوته. ارتبك بشدة واحمر وجهه وقال بصوت مخنوق: «ولكنني انتظرت طويلاً»، حدقت فيه بمكر وقالت: «قلت لك إنه مشغول في اجتماع آخر». نكس رأسه حزناً، ومشى مرتعشاً ناحية الباب بعد كل ذلك الانتظار. لكنه توقف فجأة. ثم تقدم ناحيتها ووجد نفسه في حيرة وتردد. أراد قول شيء ولكنه تردد وكبت شعوره. حدقت فيه باستغراب. تراجع، وهدوء فتح الباب الزجاجي الذي دخل منه.. ومضى حزيناً.

القطط الزجاجية

أدخل جميع البطاقات وبدون ترتيب في الخزانة المكسورة. أمسك كأس الماء المتشققة وارتشف منها. نفص غطاء السرير، وألقى جسده على الفراش. كان قلبه يخفق. اعتبر نفسه لا شيء، وأكد على ذلك وهز رأسه. حاول أن ينام لكنه لم يستطع. نهض مرتجفاً وقرر تجاهل موعد الغد ومحاولته السادسة والعشرين في البحث عن وظيفة، فكر: لماذا كل هذا الألم الآن؟ تأمل في حياته المعجونة بالقلق.. راجع نفسه وقال إنه لا جدوى من التفكير في الألم أو مصدره.. لا جدوى في التفكير فيه إذن.. حاول فعلاً أن يتجاهله.. وفي الوقت نفسه فكر في الحياة وأنها تمضي وهو يذوب فيها.. انفجر حزناً وفرحاً.. ما جدوى أن يتألم؟

استيقظ مبكراً. حمل أوراقه، كنزه الثمين، فهي التي ستقوده إلى الوظيفة المناسبة. تذكر أن وقت المقابلة ما يزال بعيداً. قرر المشي على الشاطئ قبل أن يركب المايكروباس ببضع ساعات، مشى على حجر صُفٍّ بعناية، على يمينه سجادة فضية مرصعة بسمك السردين اليابس، رائحتها جميلة، أجساد ووجوه تمشي باتجاهه وتتجاوزها، التقط كلمة وتذمر وضحكة حلوة من هنا وهناك، سجل في عقله تعابير الوجوه المختلفة، كل شخص يحمل هذيانه وأفكاره وهمومه، ليته يعرف ما يدور بخلد كل واحد منهم، لكنه يفكر: «ما الفائدة التي سأكسبها؟» التفت إلى ناحية جبال مسقط الشامخة، وأطلق سؤالاً

له رائحة البرودة: ماذا لو تحول فجأة اللون البني للجبال إلى لون الحليب؟ وضع أوراقه على مقعد يواجه البحر واتجه لمساعدة بعض الرجال في سحب قارب من عمق البحر إلى الشاطئ، وكان القارب مليئاً بسمك السردين الذي يتقلب في شبكة خضراء. بعد أن ساعدتهم اكتشفوا أنه غريب عليهم، فحاولوا إمساكه ورميه في البحر، وهو ليس له دراية بالسباحة، لأن أباه لا يعرف السباحة ولا الرماية. وتعجب لماذا حاولوا رميه في البحر رغم أنه قدم لهم المساعدة؟ أخذ يقاوم حتى نجح في الهرب. وبينما كان يركض سمعهم يضحكون بصوت عالٍ كأنهم دخلوا الجنة. بعد مسافة ليست بقليلة توقف واتجه برأسه ناحيتهم ولهائه يكاد يقتله، شاهدتهم يصطفون إلى جانب بعضهم البعض ويركعون ويسجدون في صباح له رائحة الخبث والسمك.



خرج من المايكروباص ونظر إلى البناية ذات الأدوار العشرة، وتأكد من العنوان في ورقة صغيرة ضمن أوراقه التي كان يحملها. حمله المصعد إلى الدور الرابع حيث الشركة صاحبة الإعلان عن الوظيفة. لم يجد لافتة تدل على الشركة، كل ما هناك ثلاثة أبواب مغلقة ومتجاورة، توقف قليلاً وسأل نفسه: «أي باب يخص الشركة؟» طرق الباب الأول فلم يجد استجابة، مديده وفتحه بهدوء وتفاعلاً بوجود مجموعة كبيرة من القطط الملونة تحديق فيه. هكذا دون أن يتوقع - ولا أي إنسان آخر يمكن أن يتوقع - يهبط بفتح باب غرفة للبحث عن شيء معين ويصعق بمشهد آخر.. هكذا دون مقدمات شاهد غرفة مملوءة بقطط صامتة وواجمة، لم يسمع صوتاً، كأنها دمي، بعضها جامد وبعضها الآخر يتحرك، لكنها لم تحاول الهروب من الباب، انتابته رعشة

سرعان ما تحولت إلى خوف، وبدون تفكير أغلق الباب بقوة وركض متجاهلاً المصعد إلى ناحية السلم وصادف امرأة جميلة تصعد السلم، لم يعباها رغم جمالها، ثم وجد نفسه في الطابق الأرضي وبعدها خارج البناية، ثم ابتعد قليلاً عنها ودخل إلى مقهى يقع مقابلها، جلس إلى طاولة كمن يستنجد بأي أحد ليهدئ من خفقان قلبه، وليريح قدميه المرتعشتين، لم يتمكن من سماع صوت النادل وهو يسأله عن طلبه، فقد تجمد للحظات. وحينما لاحظ النادل شروده انسحب من طاولته وذهب إلى أخرى. بدأ يحرق في البناية مستحضراً مشهد القطط، وتنبه إلى أنه نسي أوراقه هناك، وتذكر أن شهادته الجامعية الأصلية ضمن الأوراق، فكر إن كان ذلك المشهد مجرد خيال فقط، جاءه النادل مرة أخرى، حينها سأله على الفور: «أليست شركة المبادرات العالمية هناك في الطابق الرابع في هذه البناية» أجابه النادل على الفور وقال: «لا أعرف.. ربما.. ماذا تطلب؟». نكس رأسه وأحس بخيبة كبيرة.

مات أبوه قبل أن يفرح بدخوله الجامعة، وعندما تخرج في الجامعة ماتت أمه قبل أن تفرح بتخرجه. وأثناء الدراسة أحب فتاة جميلة، لكن أباهأ أرغمها على الزواج من ابن عمها فاخفتت من أمامه فجأة، واختفت أيامها الجميلة حينما كان يلتقي بها في أحد الفصول الدراسية بعد المحاضرات حيث كان يقات الحنان والابتسامات والغنج والصوت الناعم ونظرات دافئة من عيني ساحرتين، تلاشى الحب مثل غيمة كانت مملوءة بالمطر فأجهضته وانفجرت كالبالونة. كان كلما تذكر تلك الفتاة ضرب بيده على جبينه ندماً لأنه لم يحاول

يومًا أن يلمس صدرها واكتفى بلمس يديها وها هي اختفت وتخرج من الجامعة، وماتت أمه وأصبح وحيدًا.

اتجه إلى خزانة ملابس مكسورة الباب حيث فتش بين أكوام أوراق وكتب مغبرة، فانتشل بطاقات عديدة كتب فيها جميع مواعيد المقابلات بشأن الوظيفة في الأشهر الماضية، ووضعها أمامه مرتبة على الأرض كمن يريد أن يتهيأ للعب بالورق، كان عددها خمسًا وعشرين بطاقة جمعت خلال عام كامل وتوزعت معلوماتها بين قطاعات حكومية وخاصة، حلق إليها وضحك بتعب، كل تلك الهرولة والاستعدادات لم تُجدِ نفعًا، كل تلك المحاولات أصابها الفشل، كأنه يتخيلها شريطًا يمر أمامه في فيلم سينمائي، ويشعر بالتعب من التحديق المستمر فيها، حاول أن يحلل ويستنتج لكن التعب غرز رأسه، مشاهد طفولته تمر فجأة في رأسه، مشاهد بعيدة في بطن تاريخ مغبر، لكنه يبعدها عن رأسه بالطريقة التي اعتادها حينما يريد إبعاد فكرة أو مشهد من رأسه بأن يضرب بيده على جبينه بقوة لاعتقاده بأن لسعة الألم تلك كافية أن تهشم كل شيء. قام وشاهد نفسه في المرآة.. ضحك وغمز وصفر، ثم اكتسب، اكتشف أنه لم يتقن عملية التمثيل، اكتشف أنه ضعيف.. ضعيف لدرجة أن الأشياء البغيضة تغلبه بسهولة.. اكتشف أن له طبيعة هشة مثل رقة القوارير.. نفحة هواء تستطيع أن تسقطها وتنكسر.

قرر أن يصعد مرة أخرى إلى تلك البناية أقلها لي جلب أوراقه التي نسيها هناك وربما سيتأكد من وجود الشركة وأن ذلك المشهد ليس إلا محض تهيؤات. خرج من المقهى وترك النادل في دهشته، ولاحظ أنه لا يوجد أحد في

مدخل البناية والمصعد وحيد هناك، دخل من جديد إلى المصعد وصعد إلى الطابق الرابع ليجد أن الأبواب الثلاثة ما زالت مغلقة لكن أوراقه لم تكن هناك، حلق في الممر لكنه لم يجد شيئاً. كان الممر غارقاً في هدوء مخيف، أخذ يكلم نفسه «أليس من أحد هنا؟ ربما أحدهم أخذ أوراقي وستدخل تلقائياً ضمن المقابلات». قرر أن يفتح الباب الثاني، ومد يده وفتحه فوجد قطعاً زجاجية تحلق إليه بعيون كريستالية ملونة، كان عددها كبيراً، لكنها هذه المرة لا تتحرك، ظل ممسكاً بمقبض الباب، كان واجماً يحلق ويقرأ الغرفة ذات الجدران البيضاء، ولم يجد غير ما شاهده، أغلق الباب وكان خوفه هذه المرة أقل بكثير من السابق. بحث من جديد عن أوراقه في الممر فلم يجدها. قرر أن يفتح الباب الثالث. تردد في بداية الأمر، فكر أن يرحل وألاً يعود من جديد إلى هنا، سينزل ويجلس في المقهى ويطلب شيئاً مع الحليب ويمحو من ذاكرته هذا اليوم. لكنه تذكر شهادته الأصلية وأنها هي منقذه من حالة البطالة هذه، ماذا يفعل؟ سيفتح الباب الثالث، وربما سيجد لجنة المقابلة حسب الإعلان الصادر. مد يده وفتح الباب فلم يجد هذه المرة الققط، وإنما وجد أبواباً زجاجية معتمدة. خفق قلبه من جديد وتذكر بأن الوقت يمضي وأنه لم يحصل على وظيفة حتى الآن، والأبواب تتكاثر، والققط في الغرفتين المجاورتين لا يعرف سرها. وقرر ألا يعود إلى بطاقته، وأنه سوف يهشم هذه الغرف، وسيظل يبحث عن أوراقه مهما كلفه ذلك من ثمن.

الساق

مشاكسة

كان بيت منصور يتلصص بخجل بين البيوت، بابه حديدي مصداً، ونوافذه قليلة، واحدة منها صغيرة ومغبرة جداً، ومن خلال زجاجها تتضح ساق ترتفع وتنخفض، وكأن صاحبها يمارس الرياضة. كانت ساقاه قويتين تدكان الصخور وتحفران الرمل، ولكن هذه الليلة وبعد أن حل الظلام انتصبت ساقه اليمنى إلى الأمام دون إرادته وارتدت مرة أخرى وصفعت الأرض على وجهها، حدث هذا أمام دهشة زوجته التي كانت تنهياً للنوم، في الوهلة الأولى ظنت بأنها مجرد مزحة خرجت من رجل تقدم كثيراً في العمر، لم تشعر برغبة في الضحك لأنها تعرف شخصيته جيداً فهو ليس من النوع الذي يمزح هكذا وخاصة بأنها أخيراً لاحظت عليه أعراضاً غريبة كالشكوى من جفاف فمه وصدور رائحة كريهة منه، إضافة إلى القلق والتوتر اللذين يشعان منه كلما فكر في أمر ما.

حينما دخل عليها الغرفة حاول أن يدّعي الشموخ والقوة كسابق عهده، لكنه بمجرد أن بدأ في سؤالها إن كانت تريد النوم باكراً حتى ارتفعت ساقه عالياً وارتدت. خفق قلبه وشعر بخوف وجلس على البساط المفروش إلى جانب السرير. نهضت زوجته بسرعة وسألته عن هذه الحركة، بدا عليه الإعياء وتدفقت خيوط العرق من رأسه. كانت حركة الساق تتكرر بين آونة وأخرى،

توجهت إليه زوجته وحضنته، واقترحت عليه أن يذهب إلى المستشفى، لكن عاداته يحب العناد ويرفض معظم طلباتها، قال لها إنه سيكون بخير في صباح الغد، وأمرها بأن لا تخبر أولاده حتى يتبين حقيقة هذه الساق، ثم طلب منها أن تربط ساقه في السرير حتى تمنعها من التحرك، وفعلت ذلك بحزن كبير، فالساق تتمرد عليه بعد خمسة وستين عامًا من العمل المضني، ربطها الآن حتى لا توجهه بتمرداها القاسي.

ونام على الأرض بجانب السرير. كان نومه متقطعاً، وساقه تحاول النهوض لكن دون جدوى. وعندما حضرت الشمس ولونت بيته بضوئها كانت الساق توقفت عن محاولة الإرتفاع. فكت زوجته الرباط عنها. قال لها بحزن: «لن أذهب اليوم إلى الجبل.. سأظل في البيت».

المشي العنيد

كانت ساقه تتمتعان بالصلابة، تناوشان الصخور، وقبل أن تقوم الكائنات الحية وغير الحية بغلي النفط في الآبار عمل مراسلاً لدى أحد التجار المتغطرسين، وبعد أن تحرر من غطرسه التاجر عمل باحثاً عن العسل في بطون الجبال ليبيعه في السوق بثمان لا بأس به ليملاً أفواه عائلته ولو بقليل من الخبز والأرز والمرق.

في أيام شبابه مشى مسافات وأياماً طوالاً، ولأنه لم تكن توجد سيارات كثيرة في ذاك الوقت مشى وهرول وركض لينجز مهمة رسمية أمره بها التاجر.

قطع جبلاً وودياناً وقفاراً، تجاهل ركوب الحمار وسيلة النقل المتشيرة والمعروفة في ذلك الوقت. اعتمد على رجليه القويتين وفكر بأنه إذا اتخذ من الحمار وسيلة نقل فإنه لن يصل بالسرعة التي يريدها. لذلك يبدأ بالمشي البطيء حاملاً معه الرسالة أو الأمانة كما يحلو له تسميتها، وشيئاً فشيئاً يبدأ في الهرولة وبعدها السرعة التي يدك بها الصخور والحشرات وأحراش الجبال، ولا يتوقف إلا لشرب الماء من القرية، وأثناء مشيه وعدوه كان ينادي الجبال ويقول لها: «أيتها الجبال أرسلني لي امرأة». كان يحب سماع صدى صوته الجمهوري يتردد بين الجبال. لكن الجبال لا تلبي طلبه، فيتجه إلى السماء وينادي بالطلب نفسه، لكن السماء لا تستجيب له، وكأنها تقول له امض في طريقك فهو أفضل من التوقف وأخذ لذة عابرة أمام أعين الجبال، لكنه لا يحزن ولا يكل فرمبا سيصادف يوماً في طريقه ما يريد رغمًا عن التعب وصلف السماء، ومرة تفاجأ بأفعى تقفز أمامه من أحد أفواه الجبال وسقطت أمام قدميه، وبدون أن يقف داسها ليفصل رأسها عن جسدها، هكذا وكان شيئاً لم يحدث، وحينما يصل وجهته تنفرج أساريه وينجز مهمته بباليغ السرعة والدقة، ويسلم الأمانة ويشعر بارتياح وانتصار ورغبة أكثر في اللذة حتى وإن كانت متخيلة، ويستريح قليلاً وتتم ضيافته ببعض التمر والقهوة، وفي حالات نادرة يعطونه قليلاً من حليب الماعز الذي ما إن يبدأ في شربه حتى يتخيل نهدين يتلاصقان، وحلماتهما تتحدان لتشكلا حلمة واحدة كبيرة تدخل في فمه وتبدأ في در الحليب.

وبعد أن ينتهي من المهمة يرجع إلى المدينة. يعود إلى البيت الذي يتخذ من بابه شبحاً أمام الظلام. ويعرف قبلاً بأنه سيجد سكناً رابضاً أمام الباب،

وصوت زوجته داخل البيت. يدخل عليها كصقر جائع عاد من السفر. تسمعه ويسلم عليها ويهزها صوته وتشتعل رغبة عارمة في احتضانه، لكنه لا يقف عندها بل يدخل مباشرة إلى الغرفة بدون توقف، ينتظرها تطل عليه وتهديه منظر شعرها الأسود الناعم الذي يداعب مؤخرتها الكبيرة، ثم يبتهج معها وكأنه يطوف بها في جبال وأفلاج مجهولة لم يعرفها إنسان إلا هو، ويذهبان في مخابىء مظلمة لها رائحة تراب مبلل بالماء. وتهطل له السماء بالكثير من الأولاد يملؤون بيته الصغير جدًا، ليعرف في ظلام الليالي الحالكة بأن أحدهم يترصده وهو يحضن زوجته. كما يعرف بأن الأصوات تتسرب من خلال الجدران بسهولة، تنتشر مع الهواء وتغوص في الأذان مثل أسهم مليئة بالأخبار، لذلك فالمدينة تكاد تخلو من الأسرار، عدا التي تقال بالإشارات، وهذه ممكن معرفتها أيضًا إن صعد أحدهم السطح أو صنع ثقبًا صغيرًا في الجدار، ومن خلاله يمرر نظرات الكشف. وبعد أن ينتهي من مهمة اللذة يتجه ناحية النافذة، يفتحها ويحدق في تلاصق الجدران، ويتذكر بيوت قريته وكيف كانت متباعدة عن بعضها البعض تحيط بها أشجار ونخيل، ويتنهد بعمق ويفكر بأن أي شخص هنا في هذا المكان يريد رؤية ما يحدث لجاره، ما عليه سوى أن يمتطي سطح بيته، ومن ذلك العلو يقرأ حياة جاره، ويعتمد هذا على مدى ارتفاع البيت، إذ أن أقل البيوت ارتفاعًا أكثرها انكشافًا وافتضاحًا للبيوت الأخرى، تتطاير أعين كثيرة لتكبر الأشياء الصغيرة مئات المرات. اهتز جسده لهذه الأفكار، تحسس عضلات قدميه، وتذكر بضرورة الاستحمام والتطهر حتى لا يفقد صلاة الفجر، وحتى لا يحدث كتلك الليلة، بعد أن مارس الحب مع زوجته لم يستطع أن يستحم، فقد غلبه النوم، وبعد أن سمع أذان الفجر نسي أنه

لم يستحم وتذكر فقط وهو واقف لتأدية صلاة الجماعة، وعندئذ شعر بأن الجميع ينظرون له وبأنهم كشفوا فعلته تلك وسأل نفسه إن صدرت منه رائحة ما كشفت سره؟ ظل متوجسًا وحزينًا وخجلًا.

فتاة الصحراء

حل الليل وكان منصور داخل الغرفة مع زوجته في انتظار الساق الراغبة في الطيران، وفعلاً تحركت إلى أعلى ورجعت إلى الأرض مرة أخرى، ألقى بجسده على السرير وكاد يجهش في البكاء لولا أنه تذكر مغامراته مع الجبال والحيوانات والظلام. لم يعرف ماذا يفعل بها، هل سيربطها من جديد؟ ولماذا تتحرك في الليل فقط؟ بعدها لم يستطع التفكير.. طلب من زوجته أن تربط الساق مرة أخرى هذه الليلة وتخرج وتدعه وحده يفكر. جاءت زوجته بقماشة وربطت بها قدمه المشاكسة في عمود السرير وخرجت صاغرة محاولة إخفاء دموعها. حلق في السقف المتشقق والباهت اللون، تذكر فجأة راعية الأغنام التي صادفها في إحدى رحلاته. وسأل نفسه «هل هي السبب؟» حفر في ذاكرته وتنهَّد بحسرة وقال: «ما أجمل تلك اللحظة».

في ذلك اليوم كان يمشي في الصحراء التي طلب منها كعاداته وبصوت عالٍ إرسال امرأة، وبعد نصف ساعة من المشي شاهد شيئاً يمشي وراءه سرب من الأغنام، وكلما تقدم واتضح هيئته كان قلبه يخفق حباً وأمنية، أرْجُلُ هو أم امرأة؟ وكأن المشهد تحول إلى لحن موسيقي يبدأ بنغمات هادئة تحقنه بلذة الترقب، ويزداد صخبها شيئاً فشيئاً حتى تكتمل جميع مقاطع اللحن ليشعر بالرعشة واللذة الكبرى.

هكذا كان الشبح يتقدم بتؤدة.. وشيئاً فشيئاً تتضح ملامحه.. ثم يستحيل إلى فتاة لا يظهر من رأسها المغطى بالقماش الأسود سوى عينين واسعتين ويدين بيضاوين ناعمتين. تدفق الدم إلى رأسه وتمتم بشكر إلى الصحراء، وقرر ألا يترك هذه الفرصة من يده حتى يستغلها فهي أمنيته الوحيدة التي ينتظرها أثناء مشيه قاطعاً الجبال والصحراء تحت الشمس تارة وتحت القمر تارة أخرى. حينما اقتربت الفتاة سلم عليها وقال: «السلام عليكم». ردت عليه وسمع صوتها المغناج وقالت: «وعليكم السلام». وبلهفة سألتها بينما كان يشاهد جسدها وسط صحراء لا يوجد بها سواه وسواها والأغنام وبعض الأشجار الصغيرة المتفرقة هنا وهناك: «هل عندك ماء للشرب؟». وبدون تردد قالت له: «نعم عندي». وناولته قربتها الباردة، وبدأ يلامس فوهة القربة بفمه ليشعر بأنه يلامس فم الفتاة، وشرب بلذة معجونة بسخونة الصحراء. ثم رد لها القربة وأخذتها ومشت باتجاه الشجرة وجلست تحتها لتبرد بظلالها. تبعها دون تردد وسألتها: «من أين أنت؟». قالت: «من القرية القريبة من هنا.. وأنت من أين؟ وإلى أين؟». أجابها بينما كان يحرق بشهوة إلى عينيها.

طرق الباب قطع خيط ذاكرته، فقد كانت زوجته تنادي عليه وتقول: «منصور.. هل أنت بخير؟». رد عليها بسرعة لأنه يريد رتق الخيط المقطوع ليواصل التذكر. قال لها: «نعم أنا بخير.. دعيني الآن». واختفى صوت زوجته. رجع إلى الفتاة. قفز بذاكرته إلى المشهد الذي أعجبت فيه بساقيه وبدأت تمصهما بلذة غريبة ولمدة ليست بقليلة. وبعد أن رحلت عنه مع أغنامها وذابت في رمال الصحراء جلس مدة طويلة لا يقدر فيها على حراك ساقيه القويتين حتى استعاد قوتهما وأكمل مشيه. فكر إن كانت هي السبب في ما هو

عليه الآن؟ ولماذا بعد كل تلك السنوات وذلك اللقاء العابر تريد قدمه أن تستعيد فم الفتاة الذي كان يلتهم ساقه من الفخذ إلى قاع القدم، وحينما سألها إن كانت ساقه تعجبها؟ ردت وقالت: «لم أر ساقاً مثلها من قبل». كلما تفحصت جزءاً منها كانت كأنها تترك عصير أنوثتها يختلط بدمه ليتدفق إلى رأسه، وينشر طعمًا غريبًا لم يتذوق مثله قط من قبل. فتاة في بطن الصحراء تظهر من السراب، وتعطيه حبًا عابرًا وتختفي بعد ذلك وإلى الأبد، وكلما مر في أزمنة لاحقة بذلك المكان لم يكن يجدها ولا يجد أثرًا لها، مرة وجد أغنامًا تعدو بدون راعٍ أو راعية.. تذكرها وحاول أن يتبع الأغنام حتى دخلت قرية صغيرة بدت من بعيد وكأنها مهجورة وأشجارها ذابلة. رجع حيث كان دون أن يدخل القرية.

سم المسمار

قرر أن يفك الرباط المشؤوم من ساقه، حينها ارتفعت وسقطت من جديد، كانت دموعه تحاول أن تسقط لكنه يمنعها، ويشعر بأن دم الجبال ما زال مختلطًا بدمه، ترتفع ساقه ويتشر معها خوف كبير. حتى الآن لم يفش هذا السر لأحد، أولاده لا يعرفون شيئًا عن هذه الساق المتحركة وكأنها طائر مكسور يحاول أن يطير ولكنه يقع مرتدًا إلى الأرض، يتخيل كيف سيقول لهم وما ردة فعلهم، فقرر ألا يخبر أحدًا حتى يرى الغد، فربما سيتحسن وضعها، تذكر المسمار. أحس بالـم. فحينما تقاعد من عمله في مقر التاجر امتهن اصطيد بيوت النحل من أحضان الجبال، ليحصل على العسل الجبلي ويبيعه، وفي

مرة، وبينما كان يهرول سعيًا وراء العسل داست قدمه على مسمار حديدي طويل كان منغرزا في لوح مرمي في أحد السيوح، داسه بكل قوته فدخل من تحت باطن قدمه وخرج من الناحية الأخرى، بدون تردد تجاهل الألم ونزعه من مكانه وغطاه بالرمل وعاد إلى البيت. سأل إن كان ذلك هو السبب؟ أصبح لا يعرف كيف يفكر، صرخ على زوجته فأئت مذعورة، ورأت أنه فك رباط الساق التي كانت هادئة. لكنه قال لها: «اربطيها من جديد.. أريد أن أنام.. أخاف أن تعود من جديد».

صاحب المزرعة

استيقظ فجأة ووجد ساقه ما زالت مريوطة. حاولت أن ترتفع بقوة لكن الحبل منعها، وكأنه سمع ضحكة صاحب المزرعة التي لن ينساها أبداً. وتذكر أنه هو سبب رحيله مع أولاده من القرية إلى الأبد. وكان آخر من قبله هو سعود البیدار، إذ زاره في بيته الصغير لكي يطمئن عليه لأنه ما زال يحفظ له جميلاً حينما أنقذه من الغرق في الوادي.

صاحب المزرعة يطلق ضحكة رنانة، أسنانه عندما يضحك كأنها تتمدد وتتحول إلى أنياب لتخرج وتنغرز في عنق منصور، والآن تنكشف القصة من جديد وتخرج من ثقب الزمن، وشاهد نفسه عندما وصل إلى بيته ووجد صاحب المزرعة ينتظره أمام الباب. كان منصور متعباً بسبب رحلة شاقة واعتبر الرجل ضيفاً ثقيلاً، كما تذكر أنه لا يمتلك شيئاً في ذلك اليوم لضيافته، بينما الضيف يمتلك مزرعة كبيرة لا تبعد كثيراً عن بيت منصور. رحب منصور

بالضيف وفي الوقت نفسه بدأ القلق يساوره. أدخله السبلة وجلس معه وأخذ «علومه وأخباره»، ثم لاحظ له فكرة واستأذنه قليلاً ودخل البيت. وجلس يفكر في هذه الورطة التي حلت به حيث جاءه هذا الضيف ولا يوجد لديه ما يقدمه لأنه كان في رحلة طويلة وكانت قدماء ما زالتا ساختين من أثر المشي الطويل. بعدها كان لا بد أن يترك الرجل في السبلة لمدة ليست بالقصيرة وخرج، ليعود ببعض الفواكه المتنوعة وكمية لا بأس بها من الرطب. دخل على الرجل الذي بدا عليه الملل والاستغراب من تركه وحيداً في السبلة. دخل عليه بصينية الفواكه ووضعها أمامه واعتذر منه على التأخير. ضحك الرجل الضيف ولم يُبدِ استياءه وبدأ يأكل من الفواكه كما ضيفه منصور. وبعد أن رجع الرجل إلى مزرعته ودخلها، لاحظ أن ثمة شخصاً دخل إليها، وقطف منها بعض الفواكه، انتابته نوبة ضحك صاخبة لأيام وأخذ يحكي القصة للجميع، فانتشرت الحكاية في كل أرجاء القرية عن منصور الذي ضيف صاحب المزرعة من مزرعته، وهذه الحكاية أرغمت منصوراً على الرحيل من القرية إلى الأبد، وكان آخر شخص رآه هو سعود البيدار الذي جاءه ليودعه.

مصايح مطفأة

كان قسم الأعصاب والجراحة بالمستشفى هادئاً، معظم المرضى في نوم عميق، أما هو فقد انتابته حسرة ألحقها ببكاء، نظر إلى المصايح المطفأة التي مسحت الضوء الذي كان ينشر بوارق الأمل، بحث عن ضوء ليعيده إلى الطرق الوعرة وأوكار النحل وخلاياه، فلم يجد إلا أسرةً بيضاء تغليها أجساد

واهنة، ازداد نشيجه ليشرخ الهدوء وعممة الليل، تذكر بأن الصباح سيأتي حاملاً معه مرضى يحدثونه عن آلامهم وأسبابها، وأطباء لا يتكلمون كثيراً، وممرضات لا يستطيع النظر في عيونهن. ويسقط نفسه في مشاعره المتناقضة المشدودة بسبب الألم ويتمتم أمنيته: «ليت الصباح لا يأتي..».

البيوت الحزينة

رأس ينحني تحت تدفق بطيء للماء، ثم يرتفع.. ثم ينحني مرة أخرى. الماء يغسل شعر الرأس، ثم يتجه إلى ثقب مظلم وضيق جدًا. يذهب بعيدًا. يدغدغ جسد البيت بصوته وبرودته. وثمة عينان تطلان من ذلك الرأس وتكشفان بيوت النمل في جدار الحمام. على الفور تأتي كف يد وتقذف بكمية من الماء ليدمر البيوت.. ليدمر عائلة من النمل.. وهكذا تحول الماء إلى أداة قتل. كانت مجرد عائلة مسكينة من النمل. ثم تنشق من ذاك الجسد قدم وتدهس صرصارًا كان على عجلة من أمره.

أغلق باب الحمام. فانتشر صرير حاد سبب له نوعًا من الغثيان والغضب. أحس بوجود خلل في ذهنه. هز رأسه بقوة لعل شيئًا يسقط منه لكن دون جدوى، هو يعرف السبب ولا يريد أن يعترف به. استرخى على السرير، وكأنه يريد أن يطرد القلق بالنوم. طرق أحدهم الباب فجفل كالعادة لكرهه للأصوات الصاخبة، لكنه عرف أن هذه طرقات أخيه، لم يقم لفتح الباب ولكن الطارق فتحه، وألقى عليه جملة واحدة ورحل، جملة واحدة فجرت كيانه وجعلته خائفًا.

أخذت الجملة تتردد في رأسه مثل المطرقة: «جارنا صاحب السيارة الجديدة مات في حادث سير». ارتجفت أوصاله، وارتعشت عواطفه، وانزوى في ركن مظلم من الغرفة، وتقرفص، أحس بمغص شديد يقطع

بطنه، أخذ يمسد على بطنه محاولاً معالجة الألم. انسكب عليه حزن غريب وكأنما يعيش وحيداً في هذا العالم، تذكر أنه لا يعرف جاره هذا معرفة جيدة وقليلًا ما تكلم معه، حتى إنه ليس صديقاً لأبيه، وأنه صاحب سيارة جديدة، ولكن لماذا تأثر لسماعه خبر موته؟ فقط تذكر ابتسامته وفرحته حينما كان يقود سيارته الجديدة، وضحكات زوجته وأولاده وهم يركبونها. بالأمس فقط شاهده يرش سيارته بالماء وينظفها ويلمعها، واليوم يسمع أن هذا الرجل مات، ومعنى ذلك أنه انطفأ من الحياة مثل ضوء شمعة كان متوهجاً، وأنه لا هو، ولا زوجته ولا أولاده ولا بقية أهله يقدر أن يتحدثوا ويضحكوا معه بعد هذا اليوم.

في الأسبوع التالي طُرق الباب فأصابه القلق. لم يفتح. ولكن أباه فتحه بقوة، وألقى عليه جملة واحدة ملغمة ورحل، جملة واحدة تكونت من كلمات حارقة كسرت هواجسه.. «قوم.. خلا الدفن.. ود عمك صالح مات في حادث سير». أخذت الجملة تحفر رأسه حتى خيل إليه بأن عينيه هربت من جفنيه والتصقتا بالجدار. ابن عمه ليس صديقاً له، ولم يتكلم معه كثيراً، لكن هناك أيام لطيفة ما زالت تبهر في ذاكرته عن أيام المدرسة، فحينما حاول أحد الطلبة الأكبر سناً منهما في المدرسة من الصفوف العليا أن يهيم بضربه، أمسك ابن عمه حجراً وقذفه باتجاه رأس الولد وهرب. كما أن هناك حادثة لا ينساها حينما نسي مرة نقوده في البيت وأثناء الاستراحة في المدرسة جلس حزينا، لكن ابن عمه أنقذه وأعطاه نصف نقوده. لا يعرف لماذا بعد أن خرجا من عالم

المدرسة ودخلا إلى عالم المراهقة لم يكن هناك اتصال بينهما، سوى لقاؤتهما القصيرة في المناسبات الاجتماعية كالأعياد والأحزان. وها هو يختفي فجأة دون أن يشكره حتى على مواقف الطفولة تلك، شعر بحزن كبير. وشاهد الشارع والسيارة التي كان يقودها وحشين ضارين يفتتان لحماً ابن عمه.

في اليوم الأول من الأسبوع التالي طُرق الباب فارتعب، لم يرغب في النهوض، ولكن أخته فتحت الباب عنوة، وألقت عليه جملة واحدة وخرجت، جملة واحدة معجونة بكلمات حادة كالسكاكين زعزعت بنيان هدوئه: «أخوي.. قوم أرجوك.. رحمة صديقة أمي ماتت مع زوجها في حادث سير». أخذت هذه الجملة تغرز معانيها الحادة في قلبه لينفطر حزناً، وأرجع رأسه إلى الوسادة بقوة وقال بصوت مرتبك وعالٍ: «طيب.. ويش تريدوني أسوي؟. ما بيدي شيء.. الشوارع حقيرة.. أكلتهم.. ونحن نتألم.. مو أسوي.. ماذا أفعل». رحمة صديقة أمه لم ير وجهها قط، فعندما يذهب ليفتح الباب يجد امرأة مغطاة بالسواد تسأل عن أمه، يرتبك ويخاف أن يكون قد رأى شيئاً ليس له الحق في رؤيته، وبشيء من الارتباك يطلب منها الدخول ويرحل من أمامها بسرعة، ويدخل البيت لينادي أمه، وهي تظل واقفة أمام الباب حتى تأتي أمه بنفسها وتدخلها. لقد ماتت رحمة، ومات زوجها في نفس الحادث ونفس اليوم. رغم أنه لم ير وجهها إلا أنه يتذكر الطعم الرائع لأكلاتها التي كانت تحرص على أن تُمدَّ أمه بشيء منها وخاصة في شهر رمضان، كانت طبخة ماهرة حقاً وصديقة ودية لأمه، أما زوجها فقد شاهده مرات قليلة، حتى أنه لا

يتذكر أن أباه له علاقة به، فقط يسلم عليه إن وجدته في مكان ما. يعرف الآن أن أمه سيتغير حالها فصدقتها وجارتها رحلت عنها وسيكون بيتها محاطاً بطيور الحزن، ولم يستطع أن يتخيل ردة فعل أبنائهما حينما يعلمون باختفاء أمهم وأبيهم في لحظة واحدة. انفطر قلبه ألماً.



في الشهر التالي سمع طرق الباب، ارتجف، تجاهل كل شيء، ولكن أخاه الأصغر فتحه، وألقى عليه الخبر وخرج، كان الخبر يتكون من كلمات حارقة: «يا سالم قوم قوم.. جميع أسرة جارنا محمد ماتت في حادث سير». أخذ الخبر رأسه وضرب به الجدار. حصد الرأس كمية كبيرة من الصداق، انتابه دوار حتى سقط على أرض الغرفة الصلبة متألماً، ثم صرخ بقوة: «هذا يكفي.. هذا يكفي». ماذا سوف يقول عن أسرة تموت كلها في وقت واحد؟ فالذي يعرفه أنهم خرجوا إلى رحلة يحملون معهم سعادة متواضعة، الأب والأم وولدان وبتان لن يعودوا إلى بيتهم مرة أخرى، بالأمس كان البيت شعلة حياة، صراخ أطفال ودفء عائلي لا يوصف بالأمل والفرحة، كان يشاهد الأب أثناء عمله على تشييد بيته نشيطاً في بعض الأحيان ومتعباً في أحيان كثيرة. ومرة قبل أن يتقل مع أولاده ليسكن البيت، وذلك قبل سنة شاهده يأخذ رئيس العمال بالأحضان لأنه أنهى البناء في مرحلة قياسية.



في تلك الليلة لم يستطع أن ينام، أحس بأن جبينه ينز عرقاً رغم هدير جهاز التكييف، عبرت أمامه صور أبيه وأمه وإخوته وأخواته، اختلطت الأسئلة في

رأسه واستحالت إلى ألم في صدره. قام وأطفأ جهاز التكييف وفتح النافذة ليستنشق الهواء، وقال في نفسه إن هؤلاء انطفؤوا وانتهوا، سمع أصواتاً غريبة، وكان أناساً غيره في الغرفة محتجون على إطفائه لجهاز التكييف. عاد وفتحته من جديد. وحاول أن ينام، ثم أخذ يتلو بعض الأدعية ومنها أن يجعله من الأموات قبل جميع أهله وأن لا يكون موته في حادث سير، وأخذ يقرأ آية الكرسي لعله يقدر أن يطرد هذا الفزع، وهذا الأرق، لكن دون جدوى. وكرر هذه الأدعية والقراءة كل ليلة، لكنه لم ينم. فقط يشاهد بيوتاً حزينة تعبر أمامه، ولليوت أعين تذرف دموعاً. ثم تتحول البيوت إلى فقاعات تتلاشى وتظل الشوارع تتلوى وحدها بدون أحد.

الجزء الثالث

يوم واحد يتلأأ في عينيَّ

على ما يبدو كانت سقطة مدوية، هناك رأس تحول إلى مصباح يضيء ويظلم، يضيء على مشاهد وكأنها خيالية في عالم سينمائي، ويظلم على سواد وكأنه نوم قصير. كأن زوجتي تصرخ، كأن هناك مطراً يهطل بغزارة، هل هذه آلام في الرأس؟ لماذا الأصوات خافتة هكذا؟ والشوارع مبلولة، وأسئلة تتطاير من فمي مثل ريش نتف من حمامة ضربت على رأسها.

قبل تلك الليلة وقبل أن أنام داهمني شعور بأن هناك مؤامرة على شكل طائر أسطوري يبحث عني لينقر الجزء الخاص بالتفكير في رأسي محاولاً تفتيته قطعة قطعة ليصبح لا شيء. على ما يبدو أنه يبحث عن ذلك الشيء المتواضع في رأسي منذ زمن، لكنني صمدت وحملت نفسي بقوة من على السرير والتصقت بالسقف ممسكاً رأسي بقوة خوفاً من أن يخترقه الطائر، أي أن وجهي التصق بالإسمنت المصبوغ باللون الأبيض، هكذا بدون مبالغة حدث هذا لي ورأيت بياضاً عجيباً جعل مشاهد مختلفة من حياتي تمر أمامي، بعدها مللت الالتصاق وأسقطت جسدي بسرعة ناحية السرير، محاولاً أن أنام ولكنني فشلت، ومرة أخرى يأتي الطائر الأسطوري محاولاً إحداث الثقب في رأسي وتحطيم لؤلؤة تفكيري الثمينة. هذه المرة لم أعاود الالتصاق بالسقف ولكنني هربت من الغرفة تاركاً زوجتي وابني نائمين، والطائر بمنقاره الحاد يطاردني ويطلق صوتاً مزعجاً، توجهت إلى سطح البيت وحدقت ناحية

سحب كثيفة من الشر حتى ظهرت الشمس، واختفى الطائر في ظلام الليل. بعد ذلك سمعت صوت زوجتي تقول:

«يا عمري هيا معي..»

التفت ناحيتها وشعرت بشيء من الفرح لسماع صوتها الرقيق ولكنني رأيتها شاحبة وكأنها هي الأخرى لم تنم ليلة البارحة.. عاودت الكلام وقالت: «هيا.. لتتقدم أكثر تجاه الدخان.. لا.. لا تلمس تلك الصخرة..»

وبما أنه لا توجد صخرة ولا دخان تبين لي أنها ما زالت نائمة.. ثم تحول كلامها إلى منولوج غامض:

«هيا نواصل السير.. لا عليك من الدخان الذي ينفث روحه في خياشيمنا.. لا عليك من الحفر التي تتسع تحت أقدامنا.. حاذر.. حاذر من تلك الحفر العميقة.. ابتعد عنها. لماذا توقفت؟ هل أنت خائف؟ إن كنت لا تستطيع أن تواصل فسوف أكمل المسيرة وحدي، واجلس أنت هنا كي تلعب بهذه المياه الراكدة التي لن تستطيع أن تواصل العبث بها، وسوف تلاحظ أنها لوثت يديك، وربما تمرضك».

كنت مبهوراً من كلامها، وكأنني كنت معها في مسرحية.. حاولت أن أمسك يدها.. لكنها عاودت الحديث:

«وإذن.. أَلن تأتي؟ هكذا إذن.. يبدو أنك لن تواصل معي.. أنت تخاف الدخان والحفر.. أنت خائف.. حسناً.. سوف أتحرك وحدي.. لن أخاف مثلك.. ولكن يجب أن تبقى هنا تنتظري حتى أعود.. لماذا لا تتكلم؟.. لأنك

جميل وطيب وهادى.. لا تبتسم لي هكذا.. إنها ليست مجاملة.. هيا دع عنك الخوف ورافقني في رحلتي».

وبعدها صمتت لفترة قصيرة، لم أستطع الكلام، تذكرت طائر المؤامرة وانتابني رعشة سببت لي تعباً شديداً، ثم حضر صوتها من جديد ورجعت إلى نشاطي الذهني، وأكملت:

«وهكذا يا عمري.. ظللنا نمشي ونمشي والدخان لم ينجح في تنويمنا.. ولم تنجح تلك الحفر في اصطيانا. هل تريد أن تبدي ملاحظة حول ما دار في رحلتنا؟ نعم.. أعرف هذه الإيماءة.. أعرفها جيداً.. حفظتها.. وحفظت هذه الحركة التي تؤديها بيدك.. أعرف أنك استمتعت بالإنصات إلى خرافاتي.. وأنا أثرثر عن أي شيء.. حكايات.. حكايات لا تنتهي.. حكايات تتكرر.. حتى أحلامي أحكيها لك في كل ليلة.. ولكنك لا تستطيع أن تحكي حلمك.. كما أنك لا تستطيع أن تكتبه لي.. يداك ترعشان كثيراً إذا ما حاولت أن تمسك القلم.. أنت عجيب.. ليتني أعرف قصتك.. ليتني أعرفك.. لماذا تنظر إلي هكذا؟ نعم أنا وحيدة معك.. لا.. لست وحيدة.. أنت طيب وجميل.. لكنك عنيد.. حتى إشارتك خرساء.. ما الذي فعله بك الزمن حتى غدوت هكذا؟ لا تبتس يا عمري.. خير لك هذا الصمت المؤبد.. هيا بنا نذهب إلى الشاطئ.. أعرف أنه صديقك.. فهو الوحيد الذي تبث مشاعرك له.. لماذا هذه الدموع؟ هل أسأت إليك؟ إذن ماذا؟ هل ما زلت تتمنى امتلاك طاقة الإخفاء؟ أعرف أن الكثير يتمنى هذه الأسطورة الجميلة، وكأنك تريدها.. تريد أن تلبسها في رأسك ولو لمدة قصيرة، كي تتمكن من ثقب هذا العالم، ولو قدرت أن

أحصل عليها فسوف ألبسها لك.. أنت يوم وأنا يوم.. وهكذا يا حبيبي سوف نشارك في ثقب هذا العالم ونبصق في وجهه ونعري غموضه وقسوته وربما نغيره».

وعندما ازدادت حرارة الشمس اختفت زوجتي وتلاشى صوتها. نزلت من السطح مهرولاً ناحية الغرفة.. فتحت الباب فوجدتها نائمة وهي تحضن ابننا. كان ذلك اليوم عطلة ولا أعرف ما الذي حدث ليلة البارحة، هلوسات وربما حلم عابر رغم أنني متأكد من أن النوم لم يكن صديقي.

هل فعلاً أصبحت لا شيء؟ هل نجح الطائر الأسطوري في تفتيت عقلي؟ كأنها غيوم سوداء تمر أمامي ببطء شديد.. ببطء شديد.. ببطء لا يوصف.. أمام عيني تمر الغيوم.. هل هي لا شيء.. مؤكدة هي لا شيء أيضاً. على ما أذكر أنني في ذلك الوقت تخيلت أن الغد كئيب وحزين، شعور لا أحبه يراودني كثيراً ويعرّزني بالألم. كم أكره الألم وأصر على تجاهله وكسره بقدمي، لا أستطيع تذكر كل ذلك اليوم.. لكنه يعود ويتألاً في عيني بوضوح. قبل السقوط تلقيت فيما أظن مكالمة من صديق يسألني عن حالي وهل هناك مشروع لوحة جديدة أم هو صمت مؤقت، لكنه أدرك كآبتي وعدم رغبتني في مواصلة الحديث معه، فقطع المكالمة بعد أن وعدني بزيارة قصيرة إلى المرسوم. وبعدها خرجت لأتناول شيئاً من المطبخ ولكن كأن شيئاً حاول النقر على رأسي، ثم كأنني انطفأت.

تناقشت مع زوجتي في موضوع مستقبل ابننا «وليد». اختلفنا كثيراً. نقاش. صراخ. ثم تجمدنا في صمت قصير. بعد انتظار خمس سنوات جاءنا وليد، أحضر معه سعادة لا توصف وصار براءته يقوي الحب الذي بيني وبين أمه سعاد، انتظرناه طويلاً، كنا نخترق الزمن بصعوبة، نكافح أياماً طوالياً، حتى جاء بروحه الوثابة وابتساماته الرائعة ولوحاته الفنية التي لا تمحى أبداً من خيال أي فنان. جاء، وأحرق رتابةً كادت تهزمنا. ولكن..

لماذا يتباني الآن شعور بالخواء.. أجدي أغوص في فضاء لا أعرف مصدره. أجد أن المؤامرة تقترب مني.

قبل ذلك اليوم.

قبله بيومين أو يوم، لا أذكر. كنت جالساً في مقهى أمام البحر، أمامي جدار زجاجي يعرض صفّاً من الطاولات ذات أغطية ملونة.. في كل منها قائمة أسعار وطفاية سجائر، يأتي بعدها سياج نباتي أخضر طويل.. صف من نخيل جوز الهند المتباعدة قليلاً عن بعضها.. سجادة من الرمال الناعمة الذهبية تتمرغ عليها سيارة تجر خلفها قارباً بحرياً صغيراً.. بحر أزرق شامخ ليس له نهاية.. سفينة بعيدة يبدو أنها لا تعبأ بوحدتها. مشهد جميل لكنه لا يؤخر المؤامرة.

البحر يتلألأ في عيني المتعبتين من السهر، لم أنم ليلة البارحة وما سبقها، كنت أنظاها بالنوم حتى لا أثبت القلق في سعاد، لأنني أعرفها جيداً سوف

تشاركني كل هواجسي، وربما تتعب أكثر مني. كنت أسمع بكاء وليد، كانت لدي رغبة عارمة في أن أقوم وأحضنه وأساعد أمه في تنويمه، لكنني تمرغت في قلق وحرقة، وبعدها كعادي حملت لحافي وارتقيت السطح واستلقيت هناك حتى الصباح بدون نوم.

البحر بدا لي هادئاً جداً.. والقهوة المرة أيقظت ذهني قليلاً.

صرت أبحث بجنون عن بدائل تساند راتبي المهدد دائماً بالاختفاء ما دمت أمسك الريشة والقلم. فكرت في مشروع تجاري إلا أنني من أولئك البشر الذين لا يهتمون بالربح أو التجارة، إذ أنني لم أفكر في هذا المشروع من قبل، ولكنني مضطر للتفكير فيه والسعي في إنجازه. بت أفكر في مستقبل ابني الذي انتظرت قدومه بفارغ الصبر. هكذا.. الآن لا يجب الاعتماد على راتب الحكومة، إنه مهدد بالانقراض في أي وقت، لأنني أنتمي إلى تلك الشريحة من الموظفين أصحاب النوايا الحسنة والمبادئ والمثابرة والطموح، ليس مكاننا هنا بين هذه الذئاب التي تعلن الحرب لأجل مصالحها، وأهدافها هي بطونها والصراع حول الكراسي، لعبة الشر الأبدية، الهدف هو الكرسي وما عدا ذلك فليذهب أي شيء إلى الجحيم، أي قرف هذا؟ فكرت أنه يجب علي أن أستقل، أنجز أعمالاً أخرى أقرب إلى نفسي وإلى إبداعي. صارحت صديقاً بأنني أحس منذ زمن بأنني في صدد مواجهة تصيد خبيث لتحطيمي، لكنه طمأنني بأن ما يدور في ذهني مجرد أوهام ونصحني بأن أتجنبها ولا أدعها تتغلب علي.

بعد أن رجعت من المقهى رسمت بحرقه.. أخذت كتلة حماس تنبت في ذهني.. ربما كانت مثابرة صادقة وخيرة لأجل البقاء والاستمرار والتفوق.

في ذلك اليوم بعد أن حل الصمت بيني وبين سعاد استيقظ وليد من نومه مفزوعاً، بكى كثيراً دون أي سبب. سعاد كعادتها تعاتبني على ذلك النقاش حول مستقبله وصراخنا الذي لا مبرر له. عاتبها على عنادها. ولكن وليد هدأ بعد مدة قاسية، جعلني أتألم معه بحرقه. جاءني هاتف من السمسار يقول أنه وجد لنا أرضاً مناسبة كي نبني عليها بيتاً صغيراً. تواعدنا في عصر الغد كي أعينها. كثيراً ما نسجت بيتاً نادراً يقع على تلة عالية تواجه بحراً وبيوتاً وجبالاً بعيدة. تذكرت أنه من يومين خططنا لقضاء عطلة الصيف في منطقة هادئة. لأن «وليد» وهو في عامه الأول يبدو فناناً كأبيه ينظر إلى المشاهد التي يصادفها نظرة أخرى تختلف عن الجميع، أراه يتأمل كثيراً في الألوان، بالأخص اللون الأزرق الفاتح الذي يجذبه لدرجة أنه لا يسمع نداءاتنا المتكررة له. لذا فقد كان يستحق أن أفتح له حساب توفير في البنك كي أوّمن له مستقبلاً باهراً. كان ينظر إلي حينما أقرأ كتاباً ويقول لي: «دعه لي يا أبي.. سوف ألتهم مكتبتك العامرة بالكتب كتاباً كتاباً.. انتظري فقط». وحينما يراني أرسم، يجلس متأملاً يدي وهي تلون اللوحة البيضاء.. يغوص في أعماقها، وبعد أن أنتهي منها أتخليه يتقذني كثيراً ويمدني باقتراحاته. جميل وجود هذا الطفل في حياتنا يا سعاد، جميل صوته العذب حينما ينطق كلمة «بابا أو ماما»، فكرت بجدية أن أعمل

معه حوارًا صحفيًا، نعم سوف أحاوره ليقيني أنه يمتلك فكرًا خصبًا وربما يفيدني بآرائه في الفن التشكيلي، من المؤكد أن لديه أفكارًا جديدة ورائعة مثله. لا أعرف حقًا لماذا هذا الخواء. لماذا هذا الخوف؟
وها أنا أخرج من باب البيت.

في ذلك اليوم شعرت بحزن وكآبة أكثر من السابق. رجعت من العمل وتناولت غدائي بسرعة رغم وجود سعاد ووليد. لم أقدر على النوم. تسألني سعاد عن سبب شرودي وحزني.. ضحكت محاولاً التمثيل.. وبالفعل لا شيء هناك سوى سحابة حزن وكآبة.. لكنني أذهب وألعب مع وليد وأنسى كعادتي كل شيء.. سألتني سعاد إن كنت قد أكملت اللوحة.. فأجبتها: «ليس بعد.. ليت وليد يكملها». ضحكت وقامت لتحضنني وهي لم تفعل ذلك منذ زمن طويل.

مرة بينما كنت أفتش بين أكوام أوراق وكتب مغبرة وقعت يدي على بعض الصور القديمة التي تجمعني مع أصدقاء حميمين. حينما شاهدتها انفطر قلبي ألمًا.. تذكرت اللحظات التي صورت فيها.. لحظات مدفونة في بطن التاريخ.. يا لها من صور.. بعض مواقفها أتذكرها وبعضها الآخر لا تقدر ذاكرتي على نبشها.. لكنها لا تبعث في نفسي سوى الحزن والتعب.

في تلك الصور، موجود أنا بينهم.. جسد نحيل لم ينبت شاري بعد.. الأصدقاء من حولي.. بعضهم لم أره قط بعد تلك السنة.. منهم من رحل عن البلد.. ومنهم من يرقد في حضن قبر مظلم. لماذا كل هذا الألم الآن؟

لاحظنا الإصرار في وليد.. فقد بدأ يحبو.. إذا واجه الفشل حاول من جديد. تمنيت ألا يقع في حفر صعبة كأييه. ورغم أن رأسي مثقل بجميع تلك الحفر التي سقطت فيها طوال عمري نتيجة تسرع أو نزق أو حمق أو سذاجة.. فإنني في الوقت نفسه أتذكر صمودي القاسي.. كثيرًا ما سبب لي هذا الصمود رغبة في الحصول على ينبوع عذب يغسل كل تلك الحفر، ويزيل جميع الكبوات الحمقاء، سألني ذات مرة أحدهم: «كيف كانت طفولتك؟» أجبته: «لم أكن طفلًا ذات يوم». فاعتبر إجابتي استفزازًا له وتحديًا.. تناول حجرًا وشح رأسي به وهرب. لم أعبأ بالدم الذي تدفق بغزارة.. لأنه تدفق قبل ذلك مرتين في المكان نفسه.. هكذا على مدار العمر يتدفق كالنافورة ويبلل ملابسني بلزوجته الحارة. بعد أن هرب ذلك الشخص، هربت أنا من دمي.. ولم يكن أول هروب.. ولا أريد أن أحصي أيام هروبي.. أسأل كيف وقعت في تلك الحفر التنتة؟

هل أصبحت لا شيء؟

كأنها غيوم سوداء تمر أمامي ببطء شديد.

صمت يخيم على المكان. هل تلاشت الآلام؟ لا أشعر بشيء مطلقًا. تمر أمامي الآن السدرة التي كنت أتسلقها وأنا طفل.. لماذا لم أفكر في رسمها؟ تمر أمامي صورة أُمِّي ثم أبي، صور ملونة تجمع إخوتي وأخواتي، صورة أخرى تجمعني مع سعاد ووليد، وجوه بعض الأصدقاء الحميمين.

كل ما أتذكره في ذلك اليوم أنني كنت أرسم، وأنني كنت أسمع وليد ينادي «باباه.. باباه»، كل ما أتذكره أن لوحتي لم تكتمل بعد، وأنني أستعد للدخول في مغامرة طويلة لم أستطع بعد أن أتنبأ بتائجها. مغامرة جاءت نتيجة مؤامرات دنيئة من قبل أشخاص ليس لهم علاقة بالبشر.

حفر كثيرة وسقوط كثير، وأجد نفسي أقوم وأمشي من جديد، لكن هذه المرة سقوط مختلف، فرأسي تحول إلى مصباح يضيء ويظلم، يضيء على مشاهد وكأنها خيالية في عالم سينمائي، ويظلم على سواد وكأنه نوم قصير. كأن زوجتي تصرخ، كأن هناك مطراً يهطل بغزارة، هل هذه آلام في الرأس؟ لماذا الأصوات خافتة هكذا؟ والشوارع مبلولة، وأسئلة تتطاير من فمي مثل ريش نتف من حمامة ضربت على رأسها. كأنه مستشفى وأطباء بملابسهم البيضاء تتماوج أجسادهم في مصباح مليء بالدخان. أسئلة تتكرر من فمي والمصباح يضيء وينطفئ.. والذاكرة تحاول أن تحيا وتستنجد بمشاهد الحياة.. هناك أرض زلقة وقدم أسقطها الماء وأسقط معها جسداً ورأساً تحول إلى مصباح هش، وطائر يبدو أنه نقر بقوة على رأسي أحدث فيه فوهة كبيرة سقط منها كل شيء.

من جدار أبيض إلى جدار أسود

مشهد (1)

المستشفى ينفث رائحة كريهة ومخدرة. قاعة الانتظار تتلذذ بابتلاع الناس. كرتان صغيرتان تنقذفان من رأسي.. تتدحرجان هنا وهناك.. تستكشفان القاعة. تنتقلان من وجه إلى وجه.. من جدار أبيض إلى جدار أسود.. ومن باب مفتوح إلى باب مغلق.. الجميع يلفهم العبوس.. كراسي الانتظار مصنوعة من الإسمنت، ويظهر السؤال كالمارد من إبريق قديم: لماذا الكراسي صنعت من الإسمنت؟ هل لتزرع الألم في الظهر؟ ورغم كل شيء تطير فتاة ناحيتي كنسمة باردة تطف الجوّ وتخفف من ملل الانتظار الكئيب.. تهديني ابتسامة من شفتين حمراوين.. ثمّرتان ناضجتان بعيدتان تنسيانيني التعب والمرض.. ثمّرتان محرمتان.. تفاحتان من الجنة.

مشهد (2)

أحب الأنثى، أقول هذا وأعرف أنني لست الوحيد صاحب هذه العبارة، ودائماً ما تدور أسئلة كثيرة في رأسي الثقيل بالأسى، من قبيل.. ما قصة النهدين في الأنثى؟ ما قصتهما معي؟ أراهما نوعاً من الفواكه التي تعذب الرجل؟ لهما أحجام مختلفة؟ ما قصة العينين الواسعتين؟ وما؟ وماذا بعد؟ غير دوار رأس وابتلاع لعاب، وحسرة شوق، ولكن تلاشت فجأة هذه الأسئلة عندما رأيتهما أول مرة، تشبّثت جيداً بالنظر في حفرة صغيرة أسفل ذقنها.. تأملت طويلاً مع

تفاصيل وجهها الأخرى.. وبعد ذلك كل مرة أراها أزداد انجذاباً لتلك الحفرة.. حلمت كثيراً أن تلك الحفرة مليئة بالعسل.. حيث يمتد لساني ويستلذ رحيقه.. حملتني عذاباً لا يطاق.. لأنني لم أستطع أن أحادثها قط.. حادث الكثير من النساء ودخلت معهن في مغامرات طويلة.. ولكن صاحبة الحفرة العسلية لم أجرؤ أن أقول لها مرة إنني أهييم في حفرتها تلك وأنها هي السبب في عشق غريب أخذ ينمو بسرعة.

مشهد (3)

الرائحة تزداد مع قدوم طيب أو ممرضة أو مريض يتوافدون من كل مكان.. ألمح لوحات تقطر أخطاء لغوية كانت معلقة على الجدران البيض.. اللوحات تكسر النافذة وتهرب من كل ما كتب عليها.. تتساقط الحروف على الأرضية الملساء وتدوسها الأقدام.. وتبقى الصور ملتصقة على الجدران. كنت أهم بأن أقف وأحصي اللوحات لولا صياح طفل رضيع دخلت به أمه.. كان بكاءه حاداً خرق رأسي وصب فيه الصداق.. ألا يكفي «المصر»⁽¹⁾ طوال الصباح يمارس دور ثعبان يلتف حول الرأس ويعصره كالليمونة. الطفل يبكي بحرقه، لا بد أنه يتألم.. على ما يبدو أن أباه تبعهما ببطاقة المستشفى الخاصة بالطفل. كان ما يزال بملابس نومه. حاول أن يدخله عند الطبيب بأسرع وقت وينقذه من الصباح.. لكن دون جدوى.. الممرضة الجافة التي تعاني فيما يبدو من مرض نفسي تحولت إلى مدفع وأطلقت صرخة سؤال حاد: «ليش هذا

(1) العمامة.

ولد فيه صايح؟».. ردت الأم بحزن: «ما أعرف». ثم تحولت الممرضة إلى نمر هندي مخطط وزارت: «ما في شوف زحمة.. اجلس ماما في الدور». تحولت إلى دكتاتور يأمر وينهى. كانت إلى جانبها ممرضة عمانية يبدو أنها نسيت شخصيتها في البيت. قمع آخر أراه هذا اليوم. الأول كان في بداية الصباح حينما نهر المسؤول موظفيه في اجتماع مطول كي يحتفظوا باقتراحاتهم الساذجة لأنفسهم، وأن اقتراحاته هي التي يجب أن تنفذ، وبالطبع كالعادة سوف يقترح آراءهم لاحقاً وينسبها إلى نفسه. ولا يستطيعون أن يتفوهوا بكلمة، وإن رد أحدهم فسوف يدون اسمه في اللائحة السوداء المطعمه بأسماء عديدة من ضمنهم اسمي بالطبع. ماذا لو دخل الآن هذا المسؤول؟ من المؤكد أنه سوف يحيي تلميذته الممرضة ويرقص معها طويلاً أمام المتظرين. وسوف يدخل قبل الجميع عند الطبيب.

شخص يدخل مستعجلاً، يبدو أنه أوروبي، يحدق في المكان والمتظرين، يقف بنظره في وجهي ويتسم، ثم يخرج. وتشكل سحب الأسئلة حولي: من هذا الرجل؟ أين رأيت؟ ألا يشبه بنويل⁽¹⁾ الأسباني؟ أليس هذا تخريفاً؟ ربما لم يدخل أي شخص أوروبي. ربما كانت توهمات. بنويل شبع موتاً، ربما كان يتمشى مع فلليني⁽²⁾ في غابة النسيان الأبدية، هناك تحت أقدامنا.

(1) المخرج السينمائي لويس بنويل (1900-1983).

(2) المخرج السينمائي الإيطالي فيدريكو فلليني (1920-1993).

مشهد (4)

أتذكر الحفرة وعينيها وأصابعها الناعمة البيضاء وهي تطرق على الطاولة..
صانعة بذلك لحناً موسيقياً، كأنه الرذاذ يرسم البهجة في قلبي. دعني إذن من
الانتظار والممرضة وصياح الطفل وذكرى المسؤول النكتة.. ولأتذكر
القصيدة التي كتبها لها ولم تقرأها وربما لن تقرأها أبداً.. قصيدة لها.. تدفء
قلبها.. وأمتص من عينيها صمتاً لذيذاً.. قصيدة لها لأنها تحب الشعر.. ماذا
فعلت بقوة صبري؟

مشهد (5)

يزداد صراخ الطفل.. تهدده أمه.. ولكنه يزيد في البكاء.. وأبوه الذي
يجلس في قاعة انتظار الرجال يرمقهما بقلق.
يدخل طفل قلق يمسك دشدشة أبيه من الخلف. يقرأ الأب جريدة ذاب
حبرها في يديه. الحروف تنفلت من دماغه. نوع من الجرائد التي تصدر يومياً
لتوسخ عقول قارئها. الطفل القلق يخرج من جيب دشدشته الصغير منديلاً
ورقياً مشرذماً. يأخذ منه قطعة صغيرة، يدببها بعناية، ثم يدخلها في أنفه وينظف،
وبعد أن ينتهي يرمي بها على الأرض، ثم يقطع أخرى، وهكذا. لا بد أن أباه
يفعل الشيء نفسه في البيت. تحرك الطفل وطار من النافذة ناحية غابة أشجار،
أخذ يقطف أوراقاً خضراء وينظف بها آذان الناس. أردت أن أناول الطفل منديلاً
ورقياً نظيفاً وجديداً، لكنني ضحكت لأنني حتماً سوف أفتح للطفل جرحاً لن

ينساه مدى حياته. سوف يتذكر حينما يكبر أن شخصاً استهزأ بفعلة قام بها وهو طفل. لن أفعل ذلك، دعه يفعل ما يحلو له. أسأل: لماذا عاد من الغابة؟

مشهد (6)

الجميع الآن لا يسمعون سوى صياح الطفل. أمه ما زالت تحاول أن تسكته ولكنها تفشل فتتلقى شفقة الجالسات بعباءاتهن السوداء. يلفه قماش أبيض تلعب أزهار ملونة في فضائه. صياح وألم لا يعرف سببهما، كأن به مرضاً لا أحد يعرفه، هل أصابه قلق من هذه الحياة؟ ما هذا الحر الذي يحرق البلد؟ هل بدأ يفكر في المستقبل الذي ينتظره؟ حتى الأطفال الذين كانوا صامتين أخذوا في البكاء تضامناً معه. تحولت القاعة إلى شجرة ثمارها أطفال يبكون بمرارة وحزن، والكبار يحدقون فاغري الأفواه في بعضهم البعض، تلاشى اللغط الذي كان يقفز بين الأفواه وأخذوا ينظرون ناحية الطفل الباكي باستغراب، بينما الطفل صاحب المنديل - الذي لم يبق منه إلا نتفة صغيرة - توقف عن تنظيف أنفه وأدخل ما تبقى من المنديل في جيبه، ونسي الغابة وما بها من أوراق، وأبوه أقفل صحيفته، فكيف يخرم عقله بالسذاجة في جو كهذا؟ دخل سلفادور دالي⁽¹⁾. سكت الأطفال وأخذوا يصفعون أمهاتهم وآباءهم، وكونوا طابوراً أمام تلك الممرضة، كل واحد منهم يشد شعرة من رأسها، بينما دالي يمسك بيده قطعة فحم ويرسم في وجوه الجالسين وفي الجدران، وحينما تقدم ناحيتي لم يرسم في وجهي بل أطلق ضحكة سخرية، وغمز لي بطرف عينه،

(1) الرسام الأسباني (1904-1989).

وتكلم بلغته الأسبانية التي لم أفهمها، ثم اختفى، وعاد الأطفال للبكاء، وعادت الممرضة لحماقاتها. الآن تأكد لي أن ذلك الأوروبي كان بنويل. من سوف يأتي لاحقاً؟

مشهد (7)

أغمض عيني قليلاً.. أراها تركض ناحيتي بلهفة على شاطئ بحر تحفه طيور ملونة، تذكرت عينيها ونسيت نفسي فيهما.. وتذكرت نهديها واقشعر بدني للحظة.. ثم انكسر كل شيء حينما ازداد صراخ الطفل.. يا ناس ارحموا هذا الطفل وأدخلوه عند الطبيب، ابتلع صراخه فيتشتر في جسدي كالنار. انتظار قاسٍ، ولكن ما الفرق؟ طوال عمري أنتظر.. إنها القصيدة التي لم تصل.. إنهما العينان اللتان تسطعان كل صباح.. هاتان القدمان إلى أين تسيران بي؟ سوف أكتب لها قصيدة أخرى وأعترف لها برغبتني الالتحام بها بشدة لا توصف.. في داخلي بحر يفتت عظامي بملوحته.. يهدأ البحر.. ويزأر قلبي.. تغوص قدمها البضتان في رمل الشاطئ.. تنتقلان من مكان إلى مكان حتى تغوصا في قديمي.. وأحس ببرودة تسري في عروقي.. ولكنها تبتعد لترسم على رمل الشاطئ وجوه أطفال.. حولهم زهور.. لكن الموج يمحو الوجوه البريئة ويترك جروحاً.. فسقط باكية.. تحاول أن تنادينني.. ولكن رياحاً هوجاء تبعدني ناحية جبل يحفه السكون.

هل هذا هو قلبي الذي دب فيه الفزع؟ كأن الطمأنينة هربت من البلاد. سكت الطفل فجأة.. قالت أمه براءة: «أخيراً نام». افتضح وجه أبيه قلقاً.. تلاقت عينا الأم والأب كي تتبادلا حواراً صامتاً بأن لم يبق أمام طفلها سوى

شخصين ومن ثم يأتي دوره كي يدخل عند الطبيب. أثناء قراءتي لحوارهما سمعت اسمي يتردد من فم تلك الممرضة التعيسة.. سمعت اسمي يبشاعة كما سمعته من فم مسؤولي في العمل الذي ينطقه مغلفاً بالمديح الزائف.. ياله من ساذج ومعقد.. إنه جسد بلا إنسان.. قلت للممرضة: «أتنازل عن دوري لذلك الطفل».. لو أنها فقط قالت «لا».. لكنك فتحت عليها ناراً لم تر مثلها من قبل.. لكنك فقأت عينيها الجاحظتين.. إلا أنها تكرمت وسمحت لهما بالدخول.. وارتاحت نفسي قليلاً. دخل الأب والأم بطفلهما بسرعة عند الطبيب. لمحت الممرضة بتسم لشاب أشعث الشعر.. إن أدخلته قبل الجميع فسوف أحرقها.. تخيلتها أفعى تنزع جميع الجالسين.. أفعى قاسية بألف وجه ووجه.. تنفث السموم في كل شيء حولها.

مشهد (8)

عندما كنت طفلاً تركض العقرب ناحيتي وتتزع من فمي زجاجة الحليب.. أسأل أمي عن سبب ذلك.. ترد بحزن: «لأنك تشرب الحليب أكثر من طفلك».. وحينما كنت ألعب كأى طفل تنهرني بقسوة أن أجلس وأكف عن اللعب ويظل طفلكا يلعب بفرح.. يا أمي ماذا فعلت بهذه المرأة؟ أنا كنت مجرد طفل.. لم أفعل لها شيئاً.. تصمت أمي وتدمع عيناها.. وفي العيد يحاول قلبي أن يفرح.. أبتسم للعقرب.. ولكنها تحرق في بغضب.. ينطلق من عينيها شرر غريب.. يهزني ويحزنني.. ما الذي فعلته حتى تنفث في سمها.. أسأل: هل هذا

عيد يا أمي الحزينة.. أين أبوك يا أمي؟ لماذا لا يدافع عني وعنك؟ لماذا ينفث
قسوته السامة في وجوهنا؟ هل لأن العقرب زوجته.. أهذا هو العيد؟

مشهد (9)

دخل دالي وبنويل إلى قاعة الانتظار، أخذوا يرقصان أمام دهشة الجميع،
تناول دالي الذي امتد شارباه حتى قدميه عباءة من إحدى النساء وفرشها على
الأرض ثم جلس عليها، تناول بنويل من جيبه مقصاً وبدأ في قص شوارب
دالي، ثم تناول بنويل موسى حلاقة وقبل أن يبدأ في قطع بويؤ عين دالي جاءت
صرخة، فهرب دالي وتبعه بنويل ناسياً الموسى والمقص، حيث جاءت
المرضة وخبأتها في جيبها.

مشهد (10)

خرجت صرخة من غرفة الطبيب صدمت الجميع.. دارت الأسئلة في
عقول المتظرين.

مشهد (11)

أيتها الجميلة لماذا لا تحضرين بوجهك وتلطفين قلبي هذا.. حضر
الصراخ.. الناس مذعورة هنا.. المسؤول يضحك كل صباح على موظفيه
ويهزأ من عقولهم.. ذلك العيد القديم كانت العقرب تنادي أطفالها وأطفال
أقربائها كي تعيدهم.. تبسم لهم.. وتحقق في بغضب.. ناولت كل واحد منهم

ريالاً.. وناولتني أنا مائة بيسة.. أمي تعالي كي أحضنك.. تلك العقرب قست على طفولتي.. وذلك الجد كالوديع أمامها وكالسفاح أمامنا.

مشاهد (12 - 16)

12. ارتجفت اليد بعد أن فتحت القماش، تطاير الذهول، كان لها لون العشب. صراخ يزداد.

13. وجهان مبتسمان.. يستقبلان ملاكاً من السماء بعد خمس سنوات من الانتظار.

14. خرج الأب حزيناً من غرفة الطيب.. وجهه يطفح بالغرابة والدهشة والحزن.

15. ريح تسقط قماشاً أبيض من الجبل.. ويختلط بالعشب. يد ناعمة تتشله. تنفضه. ثم تسرع وتقبل طفلها.

16. خرجت الممرضة العمانية تحمل زجاجة بداخلها عقرب خضراء.. اتجهت ناحية المختبر. حاولت أن أتبعها إلا أن يداً خفيه أجلسني بقوة. كانت عقرب تختبئ داخل قماش الطفل تلعب بجلده.. تغرز سمها وتضحك.. عقرب خضراء اللون.

مشهد (17)

لم أر الطيب. حملت مرضي معي. هل تسمعينني يا مضيئة صدري؟ أيتها الطمأنينة.. إنني أمنحك قصيدة. لا تقرئها إلا حينما أرحل بعيداً. لأقابل أطفالاً يمرحون في الجنة.

جدران ومرايا

في الصباح الباكر من يوم الجمعة فتحت الباب الزجاجي لمحل حلاقة الشعر ودخلت. كانت رائحة بخور العود الهندي الرخيص تملأ المكان، رمقت خيط الدخان يتلوى من خشبة نحيلة احترق نصفها وتناثر رمادها، أصبحت هذه الرائحة تصيني بالقرف إلا أنني كالعادة أتجاهلها، كان هناك الكثير من الزبائن ينتظرون دورهم، الجدران مغطاة بالمرايا الزجاجية والأرضية مغطاة بالشعر. رميت جسدي على أحد كراسي الانتظار في مكان يبدو من الوهلة الأولى أنه هادئ، لم يكن هناك صوت ينبعث من التلفاز، وهذا شيء مريح لكي أتمكن من قراءة الكتاب الذي جلبته معي وحتى أستحوذ على قدر كاف من التركيز أثناء انتظار دوري.

فتحت كتابي وبدأت أقرأ، بينما جميع المنتظرين يمارسون عادة النظر إلى الحلاق حينما يقص شعر الزبون، وآخرون يتشاءبون أو يطالعون بعض الصحف أو المجالات الملونة القديمة المرمية بدون ترتيب على الطاولة الزجاجية أمام الكراسي العتيقة، كان على يميني شاب بملابس النوم ينظر إلى هاتفه النقال ويضحك، بينما على يساري رجل كان ينظر إلى السقف طوال الوقت وكأنما يبحث عن شيء مجهول ولكنه سرعان ما تلقى دعوة من الحلاق وذهب إلى كرسي الحلاقة، ظل مقعده شاغراً لمدة وجيزة حتى جاء رجل ذو لحية بيضاء وجلس إلى جانبي، اندهشت من وجود «المصر» على رأسه في يوم الجمعة. فجأة أشعل الحلاق تلفازه وانبعثت منه حوارات هندية

صاخبة يتخللها في بعض الأحيان أغانٍ وموسيقى، تجاهلت كل ذلك لأن موضوع الكتاب استحوذ على اهتمامي، كنت أقرأ في الصفحة اليمنى من الكتاب أما الغلاف الأخير فكان يواجه الرجل صاحب المصبر، لاحظته يقرأ ما كتب على الغلاف الأخير، تعمدت الإطالة في القراءة وأعدت قراءة بعض الفقرات لأعطي الرجل فرصة لمشاركتي قراءة الغلاف الأخير الذي يعرض ملخصاً عاماً وقصيراً عن موضوع الكتاب، وطبعاً أنا لم أقرأه بعد لأنني تعودت قراءته بعد قراءة كل كتاب.

قرأت تلك الصفحة مرتين حتى ينتهي الرجل من قراءة الغلاف، وبعدها انتقلت إلى قراءة الصفحة اليسرى وبذلك اختفى الغلاف الأخير تحت يدي اليسرى، وهكذا قطعت على صاحبي متعة تلصصه ولا أعرف إن كان قد انتهى منه أم لا، بادرتني رغبة لقراءة ما كتب على الغلاف الأخير، لكنني أجلت الموضوع حتى لا يشعر الرجل بأنني كشفت سره في التلصص على كتابي، شعرت بأنه يتظرني لأنتهي من الصفحة اليسرى من الكتاب، لأنه تارة ينظر إلى الحلاق والزبائن ثم يرجع برأسه ناحية كتابي ليجد أن الغلاف الأخير ما زال مختبئاً. يبدو أن موضوع الكتاب المدون في الغلاف جذبته وأثار اهتمامه. قررت أن أسرع في قراءة تلك الصفحة حتى أكتشف ماذا سيحدث حينما ينتهي من قراءة الغلاف، هل سيفتح باباً للنقاش حول الموضوع؟ هل سيسألني عن الكتاب والكاتب؟ هل سيسألني عن اسمي وعن اهتماماتي؟ ربما هو شخص لديه اهتمامات مشابهة. أنهيت الصفحة وقلبته وبدأت في الصفحة التالية وبذلك هيأت الغلاف الأخير وعرضته متعمداً عليه وهذه المرة هيأته بطريقة أوضح ورفعته إلى أعلى، وكأنني أقف الآن أمامه وأقول له هيا إليك الفرصة

الآن للقراءة وعليك أن تستغلها. وكما توقعت فالرجل غاص في المعلومات المكتوبة وهذا بالطبع دليل على أنه لم يتنه من قراءته في المرة الأولى، على الفور توقعت بأنه سيسألني عن الكتاب أو سيطلب مني رقم هاتفي ليستعير مني الكتاب.

كانت الأغاني الهندية تزداد صخبًا، وخشبة العود النحيلة لم يبق منها سوى جزء ضئيل. ثم قررت أن أنهي قراءتي للكتاب عند ذاك الحد حتى أتيح له فرصة للكلام. وحينما أغلقت الكتاب، فاجأني بحديثه وقال يابتسامة مأكرة: «هذا الحلاق هو الوحيد الذي يفتح باكراً في يوم الجمعة». رددت عليه بابتسامة وقلت له: «نعم.. هو كذلك». وبعد صمت وبدون الإشارة إلى الكتاب قال بسخرية: «يقولون حضارة.. واليوم سمعت بأن الحكومة قررت منع الذهاب إلى مكان العزاء وقت الدوام الرسمي». فكرت في الشطر الأول من كلامه وكان يتعلق بموضوع الكتاب الذي أقرؤه، ولكن الشطر الثاني لا يمت بصلة إلى موضوع الكتاب رغم أنه قام بربط الحضارة بالخبر الذي سمعته. قلت له: «هل هذا صحيح؟ غريب». رد بحماسة: «نعم صحيح لقد تيقنت من الخبر». عند هذه النقطة أشار الحلاق إلي بأن دوري قد حان، استأذنته وظننت أنه سيطلب مني الكتاب حتى يأتي دوره هو الآخر، لكنه لم يفعل ذلك، فاستأذنته وأخذت كتابي معي وتوجهت إلى كرسي الحلاقة، تركته مع المنتظرين يحدقون في الحيطان والحلاق وهو يقص الشعر، وكنت متشوقاً حتى أنتهي وأخرج لأقرأ غلاف الكتاب وما كتب عليه، ولكنني كنت مستاء لأنه لم يطلب مني الكتاب لتصفحه حتى لدقيقة واحدة فقط.

وكر الحلاقين

بينما كان رأسي بين يديه، وسط أغاني هندية، تحولت إلى صنم أشاهد نفسي في المرأة، والمرأة تعرض لي رجالاً لا أعرفهم يراقبون رأسي الذي كان صامداً أمام المقص الحاد. كانوا أربعة ينتظرون دورهم لكي يسلم كل واحد منهم رأسه للحلاق ذي الرائحة الكريهة. رغم وجود الكثير من المجلات والصحف التي يرجع تاريخ إصدارها إلى سنوات خلت فإنهم تجاهلوا، فقط يستمتعون بمشاهدة رأسي ومتابعة يدي الحلاق وهما تمسكان المقص والمشط. طلبت من الحلاق جلب نظارتي التي تركتها عند شفرات الحلاقة ومعاينتها. أمسكها بيده المتسخة بالشعر الجاف الذي تساقط من رأسي وسلمها لي. لبستها واتضح وجوههم الصارمة. حينما كنت أنتظر في الطابور قلبت بعض المجلات وقرأت تواريخها القديمة ولكنني لم أجد في الرجل الذي بين يدي الحلاق إلا نادراً. وهاهم هؤلاء يتآمرون عليّ الآن ويحدقون بسخرية في رأسي. هل تحول رأسي إلى خريطة مبهمه يحاولون فك طلاسمها؟ أم أن شكله غريب ولم أكتشفه بعد؟ الحلاق ينتظرن أن أخلع النظارة ويواصل القص، لكنني بت أرمقهم بغضب، حتى أن اثنين منهم شعرا بغضبي. فجأة وبدون وعي أطلقت صرخة مدوية في وجوههم. خاف الحلاق وسقط المقص من يده، أما الأربعة فلم تفصح وجوههم عن أية تعابير ولكن أمسك الواحد

منهم بيد الآخر وفروا هاربين من الباب، بينما الحلاق نكس رأسه باحثاً
عن المقص الذي دفن في الشعر المتكوم على الأرضية.
كنت أكره تلك اللحظة وهم يراقبونني وربما يسخرون من رأسي. لا
أعرف ما الذي جعل قلبي يخاف في تلك اللحظة، ربما تذكرت شيئاً
مخيفاً، لذلك حبست خوفي وتمنيت أن ينهي الحلاق عمله في رأسي
ويتركني بسلام. كانوا أربعة ما زالوا يحدقون والحلاق خامسهم.

الممثل

بعد أن داهمتني آلام الظهر نتيجة جلوسي المستمر أنهيت قراءة الفصل الثالث من الرواية، شعرت بأن جسدي يرتفع إلى السقف وينزل بقوة إلى الأرض، جلست أمام التلفاز لأطرد الإنهاك وأمسكت بـ«الريموت كنترول». بدأت أنتقل من قناة فضائية إلى أخرى، رحلة كل يوم.. رحلة بلا روح، الهدف منها تجميع بقايا الجسد المتهالك ومشاهدة شيء يغذيني. وجدتني أمام مشهد سينمائي لرجل غاضب جدًا يكلم آخر ويقول له: «لقد كتبت خمسين صفحة ولم أجد القصة بعد»، سقطت في الدهشة، وحينما انتهى من الجملة العجيبة رنَّ جرس الباب.. تأملت قليلاً في العبارة المرتبكة التي تفوه بها الممثل، لكن الجرس ألح في إزعاجي. من يا ترى سيأتي في هذا الوقت؟ وماذا يريد؟ قررت ألا أفتح الباب، فكيف للجرس سرقة متعة الفيلم مني؟ ولكن، كالعادة لا أستطيع منع نفسي من فتح الباب. تراجعته عن قراره. وقمت لأفتح الباب، لكنني منعت نفسي من ذلك ووقفت وقررت الرجوع ومواصلة مشاهدة الفيلم، فالزائر سيحاول ضرب الجرس مرة ومرتين وثلاثاً وسيرحل، لكن الجرس أصر على تشويش أفكاري بصوته القوي فوجدت نفسي أفتح الباب وإذا برجل مُلتحٍ يتسهم لي. وسرعان ما تذكرته فهو صديق قديم ظهر كالمارد من

إبريق عتيق مقدماً لي ابتسامة كبيرة وأسناناً صفراء متباعدة عن بعضها. ما الذي جعله يتذكرني في هذا اليوم؟

وعلى مضض رحبت به بشدة، سألته عن حاله وعن حال أولاده، وسألته عن «العلوم» والأخبار، وأيضاً تلقيت منه نفس السيناريو الذي يندلق هكذا بدون شعور، والذي إن لم أسرده وأتجاوب معه لأصبحت مزعجاً له. كان لا بد من دعوته للدخول إلى صالة الجلوس التي كانت ممتلئة حياة وصخباً بسبب عرض الفيلم. وكالعادة أيضاً غيرت القناة حفاظاً على مشاعره ليقيني من أنه ليس ممن يشاهدون التلفاز أو يسمعون الموسيقى، وكان بإمكانني مشاهدة الفيلم ما دمت في بيتي، وهو لن يقول شيئاً.. سيصدر فقط بعض الغضب المخفي قليلاً لأنه سوف يكتبه في داخله مع ترديده لمقولة «الله يهديك.. الله المستعان»، ولكنني لا أفعل، بل أضحي بالفيلم لأجل مجاملة الضيف الذي لم أشاهده منذ سنوات، أي قبل تدنيّه المفاجيء والسريع الذي أعلنه بعد حياة حافلة بالمغامرات والسفر والحب، وبعدها اعتزل أصدقاءه عدا الملتحين أمثاله. كل هذا في جانب وتلك العبارة لذلك الممثل الهوليودي في جانب آخر، إذ بدأت تأتي وتروح تريد استفزاز ذهني المشتت والحائر في كل ما حدث خلال دقائق. يبدو أن ذلك الممثل كاتب يبحث عن فكرة أو قصة ولكن كيف كتب خمسين صفحة ولم يجد القصة بعد، إذن ما الذي كتبه؟ لا أعرف. ربما كتب الأفكار الرئيسة للقصة ولكن القصة نفسها ما يزال يبحث عنها. ما

الذي حدث معه بعد ذلك؟ ليتني لم أفتح الباب. ولكن حدث ما حدث
وها أنا في دوامة مجاملات.

كان الصديق القديم يكلمني عن السنوات التي لم نلتق خلالها ويسرد
لي أحداث الحروب الواقعة وأمريكا وحلفائها وما يفعلونه بالإسلام، وأنا
أفكر في كلام الممثل وما الذي حدث بعد ذلك، هل وجد القصة؟ ومن
الذي كان يكلمه؟ صديقه أم أخوه أم مدير أعماله؟ والضيف بدأ يتسلل
رويداً رويداً إلى هدف زيارته، وهو استقراض مبلغ من المال نتيجة
ظروفه القاسية. تعجبت منه أنه يتذكرني فقط عند الظروف القاسية، ثم
تذكرت أنني أمر بنفس الظروف فالبنك يأكل نسبة كبيرة من راتبي.
وبحزن اعتذرت له. خرج منكسراً. ورجعت إلى الشاشة والفيلم انتهى.
فقررت أن أقرأ الفصل الرابع من الرواية.

بيت وحيد في الصحراء*

* صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في عام 2003 عن مجلة نزوى-مسقط،
والطبعة الثانية في عام 2013 عن بيت الغشام للنشر والترجمة - مسقط، سلطنة عمان.

الإهداء

إلى

وجد المندري

حب وعذوبة وطمأنينة

1. عُرف

(1)

إن هربت الطيور من البيت
لن تفكر بالرجوع
فالهواء تدفق في جوفها.

(2)

أدخل غرفتي
على يميني سرير أرضي لا يشبه التابوت، وعلى يساري جدار من
الكتب يتماوج في عيني، لكنني دائم الشرود والكسل، إذ تناديني الكتب
فأمتنع بحسرة، ربما لا أفقه سر الزمن وسرعته، وتراكم السنين على ظهري،
لا أفقه سوى التلذذ بالشرود، والاستلقاء على ماء الوقت، ربما أتشبه بالدمى
التي تتراقص حولي.

سندباد صغير يمتطي غيمة

فتشت عن سحابة هواء صغيرة داخل خزانة الملابس. لم تجدها فشهقت.
تذكرت الحلم: تنكمش في صندوق مظلم ولا تستطيع أن تنفس.. حيثذ
تشبث جيداً باليقظة، فتريحك خيوط الشمس.. تريحك بشدة.

ككل يوم بعد أن تخرج من البيت يتلقفك الشايب محمد من داخل دكانه
القديم العابق برائحة كريهة. يناديك وهو يسرح لحيته الفضية، ويبدأ في تلقينك
دروساً ونصائح حول ضرورة أن تضع قدميك في النعل. يقول لك: «تراه
رجولك ما تلحس غير الحصى والزجاج والمسامير». وبعد أن تتخلص من
الدروس اليومية حول لبس النعل يداهمك الولد الطويل بتعليقاته البذيئة،
تشاهده كالمسمار منتصباً أمام باب بيته، منتظراً مرورك حتى يمطرك
بسخرياته. تجده يرتاح ويتشي، يخرج من داخلك سهم مطعم بالكرامية
ويخترق جسده. لا يدعك وشأنك.. دائماً يؤذيك لأنه أقوى وأكبر منك سنًا.
تعرف أنه يريد إشعال معركة، يكون هو المنتصر فيها. وأنه سوف ينال منك
ويرجعك إلى البيت ملطخاً بالدماء. لكنك تتجنب مشاكسته. تخفي استياءك
وتمضي منكسراً.

ذلك اليوم لم تكن تريد الخروج، كنت ساهماً في مغامرات السندباد.
زجرتك أمك لتذهب وتشتري الخبز. خرجت بتناقل بعد إلحاحها الشديد.

مشيت باتجاه المخبز الذي توصيك أمك دائماً بشراء الخبز الطازج منه، ذلك الذي يقع في نهاية الشارع. وكالعادة تمر أمام دكان الشايب محمد. يوقفك ويبدأ في ترداد النصائح كلما نسيت نعليك. ماذا تفعل فقد كنت مستعجلاً تريد أن تعود بسرعة حتى لا تفوتك الحلقة الأخيرة من مسلسل السندباد البحري. تخفي تدمرك منه، ثم تواصل مشيك لتجد ذلك الطويل يترصدك بأسنانه المسوسة محاولاً أن يشاكسك. كأنه يعرف موعد خروجك من البيت أو أنه لا يدخل إلى بيته أبداً كأنما يعشق الوقوف أمام الباب. ربما لا يصنع تلك المعاكسات لك أنت فقط.. ربما هناك ضحايا آخرون. يوقفك.. ويبدأ في التويخ والتفريع. كنت صامتاً تشاهد انتشاءاته تتطاير مثل العصافير حول رأسه الكبير، وتشاهد عضلات فمه تتحرك بدون تعب. لكنك تشتعل حرقه وتدمراً.. حتى بدت عضلات وجهه مغرية لك، ففاجأته بلكمة قوية في وجهه سمعت بعدها اصطكاك أسنانه.

ركضت هارباً بسرعة جنونية ودخلت البيت. أغلقت الباب الخارجي، ثم دخلت الغرفة وأغلقت بابها. دخلت خزانة الملابس وأغلقت بابها. وبينما كانت أمك تنتظر الخبز الطازج انكمشت أنت داخل الخزانة ولهاثك يهز بابها ويرقص الملابس، بعد ذلك شعرت بارتياح.. وكأنك تقود غيمة.. تخترق بها باب السماء وإلى جانبك سندباد صغير، أشعرك بالانتصار.

أين الذبابة؟

رن جرس الاستراحة.

صفوف الدراسة لفظت ما في جوفها من أرواح صغيرة تراكضت بفرح وشغب لتكدس أمام فم المقصف. خرجت أنت من صفك وتبعك الانكسار والحزن.. لأنك نسيت مصروفك اليومي في البيت.. رجوت أن لا تأتي أمك كعادتها قاطعة كل تلك الأميال لتوصل إليك مصروفك المنسي. مائة بيسة.. خمسون للعصير والأخرى لفطيرة الجبن، مرات كثيرة كنت تراها عند باب غرفة الدراسة والعرق يتصبب منها.. يدق قلبك الصغير رافة بها.. توبخ نفسك على ذلك النسيان.. تستأذن المعلم كي تعطيك مصروفك.. فتشاهد الارتفاع يميظ عنها تعب المسافة.. وحينما تذهب يطاردها حنينك.. تتشوق أن تركض وراءها وتحضنها لولا وجود المعلم. ورغم ذلك تتابع الفرحة عندما تضع المائة بيسة في جيب دشداشتك.. وتفكر في الدخول إلى معركة المقصف.. مرارًا هرسست نفسك بين الأجساد.. مرارًا رجعت إلى البيت بدون طاقة.. لتهدئ أمك أزهار الحزن.

الآن تمشي دون نقود.

تطلع إلى الطلبة وهم يتراكمون بدشاديشهم البيضاء وطاقياتهم الملونة. تلمح جماعة الأشبال.. تعرف أنهم يقومون بتنظيم الطلبة في الطابور، وفي الاستراحة، كان لكل فصل اثنان منهم، ولم تفكر يومًا بأن تنضم إليهم، لماذا لم تفكر؟ رأيت شبلاً يركض في الممر.. قدماء مسرعتان تسابقان بعضهما..

لكن ضحكاته تسبقهما. وعندما اقترب منك، وبدون سبب يذكر، مددت إحدى قدميك بسرعة وأسقطته بقوة حتى اصطدم بكامل جسمه على الأرضية الإسمنتية. أخذت تركض بشدة تاركا صوت السقوط يتردد في أذنيك. ركضت وركضت.. دخلت الفصل يسبقك لهالك.. أغمضت عينيك حتى أخذت أنفاسك تهدأ تدريجياً. جلست على كرسي طاولتك الذي يشاركك فيه اثنان. رن الجرس من جديد، هذه المرة تحول الرنين إلى عصا سحرية أسكتت المدرسة. ساد الهدوء.

دخل المعلم ممسكاً بعصاه البغيضة.

بمجرد رؤيتك لتلك العصا، تتحول المدرسة في عينيك إلى كابوس. مشهد سقوط الشبل يتردد في ذهنك.. وصوت السقوط يخترق أذنيك. والخوف من فكرة العقاب يداهمك. هل رآك أحد؟ ماذا حدث لذلك الشبل؟ ما الذي جعلك تسقطه؟ حتماً أنت لا تعرفه ولم يسبق لك أن رأيته.. ما هذه الفعلة الحمقاء؟ ماذا لو أصابه شيء؟ كان معلم الحساب بدأ كعاداته في طرح الأسئلة بعد أن رقصت الأرقام على السبورة السوداء. وفجأة دخل الفراش حمدون ومعه ورقة صغيرة. قرأها المعلم ونطق اسمك: (أحمد.. إنته مطلوب عند المدير.. يا الله يا خويه خد شنطتك.. وروح). إذن فهي الكارثة.. لقد كشف أمرك.. في تلك اللحظة تمنيت أن تلقي بنفسك في حضن أمك.. إنه يوم العقاب.. ماذا سوف يحدث لك؟ حملت حقيقتك.. وبينما كنت تهم بالمغادرة سمعت صوت زميلك يستأذن المعلم بالذهاب إلى الحمام.. لكن المعلم كعادته يخرسه ويأمره أن يجلس في مكانه.

مشيت باتجاه مكتب المدير.

تتابك وساوس عديدة، وفي الوقت نفسه تفكر في زميلك الذي لم يسمح له المعلم بالذهاب إلى الحمام.. ولكنك تجزم بأنه سوف يفعلها في حقيقته أو في الكيس المخصص للسندويتش أو زجاجة الماء.. سوف يفعلها خلف ظهر المعلم.. فقط يتتهز الفرصة ويفعلها. تفكر، لماذا لا يسمح لكم المعلم بالذهاب إلى الحمام؟

وصلت إلى مكتب المدير.

فجأة.. رأيت أباك جالساً هناك. تتساءل.. أبهذه السرعة انتشر الخبر؟ هل مات ذلك الشبل؟ هل سوف تسجن وأنت ولد صغير؟ أتريد أمك فعلاً في هذه اللحظة؟ هل ستفتقدك؟ بهدوء دخلت غرفة المدير وقلبك يقفز أمامك متحولاً إلى كرة من نار. ابتسم المدير. هل يهزأ منك؟ اهتزت صلته الذهبية وأمرك بالجلوس. ثم وجه كلامه لأبيك: «يا أخ راشد.. ابنك ده مؤدب وشاطر.. ليه عاوز تنقله لمدرسة تانية؟». تساقط الدهول على رأسك كالطر. رد عليه أبوك بعد أن لمح توترك: «والله لولا انتقالنا إلى بيت ثانٍ ما كنت نقلته.. لكن زين عشان تكون مدرسته قريبة من البيت الجديد».

حينها بدأت تتأمل ذبابة كانت تقف على صلعة المدير.. لم تجدها.. فكرت:

«ربما هربت من النافذة».

الشمس لا تجد من تقدم له دفئها

صحراء منقطعة بالخيام والناس، سماؤها بلا شمس، غيومها قطن مغموس
في حبر أسود. تمتد يدك وتعصر الغيوم بخفة لتقطر رذاذًا باردًا. سرعان ما
يتحول الرذاذ إلى قصيدة تتساقط حروفها ببطء.
ربما أنت شاعر، لك نساؤك، ولك أطفالك، تجعل منهم فراشات ملونة
تحوم حول الخيام، وهناك رجال عنيدون مكافحون، يتبادلون البكاء
والضحكات والنزاع والصراخ.

واحة جبلية منقطعة بالأشجار والبرك الآسنة، وربما أنت شاعر، لك
أحلامك، ولك صوت مثل صوت العندليب يطير ويدثر عائلتك الجبلية.
وهناك نجوم لا تسقط في رمال سمائك، بل تنبش فيك ذاكرة واهنة.
بلغت من العمر خمسة عشر عامًا، بدأ يتدفق في قلبك دم العشق لفتاة لم تر
إلا عينيها فقط. تانك العينان كوّنتا بحيرة حارقة من الحب داخلك، وبينما كنت
ترسمهما ملاكين يترامضان على نعومة الرمال جاءك أبوك وأسر لك بأن موعد
ختانك⁽¹⁾ قد حان. فوجدت نفسك تسقط في بطن بئر مليء بالجمر.

(1) تنتمي أجواء الختان في القصة إلى الفلكور الشعبي العماني. ويمكن للقاريء أن
يطلع على بعض تلك الأجواء في كتاب (البلاد السعيدة) لبرترام توماس.

انمحت عينا الفتاة من ذاكرتك وتذكرت طقوس الختان، حاولت أن تبعد بجسدك ناحية صحراء الربع الخالي، وتطلق عنان أفكارك وحريتك حيث بحيرة هادئة أو حيث جلسة شعر بدوية ترطب من خلالها عطشك.

لكنك تعرف بأنك سوف تجلب العار لقييلتك بمجرد هروبك، فرضت الهروب وأعلنت المجازفة. خرجت من الخيمة، وزج بك في ساحة الاحتفالات. دائرة من الرجال والنساء والصبية. هتاف للرجولة المنتظرة. أشباح تأتي وتروح وتسبح في هواء ملبد بالانتظار. إبل تغرز أفواهها في البرك الموحلة. انتشل أحدها رأسه من الماء ونظر باتجاهك وأصدر حنيناً عالياً كأنما يدعو للركوب والرحيل. لمحت صبيّاً عارياً يتلذذ بشرب الحليب من إناء فخاري ففجأته يد صلبة دقت رأسه فانسكب صياحه مع الحليب. انتابك شعور بالشوق ناحية طفولة لا تعباً بشيء. حاولت أن تبعد عيني الفتاة اللتين عشقتهما، لكنهما تتضحان الآن أكثر.. وأكثر من قبل، ربما حاولت أن تستنجد بهما، لعلهما تتشعلانك من صحن الرمل هذا.

أصبحت وسط الدائرة البشرية. العيون تطارد بطولتك. تفكر لماذا يختارون هذا العمر للختان؟ أجلسوك على صخرة ساخنة، ناولوك سيفاً حاداً لترميته إلى الأعلى وتلتقطه كي يكتشفوا بوادر رجولتك، رغم ثقله إلا أنك رميته ناحية السماء، ثم التقطته بصعوبة، وكاد يسقط ويقطع رجلك المشنتتين على الرمال. وفجأة ساد صمت وجعل قلبك ينشطر، إنه الرجل الذي سوف يفجر آلامك كلها.

جلس الخاتن أمامك ووضع عدته بجانبه وشمر ساعديه. جاءت فتاة على وجهها خمار تحمل سيفاً آخر وتقف خلفك مباشرة، أنت تعرف بأنها إحدى قريباتك، ومن هول اللحظة لم تعبأ بمن تكون. أمرك الخاتن أن ترفع يدك اليسرى إلى أعلى وأن تنظر بتحدٍ في عينيه. وأمام الجميع تناول آتته الحادة وقطع القشرة الخارجية لذكرك. ولقد نبهك أبوك الامتناع عن الصراخ وإلا جلبت العار. بلعت ألمك وصراخك في بطنك وتصببت عرقاً، وسمعت هتافاً لا ينتمي لأصوات البشر. بعد أن انتهى الرجل - الذي رأيته بغضباً - من مهمته، كان عليك أن تنهض وتدور حول الدائرة البشرية رافعاً وخافضاً سيفك الحاد دون أن تظهر أي ألم. ولكنك رأيت غيمة سوداء تدخل عينيك.

خرجت الغيمة السوداء من عينيك فاستيقظت على آلام السياط. كان أبوك ينجز مهمته أيضاً. إذن لم تثبت رجولتك. سقطت في أول امتحان. هجرتك نظرات النساء. وتانك العينان اللتان عشقتكما صارتا منكسرتين. جلبت العار. هربت منك أشجار الصحراء. جفت أمامك ينابيع عديدة. واندثرت كهوف مغامرات الطفولة. كان يتمنى والدك أن يشاهد الأغاني والأهازيج بعد ختانك، ويراك كالفرس الجامح تركض بدون ألم. لكنك سقطت. وذبت بعدها في الرمال والكهوف، ثم وجدت نفسك تهيم في نجومها الذهبية، وتلتحق بجلسات الشعر في كل قبيلة تزورها. أصبحت شاعراً منكسراً.

واحة جبلية منقطعة بالخيام والناس، سماؤها دون شمس، غيومها قطن مغموس في حبر أسود. ربما أنت شاعر بدوي جئت من بطن الصحراء، لك كائناتك البعيدة، لا تسمع سوى لغطها.

شيئاً فشيئاً ازداد لغطهم وأصواتهم.. حاولت يداك أن تمنعها ففشلت.. تطايرت أصواتهم مثل الشرر ناحية كهوف بعيدة ودخلتها، هناك لسعت رجلاً متجمدين منذ قرون، فدبت فيهم اليقظة، تحركت رؤوسهم المدببة المليئة بالنوم والأحلام، وسرت فيها حياة ما بعد النوم، أخذوا يحدقون بعضهم في البعض بغضب شديد واستغراب.

قام الرجال ذوو الرؤوس المدببة وأزاحوا صخرة كانت تسد جدار الكهف من الداخل، كشفت عن ساحة مليئة بالأحصنة والرماح. ركب كل واحد منهم حصاناً وأمسك رمحاً طويلاً مسموماً. خرجوا من الكهف مشهرين رماحهم، قصدوا الواحة الجبلية، حدقوا في السماء بغيظ وحقد، ثم هجموا، كل واحد منهم ثقب أكبر كمية من الخيام والناس والأشجار. وبعد أن أشبع سهمه، قذف به ناحية الغيوم فاخترقها بضراوة كي تتمزق وتستحيل إلى شذرات قطنية بيضاء. وبعد ذلك تعود الشمس حزينة لا تجد من تقدم له دفئها، حينها تنسلُّ يداك ويتوقف قلبك ويجف حبرك. لأنك لم تستطع أن توقف الرماح المسمومة.

رعشة الصوت الثالث

إن مرت أبة أذن نأحية الباب؁ على الفور سوف تلتقط صياح طفل وأنة ضعيفة؁ ولن تسمع الصوت الثالث.

تغسل زوينة بنت حامد ظهره المجدد بإسفنجة مشربة بالصابون؁ بينما أناته تداعب أذنيها؁ ثم ترش له الماء فينسب ببطء ليختلط مع الصابون ودهن الجلد. تشكل كتل رغوية تغوص في ثقب الحوض؁ ومع كل هذا الخليط تاهت دمة أو دمتان من دموعها.

تأاول جاهدة الانتهاء من تنظيف هذا الطفل العجوز. كل لمسة لجلده تتولد عنها رعشة. تسمع نشيج طفلها وصياحه لكنها تخاف أن تترك زوجها وحده في حوض الحمام حتى لا يسقط ويشج رأسه مثل المرة الأخيرة. السنون تركض أمامها وتراكم على ظهر زوجها السبعيني المريض؁ وتشهد على جدارتها وإتقانها دور الممرضة والزوجة والأم.

تأمل أيامها في الماء المتساقط بغزارة على صلعته ولحيته. تتذكر ليلة زفافها إلى هذا الرجل العجوز الذي لا يرغب في مداعبة أحفاده. تتذكر نظرات ابن جيرانهم المليئة بالحب والشوق حينما كان يمر أمام منزلهم.. لكنه لم يجسر يومًا على محادثتها.. إنها أيام مشحونة بالانتظار والخوف.. أخرجها أبوها من الصف السادس رغم حبها للمدرسة والمعلمات.. تفرغت لمساعدة أمها.. تكسر قلبها وهي تشاهد صديقاتها يذهبن للمدرسة.. يا لجمال تلك الملابس الزرقاء.. كثيرًا ما داست على

آلامها حينما ساهمت في زفاف الكثير من صديقاتها وهي تغني وترقص
لهن، حتى خطفها هذا المتكور تحت الماء، ماذا سيحدث لو أن أباهما
رفضه. سقطت دمعة على يدها بينما كانت ترمق جسده النحيل.
تركته في الحوض برهة لتركض إلى طفلها الذي ازداد في صياحه كي
تحمله وتهدهده، ثم جلست ترضعه وتستمتع بحركات يديه الصغيرتين،
ولكنها تذكرت زوجها. عادت وفي حضنها الطفل إلى الحمام لتجد رغوة
الصابون حمراء تغوص بسرعة في ثقب الحوض.

بعيداً عن شاطيء الإسكندرية

بعد أن ابتعد شاطيء الإسكندرية بطيوره.. توغلت داخل السوق.. ورأيت أقفاصاً مملوءة ومفتوحة تهتز في دكان الإسكندري، تهتز مع كل يد تلمس طيراً أو أرنباً. عيون مذعورة تحديق بعضها البعض وفيما حولها.. تشع منها الحيرة والترقب.. لا تحاول الهرب ولا تحرك أجنحتها وكأنها خدرت.

مساعد الإسكندري بعد أن يقوم بوزنها يرمي له الطير أو الأرنب بسرعة فائقة، فالزبائن على عجلة من أمرهم، بينما السكين الحادة تعمل بجدارة في يد الإسكندري.. فهي لا تتوقف عن قطع الرؤوس النحيلة. يناوله أربعة طيور صامته مرتجفة.. تقوم السكين الحادة بفصل الرأس عن الجسد في ثوان.

أسأل الإسكندري: «لماذا لا تهرب الأرانب.. لماذا لا تطير الطيور؟». نددت عنه ضحكة صغيرة دون أن يتوقف عن القطع، إذ تحولت يده إلى آلة للذبح. فقط قال لي: «تفضل يا بيه.. حمامة.. فرخة.. أرنب. إنت شاوور بس». ليس لديه وقت للإجابة إن كان يعرفها.. ابتعدت عن الدكان وما زال السؤال يدور في ذهني: «لماذا لا تهرب.. ما دامت الأقفاص مفتوحة؟».

بيت وحيد في الصحراء

رأسك فوق الحنفية. رأسك أمام المرأة. الماء يتدفق في يديك. الصابون ينفخ رغوته ويكثفها ليأتي الماء بعد ذلك ويلتهمها. ترفع رأسك لتجد داخل المرأة فتاة تنظر ناحيتك أو ربما تنتظرك حتى تنتهي من غسل الدهون العالقة في يديك ورائحة السمك التي ستظل حتى الغد. أدرت ظهرك.. لم تجدها.. من هي؟ ربما كانت أمك أو أختك أو حبيبك. انتظرتك فأصابها الملل وذهبت لدورة مياه أخرى.. ولكنك وحيد في هذا البيت منذ زمن.. تصبغ شفتيك بالصابون وتتساءل من هي يا ترى؟ تباً.. لماذا لم تتكلم؟ وتفكر بأن المرأة لا تعكس الحقيقة وإلا كنت عرفت تلك الفتاة. الآن لا ترى داخل المرأة سوى وجه بشفتين مصبوغتين بالصابون. ولمحت بطريقة خاطفة ذلك اللون البني الغامق حول عينيك.. لكنك تجاهلته وخرجت. تحسست صمت البيت وهدوءه.

كنت تشاهد أخويك جالسين يلعبان (الورق)، تأسى لهما، وتقول في نفسك: «الورق والكرة هي حياتكما.. أليس هناك مستقبل آخر؟». فجأة يتطلع أحدهما نحوك لترى في عينيه معاناة البحث عن وظيفة، يصيبك صدام، ثم تتجه إلى المطبخ حيث أمك وشقيقاتك يحضرن العشاء، وتعرف أن أباك رابض في دكانه ينتظر سماع أذان العشاء كي ينهي عمله.

تنهد وتقول: «أين كل هؤلاء؟». تسقط على الأرض منهارًا وتبكي بحرقة.

تسمع حركة في الغرفة المجاورة. تنهض وخوف يتسلل إليك. وبينما ترتعش تفتح باب الغرفة، وإذا بجميع عائلتك بداخلها يتسامرون ويضحكون ويأكلون التمر ويشربون القهوة، لكنك تلاحظ أنهم لم ينتبهوا لوجودك ولم ينظروا ناحيتك وكأنك غير موجود. صرخت فيهم لكن دون جدوى. وفجأة لمحت الفتاة التي رأيته داخل المرأة منذ قليل، كانت ساهمة تحديق من خلال النافذة ناحية الأشجار. خفق قلبك وأحسست بشوق عارم لها. لكنك لم تستطع دخول الغرفة لعدم وجود مكان تمشي فيه.

خرجت من باب البيت واتجهت إلى حديقته الصغيرة لتقصد تلك النافذة التي تطل منها تلك الفتاة، لكنك وجدت الأشجار يابسة والنافذة لا يطل منها أحد، ثم قصدت الشرفة فوجدتها وحيدة. تنكس رأسك.. وتبلع ألمك.. وتسقط على أوراق صفراء.. لتسمع صوت تكسرها تحت جثتك الثقيلة.

تقف من جديد وتفكر أن تلقي نظرة على جيرانك الذين طالما رحبوا بك في كل مرة يشاهدونك فيها ومن ثم يدعونك لتناول القهوة، لكنك تعتذر، ثم تنوي أن تبادلهم الدعوة لكنك تتردد وتنسى الأمر. جئت بكرسي قديم، تذكر أنك كنت تجلس عليه وتقرأ وتتأمل أشجار الليمون والريحان والفيفاي. وقفت عليه ولكنك لم تر سوى جبال وصحراء.

اكتشفت إذن أن بيتك نقطة في صحراء. داهمك الرعب ورجعت داخل البيت من جديد لتستنجد بعائلتك. لكنك لم تشاهد سوى الصمت والهدوء يضحكان ويمرحان.

تصرخ: «أين الجميع؟».

مرت الفتاة من جانبك وصعدت السلالم، بعد أن رشك جسدها بعطر تعرف أنك اشتريته ذات مرة، لكنك لا تستطيع أن تتذكر لمن أهديته. صعدت وراءها لكنها لم تعبأ بك. ناديتها بصوت مخنوق لكنها لم تسمعك، شاهدت وجهها حزينا وشارداً، أما عيناها فقد احمرتا من أثر الدموع. ثم شاهدتها تتناول لوحة كنت اشتريتها من أحد البلدان التي رحلت إليها، وبدأت هي في تأملها، ثم أخذت تنظف زجاجها بلحافها الملتف حول رقبتها البيضاء، وأرجعتها للجدار.

حاولت مرة أخرى محادثتها، لكنها لم تسمع. بعد ذلك شاهدتها تدخل غرفة وتغلق بابها. حاولت أن تفتحه لكن دون جدوى. شعرت بالجوع وذهبت إلى المطبخ لتأكل، لم تجد به أحداً. فتحت الفرن ووجدت سمكة مشوية لا تعرف من أعدها، لكنها لذيذة.

بعد أن انتهيت من السمكة اتجهت لتغسل يديك من الدهون العالقة بهما ورائحة السمك التي ستظل حتى الغد. كانت الحنفية تسكب الماء بغزارة والصابون يهرب من الماء، وعندما نظرت في المرأة وجدت الفتاة ساهمة بداخلها. أدرت رأسك بسرعة كي تجدها تبتسم لك وتسألك إن

كنت ترغب في تناول الشاي بالنعناع أم عصير الليمون. لكنك ضحكت
وحضنتها بخوف، ثم بكيت بحرقة لأنك لم تحضنها.
وعندما أدت رأسك جانباً وجدت مئات من الجدران، معلق عليها
مئات من المرايا.

كل مرآة يقف أمامها رجل،
وكل مرآة بداخلها فتاة جميلة،
وبداخل كل فتاة قصة لا تنتهي.

شارع يغوص في الظلام

الليل موحش يغطي قُرى ذليلةً تحت أعناق الجبال. المطر يحاول اختراق زجاج السيارة.. ويدي تمسكان المقود بخوف وحذر.. وعينايتا تعبتا من ظلام حالك لا يقدر على اختراقه سوى تلك الدوائر الضوئية التي تتطاير من السيارات المتباطئة.

بالأمس كانت لي نظرة معجونة بالتفاؤل والطموح والخيالات الجامحة.. تبدأ بعبور البحر وتمر بقتال عصابة، كما يحدث في الأفلام، وتنتهي بجسد امرأة: كنز المراهقة المدفون في صحراء خيالنا. أتذكر كل هذا..

وأندم على كل قشعريرة سرت بجسدي وهو في عنفوان شبابه، قشعريرة الألم وفشل الإشباع لأي جوع. الوحدة في هذا الطريق مؤلمة، وصوت البرق يرعبني ويوقظني لأخرج قليلاً من صندوق التفكير.. وأقف محارباً بسيارتي هذا الشارع المبلول.

لكني أعود مرة أخرى..

وأذكر قصة سمعتها عن هذا الشارع، وأرتجف، أحاول أن لا أتذكرها، لكنها تسيطر علي، أحاول أن أطردها كما أطردها بعوضة مزعجة، لكنها تعود مثل ماردين وتلدغني في وقت لا أحبه.

والقصة عن رجل قاد سيارته في شارع يغوص في الظلام. شاهد رجلاً آخر واقفاً على ناصية الشارع يطلب منه الوقوف. تردد كثيراً ثم أوقف سيارته. ركب ذلك الرجل وطلب منه أن يوصله إلى بيته. ظل صامتاً وطلب منه أن ينزله في قريته، وقبل أن يترجل من السيارة صرخ قائلاً: «بعد أن تتركني، سوف تصادف بعد نصف ساعة من عبورك لهذه القرية كلباً يعبر الشارع.. عليك أن تدهسه.. أفهمهم؟ وإلا سوف تنقلب سيارتك وتتحطم.. أرجو أن تأخذ بنصيحتي.. ادهسه ولا تتردد وإلا سيكون هذا الشارع قبرك». وحينما هم بمغادرة السيارة وابتعد قليلاً اعتقد السائق بأنه شاهد قدمي الرجل وكأنهما تحولتا إلى قدمي حمار.. أغمض عينيه ليجد الرجل قد اختفى.. قرأ آيات من القرآن الكريم.. وظل واجماً يتصبب من وجهه العرق.. ولم يحرك السيارة إلا بعد فترة طويلة حينما أدرك أنه عليه أن يسرع.. وتمنى أن لا يرى أي كلب يعبر الشارع.. وجعل يقنع نفسه بأنه كان يتوهم رؤية تينك القدمين. وفجأة صادف كلباً يمر أمام سيارته المسرعة.. وقرر فجأة أن ينقذ نفسه، وينفذ نصيحة الرجل، ويدهس الكلب الذي تطاير جسده أشلاء.. ولم يحاول أن يوقف السيارة بل واصل سيره تجاه بيته.. والرعب يكسر عظامه.. وحينما وصل إلى البيت شاهد جمهرة من الناس، وسمع صياحاً وعويلًا.. وقيل له إن أباه قد مات في حادث دهس.

شاهدت مجموعة من الرجال يقفون على قارعة الطريق، ويطلبون مني أن أقلهم إلى قراهم القريبة.. تلك القرى النائية بين أفخاذ الجبال.. لكنني أهرب

منهم، فيركضون ورائي ويتحولون إلى حيوانات مختلفة.. أتخيل نقطة وصولي إلى البيت، حيث أحضن السرير بعمق.. أستلذ بالدفع والأمان.. وأنام.. أنام طويلاً.. بعيداً عن سطوة الجبال وهذا الشارع الذي يخترقها بصعوبة.

وماذا لو وقفت نساء كثيرات على جوانب هذا الشارع؟ ولوحن بأياديهن الناعمات لكي أقف وأقلهن، طبعاً سوف أقف وأحمل الواحدة بعد الأخرى، ولكن ماذا لو تحولن إلى أفاف؟ نساء.. نساء.. ليتهن يتقاطرن مع هذا المطر، فأحترق لوعة، سأرسمهن حوريات يمتطين القمر المختبئ وراء الغيوم. وأجدي أعود..

وأكتشف بأنني أقود سيارة صغيرة في بطن شارع نحيل، ثم أطيّر من السيارة لأرسم مدناً وقرى تؤلم أجساد سكانها، ثم يصيها الجفاف، ليرقب الجميع انشقاق الأرض بعد جفافها، بعد خلوها من آخر قطرة ماء ومن آخر قطرة زيت. الرعب لا يسبب سوى الهلوسة، تتفجر في داخلي خيالات مستفزة، ومرة أخرى.. كل شيء يبدو وكأنه طفل يلعب ببراءته، وبالتدريج يفقدنا في صحرائه حينما يبدأ هذا امرأة يتلألأن في عقله.. وحينما يعرف طعم النقود، ثم يقفز ويقفز في بطن الحياة إلى أن يسقط في بئر الخونة، أي خونة وأي هلوسة هذه، أحاول أن أكون جاداً وأنتبه لشبح الطريق الملتوي، هذا الثعبان الأسود.

أحاول إذن أن أكل الوقت والظلام والمطر، أتخيل.. حلمة نهد متكور تحطم سجنًا قماشياً وتهرب ناحية فمي العطش. أتجرع لذة. وأرى السماء

تقطر نبيدًا. أرتفع بخفة لأقضم قلب فاتنة. سفينة تحملني على صدر بحر هادئ. رحيق اللذة يسري في عروقي ويحول الظلام إلى غطاء بارد. الرعد يفتت المشاهد فتبعثر، وأجد نفسي مقدوفًا في شارع طويل، وسيارتي لا تأكل إلا ظلامه. ليت هذا الليل يرسل لي فتاة. ليت يتحول إلى متعة.



بدأ المطر يخفف من حدته. وأصبح ناعمًا وموسقيًا. تشجعت حينها أن أسمع أغنية لفيروز، وإذا بي أصل إلى طريق مسدود، طابور طويل من السيارات، في البداية لم أعرف سببه، ولكن دار في ذهني احتمالان كثيرا الحدوث: حادث كبير أو هبوط وإذ غزير. واكتشفت أنه السبب الثاني. أطفأت محرك السيارة، ومشيت ناحية التجمهر، واطمأنت نفسي لوجود كل هذا التجمع أمامي. بدأ الخوف يتلاشى تدريجيًا. وبدأت أحداث وشخص حقيقية تشكل أمامي، وربما تمتعني بعض الشيء. هذا تفسير سابق لأوانه. السماء تضيء وتنطفئ، برودة جميلة وقطرات مطر خفيفة تقبل وجهي. الظلام حالك. لا أميز الوجوه إلا حينما تشرق السماء، أسمع أصواتًا مبحوحة وكسلى، وأخرى لها زعيق وتذمر.

الماء المتدفق تحول إلى مديّة قطعت الشارع إلى نصفين، أحدثت له جرحًا عميقًا، ثم ألقت الجرح بالحصى والتراب والسيارات الغريقة. إنه هدير ماء ساخط يتدفق من بطون الجبال.. هل المشهد جميل أم مخيف؟ الجميع مشدوه، صوت يقول: «لو كان هناك جسر صغير لما حدث كل هذا التأخير

والتعب للناس، في التوفيق اجتزت واديًا شبيهًا بهذا الوادي». وصوت آخر يقول: «إنه ثالث وادٍ أصادفه اليوم.. قضيت طيلة اليوم في الشارع مع زوجتي وأولادي.. لو أمتلك سيارة (فورويل) لما حصل لي كل هذا التعب». وبالطبع أصحاب السيارات الصغيرة، مثل سيارتي، يرتعدون خوفًا من خوض هذا الوادي.

نساء وأطفال داخل السيارات، أصواتهم مشحونة بالفزع، حينما أقرب منهم لا أجد سوى عيون قلقة، الجميع يفكر بالعودة، وإذا ما كان سيلتقي بأسرته مرة أخرى أم لا. ألمح سيارة عرس مزينة، أبحث عن العروس، فأجدها معصورة بين امرأتين، ومؤكد أنها مغطاة بشال ثقيل يعوقها عن رؤية مشهد الوادي، وخلف سيارتها حافلتان مليئتان بالنساء الصامتات، لعلهن أطفالن أغانيهن وزغاريدهن بمجرد أن رأين الوادي. سيارة أخرى بها عريس يخرج رأسه من نافذة السيارة ويزعق في أحد معارفه أن يعجل بإحضار شيء يساعدهم على تخطي هذا الوادي، فتعاجله امرأة، تطل من إحدى الحافلات، وتقول له: «لم الاستعجال يا ولدي؟ سوف تحصل على نصيبك». يضحكني المشهد. فالعريس له حظ من المطر، وسوف يتأخر حظه من الحب. القلق يساوره بشدة وربما يساور العروس أكثر، تلك المضغوطة بين جسدين ناقلين ومغتاظين. لو كنت في مكانه نزلت من السيارة وحررت حبيتي وغصت بها في أعماق الجبال المظلمة. لأفجر تلك اللذة المجنونة.

الشاحنات، هذه الوحوش الضارية، بأنواعها وأحجامها الكثيرة، منها المكشوف السقف ومنها المغطى، تقف الآن خائفة أمام الوادي، لا تستطيع أن

تلتهم ما أمامها، إطاراتها العملاقة قادرة على أن تسحق كل شيء تحتها، كثيرًا ما التهمت سيارات صغيرة مستعجلة في هذا الشارع وبقما كان ينبض بالحياة، تفتتها فتتطاير دما يشربه الشارع. والشارع غصن وحيد فروعها صغيرة تمتد لنشوب القرى. والقرى لعبة الجبال المفضلة. والشارع يستحيل في أحيان كثيرة إلى شعبان ينفث سمه للسيارات وراكبيها، يلتف بخبث بين الجبال والتلال، يرقد في وديان جافة، وإذا ما امتلأت بالماء تتحول إلى سكاكين تجرح الشارع والناس، إنه شارع طويل ترقد تحته أرواح بلا أنفاس ربما كانت ذات يوم سعيدة.. ربما.

انتظرت أن يهدأ الوادي.. انتظرت رجلاً يركض باتجاه الوادي وله قدما حمراء.. انتظرت امرأة تهديني صدرها. انتظرت مطراً هادئاً.. انتظرت طفولة رحلت وراء الغيوم.. وانتظرت الشارع..

هذا الشارع المؤلم..

حتى يستعيد حياته بعد أن يضمده جرحه..

وانتظرت..

ضجيج البيت الكبير

كم من المرات حاولت تجنب ذلك الطريق الذي يحرسه الذباب، وأحاول أن أستبدل به طريقاً آخر.. لكنني أنسى، وأجد نفسي في مواجهتهم أولئك الذين يخرجون من ذلك البيت الكبير، ليخطبوا سيارتي من كل الجهات، حينها أحاول جاهداً أن أتحنى عن أجسادهم حتى لا أؤذيها.

(1)

من بداية الصباح تخرج من البيت بخطى بطيئة، قدمها اليمنى تحولت إلى ملعقة صدئة تحفر وراءها خطاً من التراب.. يدها اليمنى مقوسة.. خصيلات شعرها منتصبة مثل المسامير.. عيناها دائريتان جاحظتان مثقلتان بسداجة وحيرة، ومثقلتان برموش لهما لون الحليب الفاسد.

تذرع الشوارع وتدخل المحلات وتداهم الزبائن، من يرها أول مرة يخفق قلبه خوفاً، ثم يتحول الخفقان إلى رافة. تمد يدها اليسرى النافرة العروق والمليئة بالبقع البنية الغامقة وتطلب مئة بيسة. القليل من يفهم الحروف الممزقة التي تسقط مبتلة من فمها المكور المحشو بالزبد والأسنان النخرة، ومن لا يفهمها، ولا يحاول أن يفهمها، يسأل البائع، ولكن البائع لا يجيب، فقط يكشف عن غضب خامد ويبدأ بطردها، قلة من الزبائن تمنعه، إذ أغلبهم يفضلون ابتعادها، ربما حتى لا يعطوها المئة بيسة، ولكن السبب الأقوى حتى

لا يشاهدوها، ومن يصاحب أطفاله يمنعهم من رؤيتها، حتى لا يسبب الرعب لهم، وحتى لا ينفجروا بكاءً من الخوف.

قذفها والدها داخل أفواه الشوارع، وصارت العيون تتبعها مستغربة وعيون أخرى تصد عنها، ينهرها الأولاد ويطاردونها، يطردها الباعة الآسيويون من المحلات التجارية، وبعد فترة اكتشف الجميع أن لها أختاً أصغر منها تشبهها وتتبعها في كل شيء، فكونتا ثنائياً شاردًا، تبحثان عن قلوب مرتعشة، لتغرزا فيها شوكة ألم.

(2)

يحبو على بطنه من باب البيت مثل دودة منهكة، يصل إلى حيث موقع البساط الذي فرش بجانب الشارع. فمه ينفث شتائم تحرق من يسمعها، بعد تسعين سنة صار جسده مقوسًا ونحيلًا ومهترئًا، يجلس ويتناول القهوة مع التمر، يصرخ لجميع السيارات التي تمر من أمامه، وعندما يشعر برغبة في التبول يفعلها أمام الجميع، ثم يأتي بوعاء الماء وينظفه، كل فرد يمر يطأطي رأسه، أولاد الحارة يضحكون، أصوات غاضبة تأتيه من داخل السيارات يرد عليها بالشتائم، وبعد أن ينتهي من القهوة يحبو قاطعًا الشارع غير عابيء بالسيارات، حتى يصل إلى باب الدكان الذي أمام البيت، ويتوسد الرصيف وينام، وحينما يستيقظ يرجع إلى حيث كان، وحين يسمع الأذان، يأتي بوعاء الماء ويتوضأ أمام المارة ويبدأ في الصلاة. وإن مرت أي فتاة أمامه ينظر إليها

بحسرة وتوجع، ثم يضرب بيده على الأرض محتجاً على الزمن وما فعله به، يتناول دلة القهوة ويشرب بغیظ، يصبق على الأرض لعله يستجدي الراحة.

(3)

غالبًا ما يفتح باب البيت بغضب ويخرج عاريًا إلا من مئزر يستر وسطه، يمشي كالسلحفاة، يتقدمه كرش ضخيم يحمله بصعوبة، ونهدان متهدلان كأنهما يتهيآن للسقوط. ينخر وينهر عنه أولاده الذين يتساقطون على الأرض كالذباب، يلمح أباه وهو يحبو ناحية الرصيف، ضحكة خبيثة تخرج من وجهه المملطح بالشحم. يتجه ناحية المايكروबाص صارخًا في أولاده أن يتعدوا عنه حتى لا يتسخ، فيرتعبون منه ويتشرون ناحية الحارة والدكاكين، ومنهم من يشاكس جده النائم ليحصد بعض الشئام التي سوف يستخدم إحداها لاحقًا. أما صاحب الكرش فيمسك قطعة قماش متسخة ويبدأ في تنظيف المايكروबाص، ولا ينسى أن يقذف من بطنه غازات حارقة، يصل سمها حتى أنف أبيه النائم على الرصيف أو يهرش شعر ابنتيه الشاردين.

(4)

الباب يقذف بجسد ضخم مغلف بقماش أصفر تصدر منه رائحة نتنة. كأنها تترنح في مشيها مثل السكران، تحمل في يدها صحنًا كبيرًا مملوءًا بالتمر والبرتقال ووعاء الماء وفناجين القهوة، تتجه إلى البساط الذي فرش في الناحية اليسرى من مكان الجد، تنتظرها ثلة من النساء الشبيهات بها مع اختلاف ألوان

الأقمشة الملفوفة بأجسادهن، ولكنهن يتفقدن في الرائحة التي تتحد مع الغازات المنبعثة من الأب صاحب الكرشي. بيدأن في تبادل القصص وتناول التمر والبرتقال. ويستمتعن بمشاهدة الوجوه التي تمر داخل السيارات، والاستماع إلى شتائم الجد، والسخرية من زوج صاحبة البيت ومن كرشه المتهدل. وإن تصادف ورأين ذلك الفأر النائم من تحت مئزر الجد بيدأن في النزاع والتذمر دون إغماض أعينهن، حينها تأمر صاحبة القماش الأصفر أحد أولادها كي يذهب ويغطي مئزر جده. ويذهب بحذر ويغطي المئزر ولكنه لا يسلم من ضربة بيد الجد وبعض الشتائم.

كم من المرات حاولت تجنب ذلك الطريق، واستبدل به طريقاً آخر.. لكنني أنسى، وحينما أصل بعد عناء إلى البناية التي أسكن بها، أنسى تلك الشخصوس، وأغلق باب غرفتي محاولاً النوم، لكنني أراهم يتحركون على جدران الغرفة، ثم ينطفئون بمجرد سماعي لهدير الماكينة الذي ينبعث من المزرعة المجاورة. أفتح النافذة وأصرخ في وجوه أصحابها ليطفئوها ولكن، لا أحد يسمعني.

2. زارعو غابة الإسمنت

(3)

أخرج من غرفتي.

يдахمني باب حزين، حين أفتحه، أجد نفسي في بطن السوق، أستحم بالعرق والبخور، فتؤلمني قدمي اليمنى فجأة، لأكتشف أن حذاء هندي أسمر ضغط عليها بقوة، يتأسف الهندي ضاحكًا، ولن ينسى أبدًا أن يُرَقص رأسه، ولن أنسى رائحة شعره المبلل بالدهن.

(4)

أرجع لغرفتي.

حيث تابوت تشبه سرير، أفقًا عيون المساء وأدخل خزانة الملابس ثم أخرج، وأدخل خزانة الكوايس، حيث لا أحد يرحم أحدًا، حيث مارديدي الرحمة، ثم يأكل الأطفال والنساء، تلتف حوله حمير وقرود تحلق فيه ببلاهة. وعندما أهرب، أجد نفسي في التابوت، أهدق من خلاله في غرفة كثيفة لم أرتبها منذ شهر، وأعرف أن هناك صبحًا ساخنًا ينتظري خارج الباب، خارج الزمن، خارج التاريخ.

رسالة من تلك البلاد

جلس الهندي إلى جانب الهندي أمام محلات بيع الدواجن. ذو المئزر الأحمر فتح رسالة وبدأ في قراءتها، بينما هز ذو المئزر المخطط رأسه، وكشف عن حنين خامد. ثمة أولاد تركوا مخابئهم وأحضان أمهاتهم وأخذوا يهزون أرض الحارة برقصهم وصراخهم، لكنّ الهنديّين رغم ذلك ازدادوا غرقاً في نشوة الرسالة التي لها رائحة المطر والشاي الطازج.

في لحظة مبهجة خرجت الدجاجات من أقفاصها، إذ سمح لها الباعة بنزهة قصيرة، وبدون صوت تحلقن حول الهنديين الغائسين في الحروف الهندية، فجاء الأولاد ببركان صخبهم وأطفؤوا المشهد ورجع الدجاج إلى أقفاصه رامقاً سكين البائع.

ركب أحد الأولاد صاروخ قدميه الحافيتين وانتزع الرسالة من بين الأصابع المبتلة بالعرق، ثم اخترق الأزقة الموحشة. فرح المشاغبون باللعبة وازدادوا مرحاً، بينما اشتعل الدهول والحزن في صاحبي الرسالة.. تسمرا في مكانهما غير قادرين على الحراك، عبثاً حاولت عيونهما العثور على الشبح الصغير الذي أكلته الأزقة والبيوت المتراسة.

حينها، سقطت دمعة من أحدهما أمام نملة كانت تمر بقربه، لكنها لم تستطع أن تنال منها، فتمرغت في التراب.

صورة واحدة للذكرى

خرجنا من ثلاجة المجمع التجاري بالقرم. شفت الهواء الساخن من وجهيهما الأسمرين برودة الثلاجة. مشيا باتجاه مواقف السيارات. امتد رأساهما بحثاً عن شيء. أخرج الأول من جيب بنطلونه كاميرا تصوير صغيرة. وقف الآخر أمام سيارة مرسيدس حمراء وتهياً لمواجهة عين الكاميرا، في لحظة شاهد صورته الملونة تطير مخترقة السحب كي يحضنها صدر خطيبته، وتبللها دموع الشوق.

حينما هم الأول بالتصوير، والآخر في صنع ابتسامة كبيرة، جاء الأولاد المشاغبون وصنعوا حاجزاً أمام الكاميرا. غضب الهنديان وصرخا في وجوههم. لكن الأولاد رقصوا حولهما مطلقين صرخات حادة. لكن الهنديين فشلا في إطفاء الشغب. أدخل الأول كاميرته في جيب بنطلونه وأمسك بيد صاحبه وشده إلى موقف آخر للسيارات وبالتحديد أمام سيارة بي أم دبليو. ومرة أخرى.. كاميرا وابتسامة كبيرة. لكن الأولاد استمتعوا بالرقص أمام عين الكاميرا. انطلقت شتائم هندية. على الفور فهمها الأولاد وأخذوا بالرد عليها. تحركت سيارة البي أم دبليو ثم اختفت. تساقطت الحسرة مختلطة بالعرق من وجهي الهنديين. ثم غضب أحدهما وصرخ بقوة في وجوه الأولاد. لكن أحدهم قذفه بعلبة فارغة في رأسه. ركض الهنديان ناحية الشارع. واستقلا أول مايكرو باص صادفاه.

وقفت سيارة مرسيدس ونزل منها هنديان مهندمان، بينما الأولاد يتعاركون حول من يأخذ الكاميرا المنسية.

صور كثيرة للذكرى

الدائرة مغطاة بعشب أخضر، وبأزهار وورود، فتحولت إلى زهرة جميلة لا يفسدها سوى أعمدة الإضاءة المزروعة على حوافها، رغم أنها تتحول في المساء إلى شموع ربت بعناية في كعكة العيد. السيارات تدور حولها كمن يطلب ودها.

وفجأة جاءوا كالنحل. حطوا في قلب الزهرة. عددهم كبير رجالاً ونساءً، سمر البشرة، رؤوسهم تلمع تحت الشمس. يلبسون ملابس ملونة ومزركشة. رجلان منهم يحملان كاميرتي تصوير. الكاميرتان تأكلان صورهم وتحتفظان بها، وصور أخرى لهم تلتقطها أعين من يقود السيارات حول الدائرة. معظم الصور التي تؤخذ ستكون خلفيتها أنواعاً مختلفة من السيارات إلى جانب سور قصير من الأزهار الملونة.

يمتصون رحيق الانتشاء من قلب الزهرة، ثم يتبادلون الضحكات والابتسامات. تقفز نحلتيان في النصف الثاني من الدائرة، وهمت إحداهما بالسقوط، فأوقفتها عين كاميرا التصوير لبرهة، وأكملت بعدها السقوط على العشب الرطب. تطايرت ضحكات الرفاق رغم اتساخ ملابسها.

نحلة سعيدة التفتت يمنة ويسرة، ثم انحنت وقطفت وردة صفراء ووضعتها على الفور داخل حقيبتها الصغيرة. الكاميرتان مازالتا تعملان بجهد ملحوظ. العشب يئن. والأضواء بدأت في الاشتعال لتتحول الزهرة إلى كعكة. والنحل بدأ يطير ناحية أزهار أخرى.

أقرب نافذة إلى القلب

كعادته يشتعل حماسة في تنظيف نوافذ الكلية. يتسلق ذلك السلم الطويل ناحية السماء. يمرر قطعة القماش على نافذة الطابق الثاني بهدوء، ومثل كل مرة، وبتيك العينين الضيقتين يقرأ ما بداخل الغرفة: طاولة مطعمة بالكتب والمراجع، كراسٍ مبعثرة، أرفف محشوة بالكتب ملتصقة بالجدران، أحياناً يجد الغرفة خاوية، وأحياناً أخرى يرى طلبة يقرؤون ويتكلمون لكنه لا يسمع أصواتهم.

يستمتع بنشاطه المعتاد في تنظيف الزجاج، ولا ينسى فزع الطالبات حينما يداهمهن بوجهه العابس وتلك القماشة المبتلة. تلك أفضل نوافذه، أما الأخريات فلا يشاهد فيها سوى أشخاص يجلسون خلف طاولة وأجهزة حاسب الآلي.

صعد السلم في يوم غائم، مرر القماشة على الزجاج، وإذا بعينيه تأكلان مشهد الطالب وهو يحضن الطالبة خلف باب مغلق، ارتبك بشدة وداهمه الطالب بثورة غضب، إذ تناول كتاباً وقذفه تجاه النافذة ووجه العامل. انتفض العامل واهتز معه السلم، وخلال ثوانٍ سقط جسده أمام طالبة كانت تمشي تحت السلم. وقبل أن تفقد وعيها، رأت جثته مثل زجاجة تسقط لتكسرهما الأرضية الصلبة.

ذو الشعر الناعم

ذلك الطائر الكبير الأبيض القادم من الهند لم يضيع طريقه. وقف فوق سحب النخيل وقذف بالوسيم ذي الشعر الناعم، وسقطت ضحكته قبل سقوط جسده في السوق الصغير. تراقصت الجبال البنية اللون وأشجار النخيل والوديان في عينيه، وتذكر العشرين سنة الشاقة التي دفنها في حفرة بمنزلهم الخشبي التي ما زال المطر يبللها. غاص في البلدة وأصبح يتنهد بعمق وشوق كلما رأى رقصات العيد، وبنادق مشهرة ناحية السماء، ورجالاً أشداء يرقصون ويضربون الطبول ويتقاطر عرقهم فيملؤون الجو بحموضته، ونساء بملابس ملونة يغنين ويرقصن. يهوى الموسيقى والعزف على الجيتار، غير أنه لا يملك واحداً، جاء بعد أن شحنته الأيام بآلامها، يريد أن يقاتل الفقر، كما أنه يحلم بشراء جيتار والالتحاق بفرقة موسيقية، ومن يدري، ربما سوف يشارك فيما بعد في أحد الأفلام الهندية، ليكون نجمًا ساطعًا يدغدغ خيال المراهقين.

ابن عمه بحث له عن كفيل كي يعمل في خياطة ملابس نسائية. قاده إلى بيت بغرفتين، كل غرفة تحتضن سبعة أشخاص، وكل شخص يحاول أن يمسك بأكبر قدر من الأحلام بيديه وعقله. أعد ابن عمه احتفالاً صغيراً بمناسبة انضمامه لقافلة العمال. طبخ مع زملاء آخرين عشاءً يتكون من الدال والشباتي والمصالة. لا يهم البذخ هذه الليلة، المهم هو الاحتفاء بأي عامل جديد قادم من الهند.

اجتاز التدريب على الخياطة بسرعة ومهارة اندهش لها معلمه، خصوصًا التطريز واستعمال الماكينة، ونجح في مهنته وبدأت النقود تصل شهرًا إلى والديه، وكثيرًا ما يذكرهما لرفاقه، متفاخرًا، وأنهما دائمًا ما كانا يغذيانه موسيقى مع الحليب منذ ولادته، فأبوه كان عضوًا في فرقة شعبية تشارك في الأعراس. بعض زملائه يستهزيء به بينما الآخرون يعرضون أسنانهم النخرة ويهزون رؤوسهم إعجابًا به، مرة صرح له أحدهم أنه رآه في حلم يراقص ممثلة مشهورة ويدافع عنها ضد عصاة لصوص. وسامته تشعل الحسد بين زملائه، خصوصًا إذا ما شاهدوا الإعجاب ينطلق من عيون النساء اللواتي يحضرن لخياطة ملابسهن.

وفورًا دخل قلبها بمجرد رؤيتها لشفتيه الحمرتين، وصرحت لصديقاتها بذلك وأنها بصدد أن تضمه إلى صندوق أسرارها، وأن الهنود لا يفتحون صناديق الأسرار لأي كان، أو أنهم لا يجيدون فتحه. أصرت في ذلك اليوم أن يأخذ لها المقاسات بنفسه، افتضحت عيون زملائه غضبًا وغيرةً. احتاج قلبه وأحضر شريط القياس ومرره على جسدها الناعم الذي لم يلامس مثله من قبل، وحينما وصل منطقة الصدر فاح دمه، وفاح دمها، ولكنه كان حذرًا جدًا حتى لا يقع في خطأ ويسقط في غياهب السجون. ثم دعتة إلى بيتها بصوت منخفض محاولة توصيل الرسالة له بعريية مكسرة، وخرجت تاركة بخورها وعطرها يتوغل في كل نقطة بالدكان ليهيج كل قلب بداخله.

دب القلق في أوصاله واستشار ابن عمه الذي هنأه على هذا الكنز وطمأنه بأن هذه المرأة مطلقة، وأنها تعيش وحدها بالبيت.

طرق بابها بخوف، وكأن أحدًا يطارده. ظهرت له بملابس النوم، تطاير منها عطر الياسمين. دخل، وسحبته، إلا أن القلق سخن دمه. أجلسه على كرسي جلدي، ركبت في حضنه، حاولت معه كثيرًا، كان قلبه يشتعل ويحتاج، إلا أنه لم يعرف سببًا لفشله. غضبت بشدة، بينما هو متمسك في مكانه غارقًا في ذهول لم يألفه قط. ولكن بعد ذلك غاصا معا في ليلة نارية لم يحلم بها، ولم ير مثلها في أي فيلم شاهده.

صار يزورها مرتين في الأسبوع، حتى أنه بدأ ينتفخ وكرشه يتكور، ووسامته بدأت تتحلل شيئًا فشيئًا، بعض زملائه سخروا منه بسبب الغيرة التي كانت تنخر فيهم، شب نزاع حاد بينهم، تدخل ابن عمه ونقله إلى بيت آخر، غرفة جمعته مع خمسة آخرين، العدد أقل من ذلك السكن، ولا توجد سخريات كالتي يواجهها هناك، وتلقى ترحيبًا لا يوصف من زملائه الجدد، ودار حديث عن تلك الفاتنة وقصص الحريم وما يحدث من مواقف داخل دكان الخياطة، وعند منتصف الليل، بينما كان يغط في النوم، أحس بوخز في مؤخرته، نهض مفزوعًا وكأن كابوسًا نهشه، امتصه الخوف حينما رأى الخمسة الأشخاص حوله يتغامزون ويحدقون فيه، لعب يتساقط من أفواههم، أحس أنه داخل صندوق صغير مظلم وسوف يخرج منه في الصباح ويذهب إلى عمله الذي أحبه، ومن ثم يتجه إلى

مواعده الأسبوعي حيث المتعة والحب، وقد قرر عند نهاية هذا الشهر أن يستمتع بإجازة ويزور بلاده وأهله ويشترى الجيتار من هناك لأنه أرخص بكثير. ولكن الأمر أكثر من كابوس.

جاء الصباح وذهب كل منهم إلى عمله بعد أن عب كل واحد منهم شيئاً مع الحليب، أما هو فلم يستطع أن ينهض من على الفراش الذي كان لزجاً من أثر الدم والأشياء الأخرى، كان البيت خالياً، أخذ يحبو بصعوبة ناحية المطبخ.

بعد دقيقتين فقط.

سيارات إطفاء غاضبة تصرخ في وجوه الجميع.

طائر كبير أسود.. يطير.. يطير بعيداً حاملاً معه حنيناً خامداً ناحية مقابر واسعة.

لهات باتجاه السماء

1. يا للذة السريعة.
2. هرب من المزرعة وركض لاهثاً باتجاه الجبال. جلس تحت أقرب ظلال ليهدىء من روعه.
3. كانت تنحني صباح مساء أمامه، تتكور مؤخرتها في خياله عند الليل، عندئذ يبدأ في مداعبة سريره.
4. واصل الركض باتجاه السماء، سقط مذعوراً في حفرة، انغرزت صخرة مدبية في قدمه، إلا أنه واصل الركض بقدم ونصف.
5. كانت تكشف عن جزء من صدرها بعد أن تتعمد في إسقاط اللحاف الذي يغطي رأسها، وأحياناً تساعد الرياح على ذلك، وتضحك مع إخوتها الصغار ضحكات غنج. وذات مرة.. سقطت، طار ثوبها، انكشفت ساقان يضاوان لمعتا تحت ضوء الشمس، بينما كان هو معتلياً نخلة شاهقة الطول، اشتعل دمه وكاد يسقط، وحصيلة تلك الليلة خيالات جامحة، ساقان يمتص منهما رحيقاً مالحاً حتى يصل إلى فوهة البحر، مسرحية ظلت تتكرر كل ليلة.
6. رأى أفعى تعصر نفسها بين الصخور، زاده الفزع وهرب من ذلك المكان واصطدم بغصن شجرة، شج رأسه، سالت دماؤه فتذكر تلك الدماء الحارة.

7. المزرعة ساكنة، وكان يغفو تحت شجرة ليمون. فُتح باب المزرعة، استيقظ وراها تدخل، وسألته بصوت ناعم عن أبيها، ردهزة من رأسه: «ما فيه معلوم. اليوم.. ما في جاي». كأن الخبر أراحها، توجهت ناحية ساقية الماء المواجهة له تمامًا، جلست بعد أن رفعت ثوبها، غرزت ساقها في ماء الساقية، قدماها طرشت الماء، غرزت نظراتها في عينيه. فاح الدم في كل أنحاء جسمه، اتسعت حدقتا عينيه، انتصبت الأغصان، أمسك أحدها بقبضة يده وكانت لشجرة ليمون وكسرها، نهضت واتجهت تتمايل ناحية النخيل، تنحني لتلتقط غصناً أو حجرًا لتقذفه ناحية الأشجار، تسقط لحافها فترجعه.

8. رأى عقرباً يدخل في جحر أحد الجبال الساخنة، الشمس تحرق جروحه، يزداد لهائته، يعرف أنهم يطاردونه، سوف يسجن لا محالة، سوف يجلد ويقتل، هذه التعب وسقط في ظل شجرة جلية.

9. لم يستطع أن يهدى من ثورته، لم يكن في المزرعة أحد غيره وغيرها، كل يوم ترسم له مشهداً ينفذه في دماغه وقت الليل، اليوم ربما مشهد من نوع آخر، مشهد غير خيالي، ودون دراية تنفلت قدماه ناحية جسدها الطري، يحضنها من الخلف، يضغط على صدرها، يرقدها على العشب، ذابت تحته مثل قطعة سكر، اشتعلت التأوهات، اهتزت المزرعة.

10. ها هما قدماه تنفلتان من جديد.

11. يا لقمة الجبل الشاهق. صخور تحطمت بعيداً عن قلب الجبل.

المروحة البشرية

انتابتهم نوبة هزت كيان الهندي الضئيل، فقد تركوه معلقاً في المروحة الكهربائية المعلقة في السقف، رأسه إلى الأسفل يناطح الهواء المختلط برائحة الأصباغ الحديثة للغرفة. أخذت المروحة تدور بقوة وهو يدور معها، يتدفق دمه ناحية فروة رأسه، والرعب يتزع قلبه ويهضمه، ظن أنه ميت لا محالة، أشياء الغرفة تدور بسرعة البرق في رأسه، ولا يستطيع أن يميزها. جدران تتميع وتدور، يتذكر الطابوق الذي كان يصفه طوال السنة.. كل شيء يتماهي: النوافذ.. الأبواب.. المصاييح، كل الأشياء اختلطت وصارت عجينة هلامية تلف رأسه.

يتدفق الضوء من ثقب صغير في الجدار الخشبي. الهندي يتأمل ذرات الغبار المصطفة في بطن الضوء، مكونة عصا ذهبية، ثم يتقل إلى الذبابتين اللتين تتعاركان على حواف كأس الشاي. تتقل واحدة منهما ناحية ظهر البنجلاديشي الذي يغط في نوم عميق. بينما عصا الضوء تخترق جلد هندي آخر يقفز فجأة منبهاً زملاءه بانتهاء الاستراحة وبدء العمل.

آخرون تلفظهم الغرف الخشبية ليتشروا بين الأسمنت والطابوق وأسياخ الحديد وآلات البناء الأخرى. الهندي ينظر في السماء ويتمتم بآيات من القرآن، ثم يلاحظ تلك العضلات الآسيوية التي تتحرك وتنتفخ وتعرق من أجل أن تنصب الجدران بنوافذها وأبوابها، ومن أجل أن تغطي البيوت بالأسقف،

ومن ثم تتدلى منها مراوح ومصاييح. يزرعون البيوت كل يوم، تنتشر مكونة غابة إسمتية تزيد من حرارة الجو في الصيف.

لكنه يلاحظ نظرات تتابعه من بين زملائه لا يعرف سرها. نظرات غير مريحة منذ أول طابوقة رصها بالأسمت على الحديد، وحتى آخر لطخة لون على الجدران.



حينما أفق، رأى وجهًا غريبًا فوق رأسه يهتز ويتكلم لم يسمع منه سوى كلمة (سلامتك)، عرف منها أن الشخص من بلاده، ثم تلاشت غيمة الإغماء تدريجيًا حتى سمعه يردد (سلامتك.. سلامتك)، أغمض عينيه من جديد وتساءل كيف تحول إلى مروحة آدمية أمطرت آلامًا بدل الهواء، جسده متيسر، والصداع كثيف في رأسه، فتح عينيه من جديد وما زال الرأس الدائري الضارب في سمرة داكنة في مكانه وبنفس هزاته وكلامه (سلامتك). فرك رأسه ثم عينيه، تحسس جسده، تيقن أن الحياة ما زالت تدب في عروقه.. سأل باندهاش (ماذا حدث.. أين أنا؟). رفع رأسه وانكشفت فوقه مروحة كادت ترجع موته، على الفور أغمض عينيه وفتحهما تجاه الرجل الذي كان قد قصد طاولة صغيرة، مديده وأمسك علبة أخرج منها حبة، جاءه بها ومعه كأس ماء، حثه على شربها، لم يمتنع وشربها لعلها تأكل هذا الصداع، رجع للمروحة التي فوقه، كانت تفتح فمها وأنيابها الثلاثة وكأنها تستعد لالتهام ما تبقى منه. شاهد مراوح كثيرة تهبط عليه من السماء وتتقاذفه بين كل البيوت التي ساهم في بنائها.

كان الرجل الأسمر متوسط البنية، لم يحلق ذقنه، كث الشارب، وثمة شرخ ملتئم في خده الأيسر، قميصه أبيض غير مرتب. جلس على كرسي خشبي صغير، كانت الكآبة والفوضى تعم الغرفة، سريرها الوحيد الذي هو نائم عليه الآن ممزق اللحاف، في الركن طاولة صغيرة محملة بأدوية وكأس ماء، أما نافذة الغرفة فهي خشبية.

نظر إليه الرجل الأسمر.. ثم ضحك وقال له بالهندية:
- «ما الذي حدث لكي تصبح بذاك الحال؟».

لم يستطع أن يرد عليه، كان قلبه يخفق بشده، انتابه خوف وقلق، لكنه سرعان ما استرجع الأحداث إلى أن تذكر كل شيء، وبدأ يزداد خوفًا وارتعاشًا، تذكر أنه كان مروحة وأخذ يتساءل لماذا أتى به هنا ولماذا أنقذه.. وجد نفسه يسأله من جديد:
- «من أنت.. وماذا حصل لي؟».

نهض الأسمر بسرعة من على الكرسي كأن شيئًا لدغه.. فتح النافذة وصك على أسنانه.. وقال له:

- «أنا موهن عامل (الانترلوك).. وجدتك بتلك الحال المزرية.. أطفأت المروحة وأسعفتك وجئت بك إلى بيتي.. من الذي ربطك في المروحة؟».

لم يستطع أن يخبره بالحكاية لأنه خجل من بوح حماقات تشعل الجبال ضحكًا، فأطلق عليه كذبة مفصلة شربها مرتاح البال، بينما الأسمر نظر ناحيته باستغراب وكأنه لم يفهم ولا كلمة واحدة.

نظر ناحية النافذة وتوقع ريحًا عاتية تخترقها، كي تنتشل كل ما في الغرفة.

وجه الرجل الأسمر عينيه ناحية النافذة وسأله عن اسمه. ثم جاءه صوت يقول: «محمد». نهض الرجل الأسمر متذمرًا وخرج من باب الغرفة وأغلقه.. ثم عاد ومعه صينية بها كوبان من الشاي. وضع الصينية وخرج من جديد. شاهد المروحة اقتلعت نفسها من السقف وتبعته وأغلقت الباب، ثم تبعته مراوح أخرى تأتي من النافذة، كل واحدة تفتح الباب وتغلقه بقوة. ثم عاد الرجل الأسمر وفي يديه سكين كبيرة. لكنه وجد «محمد» تحول إلى مروحة معلقة في السقف.

تلذذ

سوق مطرح أنابيب تعبق بروائح مختلفة وتمتلىء بالحر.
أنابيب ضيقة تنبض حياة وحركة.
عباءات سوداء تمشي، ذات وجوه منقطة بحبيبات العرق، وأخرى
دون وجوه.
الكل يعوم في الحر.
بعضهم يتسابق إلى بائع الآيس كريم.. وبمجرد دفع الثمن يذوب في
الأيادي.. وتتنافس الأفواه في لحس ما تبقى من حليب.
جلست في مقهى قديم يقع في بداية السوق من جانب البحر. طلبت
شراب الفيمتو البارد، ثم قهوة عمانية. مرت امرأة شقراء بملابس البحر
مع رجل أشقر، جلدهما منقط ببقع بنية. المارة استرقوا النظر ناحية جسدها
بمن فيهم النساء. المشهد طبيعي، يصنعه البحر ويقذفه في بطن السوق،
فيتلذذ الجميع بثمار البحر. ودخل الباعة الهنود بعد ذلك داخل أوكار
مختلفة في دكاكينهم واختفوا للحظات. جاء رجل بدشداشة مقطعة وشعر
منفوش، مديده لزبائن السوق وللباعة الهنود الذين صدوا عنه وفي عيونهم
تلذذ غريب. مسنون عمانيون وشباب ونساء افترشوا البسط المهترئة
ليبيعوا أشياء رخيصة جدًّا، معظم زبائنهم من الهنود والعمالة الآسيوية
الأخرى الذين يستلذون بتقليب البضاعة وهرسها بأياديهم المبللة
بالعرق، ويستلذون في التراجع عن شراء شيء منها، بعض الباعة الهنود

والبكستانيين والبنجلاديشيين ممن لهم دكاكين مكيفة صرخوا ناحية الباعة العمانيين إن كان لديهم صرافة، فرجع الصوت كالصدى يثقب الجدران.

يخترق الهنود وزملاؤهم من الجنسيات الآسيوية الأخرى هواء السوق. يستلذون بقذف بصاقهم في أي مكان بالأرض.. وتارة يلصقونها بالجدران. هكذا يحفر الواحد منهم جوف حلقه، ويصنع صوتاً مزعجاً، ثم يكوم كتلة البصاق في فمه، ويطلقها بتلذذ في مكان ما على الأرض. بعد ذلك يمر منتصراً، ولا ضير في أن يهرش شعره المزيث.

سمعت صوت التهيؤ لإطلاق بصقة، لكن صاحبها أثر ابتلاعها بدلاً من إهدائها لأحد. رأيت بصقة لونها أحمر تنقذف وتلتصق في كرتونة لعبة مرمية على الأرض.. تتبعت المصدر فإذا به رجل بدشداشة وطاقية ملونة. بصقة أخرى خضراء تنطلق بسرعة ليتلعها ثقب صغير بالجدار، وتتبع المصدر.. فإذا به شاب في العشرين بأذن واحدة.

فجأة توجه الشاب ناحية المقهى وجلس بجانبني على الكرسي الطويل والوحيد المستند على جدار أحد البيوت. فاحت منه رائحة سمك. قبل أن يطلب الشاي السليمانى أهداني بتلذذ تجشؤاً مصحوباً برائحة كريهة التصقت في وجهي وسببت لي دواراً. انطفأت المشاهد التي اخترنت في رأسي منذ أن دخلت السوق. والتصق مشهد أذنه المقطوعة في عيني. تناول الشاي وأخذ يشفط بتلذذ، توجه برأسه ناحيتي وطلب مني سيجارة، وحينما قلت له بأنني لا أدخن، قطب جبينه الأسمر وبدأ عليه الانزعاج، بعد ذلك بدأ بتوزيع نظراته تجاه نهود ومؤخرات النساء اللواتي يمررن من

أمام المقهى. وبعد أن عب الشاي في جوفه أصدر ذلك الصوت الكريه، وكوّر شيئاً في فمه، وبحث عن مكان يجعله هدفاً للهجوم، نظر ناحيتي، ثم خطف نظره بسرعة تجاه صدر امرأة شقراء حتى اختفت داخل دكان لبيع التحف، وما زال فمه مكوّراً، وبدأ عليه الانزعاج من ذلك، ثم قام ومشى باتجاه البحر، وسمعت صوت القذف، ورفع يديه عاليًا وأنزلها بسرعة، كمن يستعرض انتصاره. دفعت حساب المقهى ومشيت باتجاه الكورنيش، ورأيت جميع من كانوا في السوق والكورنيش يبصقون في لحظة واحدة، دون أن يشعر الواحد منهم ببصقة الآخر.

المشط

حظ ذلك الشارع من السيارات قليل.
لم يهطل مطر في ذلك اليوم، ولم تمطر السماء نقودًا.
يوم الجمعة.. فضاء أبيض، تطير فيه الأرواح وتنفض عنها غبار عمل
أسبوع، يوم يتأهب في جوفه الهندي الأسمر للغوص في سوق روي
المنقط بأقرانه، هناك سوف يقابلهم، سوف يطبعون البصاق وأعقاب
السجائر في الشوارع، سوف يذوبون في سينما النجوم الحالمة، وبعدها
يسهرون بضحكاتهم المختلطة بالحنين في مطعم غيسترام.
لبس أفضل ملابسه، دهن رأسه بزيت النارجيل على نغمات أغاني
هندية كان قد شاهدها في فيلم لأميّتاب باتشان، رقص معها ودندن،
أمسك المشط وسرح شعر رأسه، بعد ذلك خرج من البيت تاركًا وراءه
عفونة الأسبوع. مشى مستحضرًا طفليه وأمه وأباه وراتب آخر الشهر،
قطع الشارع بقدمين قصيرتين وفي الوقت نفسه واصل تسريح شعره.
داهمته سيارة صاروخية.
فطيرت المشط.. ليستقط في أقرب قمامة.
مع أن حظ ذلك الشارع من السيارات كان قليلًا.. قليلًا.

حظ الشارع من السيارات قليل

وضع رأسه الثقيل على الوسادة الباردة.. غاص فيها محاولاً أن ينشط نومه.. ولكن أفواهاً عديدة تقذف صراخها ناحية مداخل رأسه. فأمه تصرخ في وجهه وتعاتبه على كسله، ومن جهة أخرى حاول أبوه إقناعه بالذهاب إلى صلاة الجمعة. حبيبته تفجر قنبلة صراخ في سماعة الهاتف، لم يعرف سببها، لينقطع الاتصال. أخته تصرخ في وجه أخوتها بينما كان هو جالساً بينهم.

يحمل جسده بغضب، ويسقطه من على السرير. يمسك بالوسادة ويرمي بها من النافذة المفتوحة، فتسقط على نبتة الريحان. كميات الصراخ في رأسه تزداد ولكنها لا تسقط كالوسادة على رائحة الريحان.. ثم يخرج من البيت متجهاً ناحية البحر.. عازماً أن يسمع أغنية لفيروز، لكن ازدحاماً مرورياً وأبواق سيارات قطع أمنيته.. فيكتشف أنه تلقى رصيذاً آخر من الصراخ، ربما كان سبب الازدحام حادثاً أليماً أو سيارة تعطلت فجأة. انعطفت داخل شارع فرعي يحمل على كتفيه بيوتاً ومحلات. تمتد يده ناحية أغنية لفيروز لعلها تخفف من تراكم الصراخ في رأسه. يزيد من سرعة السيارة محاولاً الخروج من الشارع الفرعي والالتقاء بالشارع الذي يوصل للبحر.. لكن مرور رجل بتسريحته اللامعة هشم كل كميات الصراخ التي كانت تنهش رأسه.. ويلمحة البصر شاهد مشطاً يتطاير.

تشبه

قبل أن تصل السيارة كان الجبل يلد خرافاً.
قبل أن ينزل المطر حاولت الخراف قطع الشارع بأجسادها الحادة، ضغط
السائق بقدمه المغطاة بنعال أسود على فرامل سيارته، خففت السيارة سرعتها
مجبرة، تكسر صوت الفرامل وأربك ولادة الجبل. غضب السائق بشدة ووجه
كلامه للراكب بجانبه: «تباً لهذه الخراف.. تريد أن تفعل مثل الهنود».

خسارة الجبل

كان الجبل يشعر بمتعة وسعادة لأن خرافاً تهرش له ظهره.. لكنه سمع فجأة
فرامل سيارة.. عندما حاول هنديان عبور شارع بينما هي قادمة من جهة
اليمين.. انتزقت الخراف وتبعثرت واستاء الجبل لأنه خسر المتعة.

امتحان

تحت شمس ضاحكة لصباح مرتجف، تراود خالد آمال في اجتياز امتحان قيادة السيارة، بعد أن سقط في حفر ستة امتحانات، تمضغه الرسوم التي يدفعها أبوه في كل مرة يمتحن فيها، ذاكرته تطارد معلمه الهندي الذي كان يجلدّه بقواعد اللغة الإنجليزية، ظل المعلم يمتحن طوال العشر سنوات من وجوده في عمان ولم يحصل على رخصة القيادة. استحضر أيضًا صوت الصفعة التي وجهها المعلم العماني لخد أحد الهنود، بداءة صوته ما زالت تتردد في أذنيه حينما قال موجهاً كلامه للهندي المحمر الخد: «كلب.. عشرة اختبارات.. ما قادر تنجح.. وبعدك تكسر منظرة السيارة.. تعبتني».

خالد يتمنى أن ينجح هذه المرة ويأخذ سيارة أبيه ويمتطيها كحصان أبيض، سوف يحولها إلى مغناطيس يجذب البنات، سوف يملؤها عن آخرها. سوف يمر على أصدقائه كي يتسكعوا في المجمعات التجارية حتى تشفط عرقهم ببرودتها. هذه المرة سوف ينجح ويركب الحصان، خصوصاً أن أباه توسط له كي يساعده في اجتياز الامتحان. استجمع كل قواه الذهنية وطرده كل المخاوف، عليه الآن أن يركز في قوانين السير.

لم يحاول أن يقف عند خطوط معبر المشاة، نهر الشرطي الراكب إلى جانبه وقال له: «لماذا لم تقف عند خطوط المشاة؟ ألا ترى شخصاً يريد أن يعبر؟»، رد عليه خالد وعلامات البرود تدب في وجهه: «لكنه هندي».

امتحان رقم عشرة

يحك شعر رأسه بإصبعه. يلاحظ تسرب الدهن عليها وهي تلمع تحت الشمس. يمشي بغضب. يتذكر فشله في الحصول على رخصة قيادة، رغم حصوله عليها في بلاده. جاء من الهند ليعمل سائقًا، ولكنه عمل في محل للخضرة والفواكه. يلعن المعلم الذي انهار عليه بالضرب في صدره وخده. لا يقدر أن يفعل شيئًا. سوف يداس بالأقدام. كان الامتحان رقم عشرة. يعاود حك شعر رأسه ويحاول أن يجتاز الشارع من خلال معبر المشاة. لكنه ذهول حينما لم تقف سيارة تعليم القيادة لتجعله يمر كالبقية. تذكر أن عليه أن يجتهد في الحصول على الرخصة في الامتحان القادم. عليه أن يفعل ذلك. هز رأسه وواصل المشي.

الطابور والرجل الأخضر

يثرثر الهندي في سماعة الهاتف العمومي، كان يكلم أمه، ثم يتقل إلى زوجته، ويتبادل أحاديث تحقنه بالانتشاء والسرور وتزيد من ترقيص رأسه عند كل حرف يتفوه به. وراءه طابور من الهنود والباكستان والبنجال ينتظرون دورهم ويتبادلون النظرات ورائحة العرق.

سيارة مرسيدس نزل منها رجل غاضب بدشداشة وعمامة لونهما أخضر، كسر الطابور، وانتزع السماعة من يد الهندي، تبعثر التجمع بعد أن أصابه الاندهاش.. والأعين وسعت من حذقاتها. حاول صاحب الدشداشة الخضراء أن يجري مكالمة، فقد نسي هاتفه النقال بالبيت، إلا أن الهندي أبدى تذمره وصرخ محاولاً الاشتباك معه، ازداد غضب الرجل الأخضر وأمسك بالسماعة وضرب بها رأس ذلك الهندي عدة ضربات مبرحة أسقطته أرضاً، العيون تقافزت في ثنایا المشهد، تطاير منها اندهاش وغضب، الأيادي ساكنة في أماكنها، والأقدام تتراجع مرتجفة إلى الوراء. أسرع الأخضر إلى سيارته وانطلق بها بأقصى ما أوتي من سرعة.. مخلفاً وراءه دخاناً أسود، وأرواحاً تائهة ترتجف خوفاً وحزناً.

رماد اللوحة*

* صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في عام 1999 عن دار المدى للثقافة والنشر،
والطبعة الثانية في عام 2014 عن بيت الغشام للنشر والترجمة، مسقط، سلطنة عمان.

الإهداء

إلى

زوجتي

من يستأصل قلقي

ويجعله سرابًا

أدثرك بقلبي دائمًا

رماد اللوحة

- بدايتك فجر وماء

يأتي الفجر.. وأنت يا سلمان لم تنم بعد، خواطر غامضة تراودك، تتشكل بسرعة في أحداث متوالية غير مترابطة، عن الليل والفجر والبيوت والطفولة وعن أشياء أخرى كثيرة. الفجر يذكرك بالماء البارد.. والماء يذكرك بالسوط. عندما كنت طفلاً كان أبوك يرشك بالماء البارد في وجهك قبل أن يحل الفجر بدقائق.. يصرخ: «الصلاة خير من النوم»، صراخ حاد وماء بارد، ويتنصر الماء، يتحول إلى غيمة تداعب وجهك الصغير، المؤذن لم يؤذن بعد والليل ما زال بظلامه الكثيف. تقوم من الفراش متثاقلاً.. تشم رائحة خبز (الرخال) الممزوجة برائحة الخشب المحروق.. فتعرف أن أمك تخبز في ذلك الوقت وأنها تدعك عينيها بلحافها بسبب خيوط الدخان التي تسيل كي تزعجها بالحرقة.

يزجرك أبوك كي تتوضأ لصلاة الفجر من ماء (الفلج) الذي يبعد عن بيتكم مسافة عشرين شجرة ليمون وثلاثين نخلة، هكذا أحصيتها حينما بدأت تتعلم العدّ. عندما تصل الفلج تلفظ أنفاسك، تشاهده طويلاً جداً.. كثيراً ما فكرت في نهايته أين تكون، ماؤه يبدو مثل جلد ثعبان منقوش، لأن صخوره الماكثة في قاعه متنوعة ومختلفة الحجم، هكذا فكرت أن الفلج

ثعبان طويل لا تعرف أين رأسه، يزحف حاملاً الماء حتى يدخل بطن الجبل ويمر على قرى كثيرة مختلفة.

عند الفلج كثير من رجال القرية جاءوا للوضوء وتأدية الصلاة في المسجد الطيني الصغير القريب منه، كانوا يتسمون لك من بعيد، يلوحون لك بأيديهم مرسلين تحيتهم، وتسمع صوت أحد رفاقك يقول لك: «هاه.. سلمان كيف حالك لا تنسى اليوم موعد المباراة». وصوت آخر يداهمك من حنجرة جاركم بينما كان يهم بغسل فمه: «سلمان كيف حالك؟ كيف حال أهلك؟». كنت ترد عليهم بثقل لأن النعاس مازال يداعب عينيك، تفكر أن الماء سوف يبيل كل أهل قريتك وسوف يغسلهم من كل شر، ومن نفس هذا الماء يصنع أبوك سوطاً بارداً ولاسعاً يجلد به نومك.

أراك يا سلمان تحن كثيراً لذاك الزمن، زمن فجر القرية في طفولتك، كلما تذكرته أصبت برعشة حمى وحزن، لم تكن تعلم في ذاك الوقت أن ذلك الفجر ورائحة الخبز تلك تبعث فيك النشاط وصفاء الذهن والانتعاش وخصوصاً بعد أن تؤدي صلاتك، رغم مطالبتك بحرية الأطفال وكسر تسلط الآباء على أبنائهم. وها قد حدث الفجر من جديد، لكنه هذه المرة ليس في القرية، بل هنا بين هذه البيوت المترصة والمختنقة حيث لا يوجد ماء يلسعك وينتزع نومك وحيث لا تشم رائحة خبز أمك ولا تعد الأشجار والنخيل وقت ذهابك إلى الفلج. أراك تبحث عن فجرك القديم.

– أنت ورنين الجرس

رنين الجرس صوت كريحه.. رنين الجرس شبح مؤذٍ، كل الأشياء الجميلة ليست موجودة، كل شيء موجود ليس مثل رنين الجرس، الحب مثلاً غير موجود، ليس عند الجميع، وإنما عندك يا سلمان، أنت الجالس على كرسي خشبي مثل قط خجول ووجهك يلمع بؤساً وغربة.

الكرسي الخشبي تجلس عليه كل يوم كي تتحمل رنين الجرس، وإن تأمل أحد وجهك سيتذكر أن المطر لم يسقط منذ زمن بعيد وسيستأسل ألا تستحق أن تتذوق طعم الحب؟ أليس مهماً أن يظهر شخص مثلك لهذا الوجود؟ تجلس على الكرسي في مبنى عملك، تترقب رنين الجرس الذي يأخذك إلى المسؤول كي يرهبك بأوامره الساخطة، عندها تحترق وتغدو كتلة رماد، فالمسؤول جلاذ يتلذذ بلحمك، وأنت مراسل خجول.. حينما تتسلم المراسلات تحتفظ بها في يدك وصدرك خوفاً عليها من الضياع، والمسؤول يصنع كل يوم سخریات جديدة يلبسها لك، ليس المسؤول وحده وإنما كل الموظفين، جميعهم يعتبرونك ورقة بالية.

رنّ الجرس.. تستيقظ من غفوة قصيرة كنت تتأمل فيها خطوط السقف المشبعة بألوان باهتة.. طرقت باب المسؤول وفتحته ودخلت.. وبمجرد أن رآك، قال لك: «تعال يا قرد.. لا أعرف أية امرأة ستقبل بك زوجاً». تسقط كرامتك بين قدميك.. تتشظى إلى ألف قطعة وقطعة.. يحمرّ وجهك.. لا تقدر أن تفعل شيئاً سوى حبس أنفاسك وكظم غيظك خوفاً على وظيفتك الرخيصة. بعد ذلك تجلس على كرسي العقاب تنتظر بقية

الموظفين، منهم من يضربك على مؤخرة رقبتك، وآخرون يضربونك على ظهرك أو رأسك أو كتفك أو أماكن أخرى، وأنت ترتعد في كل مرة، روحك تأتي وتروح، تقفز عاليًا، تتألم وتبكي، تسيل دموعك، تقول في رجاء وحسرة: «ماذا تريدون مني.. دعوني.. دعوني».

يفتحون أفواههم كي تظهر أنيابهم التي زرعها المسؤول لهم، يرتبون على ظهرك، يقولون لك: «ما بك سلمان.. إنها مجرد مداعبة». تجمع في فمك بصقة كبيرة، لكنك تبتلعها في جوفك، كنت تتمنى أن تقذفها في وجوههم بمن فيهم الكرسي والجرس، ولكنك تخاف، شيء ما يشل تفكيرك عن القيام بأي فعل أحرق، أبوك وأمك وأخوتك في القرية ينتظرون قدومك عند نهاية كل أسبوع.

تتحس ثيابك وذقنك وأنفك وعينيك، توقن أنك رخيص وتتمنى في كل لحظة أن تعود إلى بيتك في القرية للبحث عن عمل، قصدت أحد رفاقك ممن يسكنون المدينة وسكنت معه مؤقتًا، تذكر الشمس التي صهرتك أيامًا كثيرة وأنت تبحث عن عمل، قدماك تورمتا من أثر المشي الطويل، بكيت كثيرًا في الليل متذكرًا عيني أمك وقريتك والفلج والمسجد الصغير، نصحك أبوك بالصلاة دائمًا وبغض بصرك، وبعد مدة طويلة وجدت هذا العمل كمراسل خجول تحمل الأوراق من مكان إلى مكان وبعض الأحيان تعمل فرأشًا للمسؤول، كل ذلك بسبب تركك المدرسة مبكرًا، وأنت تعرف سبب تركك لها. فقدت شهيتك للدراسة بسبب المعلمين الذين يشكلون أشباحًا مختلفة الحجم، فقط هناك معلم الرسم

الذي ارتحت له لأنه يشجعك كثيرًا، خصوصًا أنه اكتشف لديك موهبة الرسم، وبالطبع أنت لا تنسى المعلم الذي شد شعر رأسك ذات مرة حتى اقتلع بعضًا منه، وبعد ذلك ضرب برأسك في الطاولة، ولا تنسى المدرس الذي يأتيك في الأحلام حاملاً في يده سكينًا يريد ذبحك، وهو نفسه يزجرك وينعتك بالبغل كل صباح، وكل مرة تخبر أباك عن كل هذه الأشياء يزيدك ضربًا وزجرًا، وحينما أبديت له رغبتك بترك المدرسة رحّب بالفكرة واقترح أن تذهب إلى المدينة كي تعمل مثل بقية شباب القرية ليُشاهد فيك الرجل الذي يعتمد عليه، تتذكر أن أباك يصلي ويصوم وأنه فكر في الحج مرارًا لولا الديون التي عليه، وفي الوقت نفسه تتذكر أن أباك تزوج مرتين والآن يكره أولاده من الزوجة الأولى، ولا يسأل عنهم قط ويعتبرهم مثل أعدائه، وفي كل مرة يزورونه يزم شفتيه، وتتذكر أيضًا أباك الذي يلتهم العسل والتمر ويشرب القهوة تحت شجرة البيت كل صباح ولا يحب أن يفعل ذلك إلا بسرد قصص الناس وتغليفها بالشتائم، تتذكر أباك جيدًا منذ أن كان يرشك بالماء وقت الفجر.

- صباح المدينة

صباحك في المدينة صباح لئيم، غرفتك التي تعيش فيها لعبة توقن أنها يومًا ما سوف تتلاشى مع الرياح، تتحسر على باب الحمام الذي تهشم فجأة، صار الحمام عاريًا بدون باب، تتساءل كيف يكون الحمام بدون

باب، وكل شيء في داخله انكشف، وساحة أرضيته، حنفيته العجوز التي بالكاد تلفظ قطرة ماء، نافذته الصغيرة المتشققة والمشبعة بالغبار، صراصيره التي تشكل جيشًا يتدرب ليل نهار، الصابون المبعثر على الأرضية، معجون الأسنان المفتوح الفم، المرأة الصغيرة التي تحمل شقًا على شكل رقم سبعة.

وهكذا صار الحمام عاريًا، إن طلع أحدهم فوق الأسطح المجاورة لغرفتك فسوف يكشف الحمام، أراك تتحسر، توقن أنه لا يمكن أن يستمر الحمام بدون باب، بعد ذلك تتأمل جدران الغرفة وتتحسسها، نبضاتها تتدفق ببطء شديد. صارت مثل أي كائن حي يلهث بصعوبة، يا لهذه الجدران كثيرًا ما تصدعت، كثيرًا ما تلقت طعنات المسامير في لحم أجسادها، التهمت قسوة الأيام، تتخيل أي رصيف سوف يبتلعك بعدها.

وصباحك صباح لئيم، يركلك كل مرة خارج الغرفة كي تظل تتدحرج في الشوارع حتى يجلسك على الكرسي الخشبي في مبنى عملك وتنتظر عندها رنين الجرس، ورنين الجرس صوت ذئب جائع، تتذكر صبايا قرينتك حينما يخرجن إلى الفلج لغسل الأواني، كان قلبك يخفق وتشعر براحة حينما تنظر إليهن، ووجدت نفسك تحب المرأة والرسم، وتمقت شكل النقود ونظرات الناس، دائمًا ما تشعر بحرارة غريبة تسري في يدك تحفزك على أن تمسك القلم وترسم طيورًا تحلق بعيدًا عن الأرض، ترسم نساء جميلات وحدائق زهور وأشكالًا هندسية، كنت في طفولتك ترسم بقطع الفحم على جدران البيوت أشكالًا غريبة جدًا ليس لها

وجود، أشكالاً تبتكرها وكأنها سوف تتحقق في سنوات قادمة، بعد ذلك بدأت الرسم على الأوراق، مرة رسمت شجرة أوراقها سوداء وثمارها رؤوس آدمية، وتبدو الشجرة في اللوحة أكبر من المدينة وغائرة في سماء مليئة بالغربان وطيور أخرى غريبة الأشكال، وبعد رسمك لها تمعنت فيها جيداً مما أثار في نفسك الكثير من الأسئلة لأنك رسمتها بعد يوم كئيب وحارق انتهت ليلته بكوابيس كثيرة، حاولت بكل قوتك أن تستغيث.. أن تنادي أمك لتحضنك وتقرأ عليك آيات من القرآن الكريم تحفظك من كل سوء، لكنها بعيدة عنك في القرية، وفي الصباح اكتشفت أنك رسمت هذه اللوحة، ولم تستطع أن تتذكر بداية رسمك لها.

ومرة رسمت أشكالاً هندسية مختلفة تتطاير في فضاء اللوحة ويطير معها طفل يمسك بيده طائرة ورقية على شكل غيمة ذات وجه مبتسم، ومن الغيمة تخرج دوائر حلقيه متصلة وتهبط منها مثلثات، وكان الطفل - على ما يبدو في الرسم - يرتفع وابتعد عن المدينة التي كانت تحته على هيئة غيوم سوداء غائصة بين الجبال.

دائماً ترسم وقت جلوسك على الكرسي الذئب، مرة شاهدك أحدهم ووقف خلفك يشاهد ما ترسم دون أن تشعر بوجوده، خطف منك اللوحة، وقال لك: «جميل جداً.. لم تقل بأنك رسام موهوب.. رسمك جميل». شعرت يا سلمان برذاذ يسري في عروقك، هو رذاذ اللذة التي نادراً ما تذوقها، كنت الوحيد الذي يهتم بلوحاتك، رأي الموظف انتشلك بعيداً نحو كل شيء مبهج، لكن ذلك الشخص لم يدع الفرحة

تستمر لفترة أطول فقد رقص باللوحة وصرخ بأعلى صوته: «تعالوا تعالوا لدينا هنا رسام.. رسم امرأة.. تعالوا.. سلمان يرسم». تغضن وجهك، حضرت وجوه بالية تطلق ضحكات سخرية، مدّ كل واحد يده ليدغدغك، فتحولت على الفور إلى كرة تقاذفها الجميع وكادت ثيابك أن تتمزق، صمت الجميع وانصرفوا كاتمين ضحكاتهم ليفجّروها في مكان آخر، صرخ المسؤول في وجهك وقال: «وأيضاً رغم كونك زبالة.. فأنت قليل الأدب والتربية.. هذه الأشياء لا ترسم في هذا المكان المحترم.. سوف أكتب عنك تقريراً بذلك». ومزق اللوحة فوق رأسك وأمرك أن تجمعها كي ترميها في القمامة، تبيس كل شيء فيك، حاولت أن تصرخ وتلبس أنياب الشر كي تحفر الجدران وتصل إلى كل ذئب، رنين الجرس انتشلك من جمودك، أخذت تجمع فتات اللوحة بيدين مرتعشتين كي تشاهد صندوق القمامة يفتح لك فمه ويضحك.

- طين يابس

تقف على الطين اليابس، تذكر نفسك، تقضم أصابعك، عمرك مرّ من أمامك سريعاً مثل الضوء ولم تحدث امرأة غير أمك، لم تنل طعم الحب، لم تلمس يدين ناعمتين، لم تتأمل في عينيّن واسعتين، لم تطرب لهمسات رقيقة، فقط هو الصباح اللئيم الذي كان يهزأ منك ويركلك ناحية الشارع. مر العمر من أمامك، سكنك الجوع، سكنك الخوف،

حينما شاهدت البحر أول مرة قفزت إلى قلبك روح جديدة وصديق جديد، فأصبحت تسعى إليه كي تخفف من جوعك، قال لك أبوك غرض من بصرك، وهو الذي حينما يشاهد امرأة يسيل لعابه، وها أنت تنظر في الأجساد الأنثوية وتنظر في البحر، كل هؤلاء النساء يمررن من أمامك ولا تجرؤ على محادثة إحداهن، وحينما صرحت لأبيك عن رغبتك في الزواج، نهرك بأن تجمع أولاً المال، والمال في هذه المدينة يذوب بسرعة مثل الثلج تحت هذه الشمس الحارقة، منذ أن كنت صغيراً والأسئلة تتقاذف في رأسك حول ذلك الجسد الأنثوي، لماذا يشدك ناحيته بقوة؟ أي جاذبية ساحرة تلك التي تحطمك؟ أي تقاسيم عجيبه لهذا الجسد الأملس الناعم؟ بدءاً من شعر الرأس المنسدل حتى الظهر، والصدر السحري، والخصر، والساقين، واليدين الناعمتين، كل هذه التقاسيم تلعب برأسك. إلى متى تنتظر رنين الجرس؟

- تجمع الذئاب

حطت ليلة السخط على رأسك يا سلمان، زارت كالأسد، هشمت نومك، وبقدميك النحيلتين رفست الجدران وختمت عليها علامات الغضب، فتحت نافذتك التي تطل على شارع مظلم، رأيتهم جميعاً كالذئاب، كل واحد يحمل شعلة نار، وبينهم جميع النساء اللواتي راودنك في أرض أحلامك.

تجمعوا في ليلة السخط تلك أمام غرفتك الصغيرة، نشروا ضحكاتهم وسخرياتهم فوق نارهم المتوهجة، أطلقوا صيحاتهم كي تنغرز في رأسك وتوقظ فيك الوحش الخامد وتقشع صمته، كانوا كثراً يرشفون أنفاس النار ويتأمرّون عليك، من الذي أرسلهم إليك؟ كيف تكونوا هكذا مثل زوبعة غبار مؤذية؟ أي رحم قذفهم إلى هنا؟ نزلت إليهم غاضباً.. وقفت أمامهم متحدّياً.. وقلت: «ماذا تريدون مني.. دعوني وشأني.. أنا لا أحب أحداً منكم». ضحكوا، حتى امتلأت الأرض بضحكاتهم، وبصقوا، حتى امتلأ وجهك ببصقاتهم، وأطفئوا شعلات نارهم حول قدميك. عدت طفلاً من جديد أمام حفر الحياة وكائناتها، حينما لم تكن قادراً على حمل حقيبة المدرسة، حينما رُكلت خارج القرية والمدرسة، حينما لم تكن قادراً على مطاردة القطط والوقوف من بعيد للتفرج عليها، حينما كان أبوك يمتهن جمع الأخشاب كي يكسرها على ظهره. قلت لهم بخوف وحزن: «سوف أقتلكم جميعاً». كثرت ضحكاتهم وسخرياتهم، قذفوك بكرات طين رطب، عبأت صدرك بخيبة الحياة كلها، الليل زفر فيك روح الفشل، توهج الغضب أكثر في جسدك الضئيل، شحنت القلم بضحكاتهم وبصقاتهم وأشكالهم المقرفة، رسمت وجوههم أكثر بشاعة، رسمت الليل سيدهم، رسمت أمهاتهم الخطيئة التي لا تغتفر، رسمت آباءهم أفاعي تحرضهم على اقتراف الإثم، رسمت أجسادهم معلقة على حبال الهزيمة، وفمك يعجن بصفة كبيرة تنهياً لقذفها ناحية وجوههم، تتساءل أية كراهية هذه التي اشتعلت في جسدك، أي حقد تكون، أي لوحة تخلق الآن.

ما زالوا في الخارج يراقصون بعضهم البعض، ويخدعون سيدهم الليل الذي يخبئهم تحت إبطه العفن، وأنت تنفث في اللوحة سر وجودهم. استرخيت على المقعد واللهات يتطاير من فمك، لم يعد في قلم الرصاص روح سوى سواد علق في أصابع يدك، قمت بتغطية اللوحة بقماش أسود، هدأت قليلاً، ثم بكيت بمرارة، انتهت نهر الطمأنينة أن يغسل روحك وجسدك، ويرقدك في سلام تحت ظل شجرة مثمرة أو وسط حقل زهور، حددت في السقف طويلاً، إلى أن جاءت الشمس واخترقت زجاج نافذتك، كي تعطيك صباحاً لثيماً وثقيلاً يحمل لؤم وثقل جميع الصباحات الماضية، تنهت من غفوتك، قمت متعباً، أزحت القماش الأسود من اللوحة، افترسك الفرع، كان كل شر العالم يجتمع في تلك اللوحة، كان الليل يلّمع أنيابه ويوسخ إبطه بأولئك الذئاب.

أشعلت عود ثقاب، فركضت ناره تلتهم اللوحة، احترقوا جميعهم وصاروا رماداً. إذن ليتجرأ الصباح مرة أخرى أن يركلك ناحية الشارع، وليتجرأ مرة أخرى هذا الجرس أن يعلن عن شبحة القاتل، سوف ترسم لوحات كثيرة وتحرقها كي ترتاح من الجميع، ما عدا لوحة أمك.

نصفان

(1) تأمل من قريب

يغوص في عينيها بشراسة. هي على ما يبدو لاحظت ذلك، حتى أنها صارت مرتبكة بعض الشيء.. ذلك الارتباك الذي يتوارى وراء تعابير الوجه المختلفة. حين نظرت هي في عينيه لأول مرة تغيرت ملامح وجهها من قلق الانتظار إلى استرخاء وترقب. ما الذي يدور في فكر كل واحد منهما؟ أتراهما الآن يتبادلان الإعجاب؟ دھوله ناحيتها يدل على أنه ذاب في كل شيء فيها، أما هي فلم يدر منها سوى تينك النظرتين السريعتين اللتين رشقته بهما. وجهها حجل وأسئلة. وجهه شراسة ومباغثة. تلك نظرات لم يكن يقطعها إلا حينما يحدق في سقف المقهى. هناك غيري بالتأكيد من لاحظ أن هذين الاثنين يثيران الانتباه اليهما، خصوصاً من جانبه، ومن المؤكد أيضاً أن الاثنين لا يعرفان شعور بعضهما البعض. قد يعتقد أنها أغرمت به من خلال نظرتها، أو يعتقد أنها فقط حاولت معرفة سر نظراته المستمرة فيها. وقد تعتقد أنه هام بها، أو تعتقد أنه مجرد عابث ينظر لكل النساء بنفس النظرات.

تنظر في ساعتها باستمرار. أنتتظر أحداً؟ ربما نظرتها إلى الساعة من قبيل العادة أو التسلية، وأنها لا تنتظر أحداً. ولو كانت تنتظر أحداً فمن يكون؟ أتكون إحدى صديقاتها.. زوجها مثلاً.. أو ربما حبسها. إن كانت تنتظر زوجها فهو احتمال ضئيل، فمن المفترض أنهما - هي وزوجها - يأتيان ويد كل واحد

منهما تمسك بيد الآخر.. وأن يكونا حريصين على رسم الابتسامات لبعضهما البعض.. ولا شك أنها سوف تناوله الأكل بيدها.

وإن كان انتظارها لحبيب لها، فلا أعتقد أنه يتأخر عليها كل هذا الوقت، والأرجح إذن أنها تنتظر صديقة أو ربما لا تنتظر أحداً على الإطلاق وجاءت وحدها لاحتساء القهوة فقط.

الشخص الذي ذاب في عينيها ربما كان يعرفها قبل الآن، رآها في مكان ما.. وتبادلا الحديث.. لكن الفراق طعن قلييهما، وها هو يستعيد الآن صورتها متأملاً تجديد معرفته بها أو أنه يتفحصها نتيجة لوجود شبه بينها وبين أحد معارفه، أو أنها تشبه إلى حد قريب أو بعيد حبيبة قد هجرها أو هجرته. وأقرب الاحتمالات أنه أعجب بها منذ أن رآها لأول مرة.

وحين ابتسمت للنادل انتابه ضيق. أو هكذا استتجت، وكأن الغيرة اشتعلت فيه، وأنه هو من كان يستحق ابتسامة مريحة من فمها الشهي.. وليس النادل.

كيف بالإمكان قراءة شعور الآخرين؟ خصوصاً أولئك من ليست لنا معرفة سابقة بهم، ولم تربطنا وإياهم أية صلة، ولم نتبادل معهم أي حديث، فقط من خلال رؤية أشكالهم، والتفحص الدقيق لحركاتهم ونظراتهم وسلوكهم. وجوه عابرة وكثيرة، القليل منهم قد يثير لدينا شيئاً من التفكير والتأمل، ربما لفترة وجيزة قياساً المدة الزمنية لرؤيتنا لهم، إذ كلما طالت الرؤية أو المشاهدة طال التفكير والتأمل.

نظرت إلى ساعتها. دفعت الحساب وانصرفت، ولم تلتفت وراءها. أما هو فبقي ساكنًا في مقعده، حتى استعاد هدوءه من ذلك المنظر الذي ذاب فيه. ثم دفع الحساب وانصرف. لا أعرف إن كان سوف يتبعها، أم أنه لا يكرث بالمشهد وسينساه.. ولعله يستعيده بامرأة أخرى تصادفه، أم أنه حقًا سوف يتبعها كي يبدأ معها قصة طويلة أو قصيرة يذوقان فيها اللذة والعذاب. عمومًا غيابهما عن المقهى قطع تفكيري فيهما.

(2) النصف الأول

عينها رذاذ الصباح، منذ أن جلست على طاولتي وأنا ألدق إليهما. عينها مذاق الحب، فوجدت نفسي خارجًا عن كل شيء، عينها عظيمنتان.. تغمضهما.. تقلّب رموشهما السحرية بخفة، حينها أيقنت أن ما ينقصني هو رؤيتها كل يوم. منظرها يبعث على الراحة.. منظرها بحيرة عذبة تمنيت أن أستحم في مائها.



أحسست أن جميع الجالسين فضحوا إعجابي بها. يداها قصائد حب.. يداها ناعمتان مثل ملمس الماء.. تمسدان شعر رأسها بطريقة الساحر حين يثير سحره.. تمنيت أن أحفهما بيدي.. أقبلهما كي أذوق طعم الحب واللذة، شفتاهما حمراوان يعضان بعضهما البعض ويعثان إشارات الشهوة، فتخيلت أنني أحضنهما بشفتي، خداهما تفتحان تلمعان وسط حقل حنطي ناعم، شامة صغيرة تجمل خداهما الأيسر، شعر رأسها ناعم كثيف يصل حتى منتصف

ظهرها، فستانها أبيض تطير فيه زهور حمراء، حقيبتها حمراء، طلاء أظافرهما أحمر، قرطاهما حمراوان على شكل قلب، ساعتها حمراء، حذاؤها أحمر.

مع كل رشفة لقهوتي أراودها بنظرة. طاولتها ليست بعيدة عن طاولتي. جاءها النادل مبتسماً وابتسمت له. تمكنت من رؤية أسنانها البيضاء. هذا النادل المحفوظ كسب ابتسامة ولن ينام، أو لعله قد تعود على ذلك، وأصبح كل يوم يحصد مئات من الابتسامات من أفواه العديد من الجميلات، يا له من محظوظ.. أحسده. ثم جاءها بمثلجات مخلوطة بالفراولة، كي يتناسب على ما يبدو مع أناقتها. ليتها تعرف أنها فجرت ينابيع بهجتي.

منذ أن جلست لم ترسل لي سوى نظرتين ثميتين مملوءتين بالخجل والسحر والغموض، نظرتان انطلقتا مثل قطرتي مطر عذبتين بللتا قلبي بالانتشاء. من المؤكد أنها لاحظت اهتمامي بها. هل شعرت بالانزعاج؟ وجهها لا يشير إلى ذلك. هل هي متزوجة؟ إن كانت كذلك فيا لسعادة زوجها. ما هي طبائعها؟ عصبية؟ هادئة؟ ما هو اسمها؟ بأي حرف يبدأ؟ كيف هو صوتها؟ من المؤكد أنه ناعم يتناسب مع نعومة وجهها، ماهي أفكارها؟ أتؤمن بالتمرد والجنون؟ هل عرفت أنها فجرت ينابيع بهجتي؟

من يصدق أن ملاكاً كهذا يصنع كل هذا العذاب؟ كيف أبادر بمحادثتها؟ أتراني سوف أقطع مسافات طويلة كي أصل إليها؟ هل ستواجهني أنهر شاقة أو جبال صلدة؟ إذن علي أن أحيل كل شيء إلى حطام وفتات لأجل عينيها. لأختلق إذن أي حديث، لكن ربما تكون متزوجة، ربما لم تعجب بي، وهناك

دليل، وهو أنها أهدتني فقط نظرتين قصيرتين منذ أن جلست وقد تكونان عن غير قصد. أيضا لم تحاول أن تبسم لي، ربما يمنعهما حيأوها. لو كانت تمتلك شيئاً من الجنون لتحركت من كرسيها.. وتقدمت ناحية طاولتي لتقول لي: «أمكن أن أشاركك الجلوس.. فأنت على ما يبدو بحاجة إلي».

حينها يصيني شيء غريب لا أعرفه، يجعلني أرتبك وأبتسم. سارد عليها وأقول: «بالطبع.. بالطبع.. بإمكانك فعل كل شيء يا حبيتي». ستصدق في، ستغضب، ستضحك بغنج، وستقول: «حبيتك؟ يالك من مجنون.. نحن لم نتكلم بعد». حينها سأهز رأسي بعنف، وسأرفع يدي عالياً، وسأتجه نحو جميع الجالسين، وسأصرخ بفرح.



أو أكتب قصيدة لها، وأتوجه ناحيتها، وسأقول لها: «تقبلي مني هذه القصيدة». بالتأكيد سوف تتعجب. ستبسم ربما أو ترتبك. ستمد يدها بحنو لتأخذ القصيدة. ولكنها حتماً وقبل أن تأخذها سوف تقول: «القصيدة التي قرأتها من عينيك تكفي». أم هل ستمزق القصيدة وتقذف بها في وجهي لتشتعل في نار الهزيمة. ولكن من يعلم، ربما سوف تأخذها فعلاً، وعندها ستقول: «شكراً.. سوف أقرأها». حينها هل استدعوني للجلوس؟ أم أنها ترتبك وتدفع الحساب وتنصرف. وماذا سوف أقول لها في القصيدة؟ هل أقول لها إنك أميرة تمتهن تعذيبي، أم أقول لها ليتك تكونين شاعرة كي أرتوي من قصائدك، أم أقول لها إن كل نفس من أنفاسك مفتاح الجنة، وأنك لوحة فنية نادرة الوجود،

وأني تفحصت كل شيء فيك بدقة.. ملابسك الفاخرة.. سحر عينيك..
 وجهك العسلي.. شامة خدك السحرية.. شفئك القلقتين.
 طلبت الحساب من النادل. وبذلك ستترك المكان وتترك مكاناً لها في
 مخيلتي لفترة طويلة. حينما دفعت الحساب وانصرفت لم تحاول أن تلتفت
 كي تراني. اختفت مثل طيف يشبه قوس قزح.. مثل حلم جميل قصير. هل
 ستأتي مرة أخرى؟ قد أرى غيرها، لكن من منهن سوف تطلق في نفسي حنين
 سحرها؟ من سوف يبيل قلبي الحزين بالفرح؟

(3) النصف الثاني

عيناه شريستان، منذ أن جلست على طاولتي وهو يحرق إلي بشراة. عيناه
 تفضحاني، فوجدتني ضائعة في صمت وترقب مثقلين. هل هي نظرات
 إعجاب؟ هل هي نظرات تفحص لملابسي فقط؟ يدها خشتان، إحداها
 تمسك فنجان القهوة وترفعه إلى شفثيه الياستين، واليد الأخرى تمسك
 مصباحاً كي يسقيني منه ضوء عينيه المتوثبتين مثل صقر جائع. دشداشته
 البيضاء جعلته وكأنه يمتطي سحابة سحرية يقطع بها السماء في كبرياء. وجهه
 مثلث. لم يحلق ذقنه جيداً، وقد برز الآن بشكل جذاب، تمنيت أن يكتسي ذقنه
 بلحية خفيفة كي أشعر بدفء حين أراها وأمسها.



حينما يحرق قليلاً ناحية سقف المقهى المزخرف بالنقوش، كنت أتفحص
 وجهه القاسي وعنقه الطويل الممتلىء، وإذ شعرت بأنه سوف ينزل رأسه

أعرف على الفور أنه سوف ينظر ناحيتي، وفي لحظة سريعة أنظر ناحية يدي أو ناحية ساعتني.

لكأنه خلق في الظمأ؟ بي توق لأن أغيب وأنثشي في حنان عينيه، ذلك الحنان الممزوج بالشراسة الرجولية والتفحص الدقيق، بي عطش لأن أذوب في قلبه. دون أن أعني نظرت في عينيه. ارتجف كل شيء في جسدي. اغتسلت براحة لذيدة. ساورني الحياء، وربما شيء من الخوف جعلني متحفظة لرؤية عينيه مجدداً. ويلي!، وكأن زلازل الكون استيقظت حولي.

جاءني النادل. كان ظريفاً. طلبت مثلجات. وبدأت أتلثمها ببطء وأقارن لذتها مع لحظة رؤيتي لعينيه. هل أكون متوهمة؟ ويلي!، ما الذي حدث؟ ما الذي يدور في رأسي، ما الذي يدور في رأسه؟

بدأت مجدداً في محاولة عبثية لاقتناص فرصة أخرى لرؤية عينيه اللتين لم تكفا عن مطاردتي، محاولة أن ألصق نظراتي بنظراته كي أجدد طعم هذا الالتحام الغامض. ها أنذا تأكدت أنه قد خلق في الظمأ، وعلى كلينا أن يروي الآخر. من هو ياتري؟ أمتزوج هو؟ هل له أولاد؟ أم أنه لم يتزوج بعد، ماهي طبائعه؟ عصبي، هاديء، ماهو اسمه؟ كيف هو صوته؟ هل هو صوت خشن يتناسب مع قساوة وجهه وخشونة وجنتيه؟ ماهي أفكاره؟ أشقي هو؟

عيناه ما زالتا في حديث مستمر، كأنهما تناديان. إن كان معجباً فلماذا لا يتقدم ويكلمني؟ ولكن، لا، سوف أرتبك، سوف يلاحظ الناس كل شيء. وها أنذا أجد نفسي مرة أخرى أنظر في عينيه اللتين تحدقان في عيني. هذه المرة لفترة أطول، ولكنها أيضاً أقل من ثانية، أحسست أنني أطير في الهواء، أنه يلفني بيديه ويحضنني. أياي ويكلمني؟ لا أعتقد ذلك، الناس هنا يلتهمون بعضهم البعض بنظراتهم. إذن سوف يتبعني حينما أنصرف، سوف يناديني، ربما بالآنسة، سوف يقول لي: «هل تسمحين؟». سأرتبك، وسأقول له متعجبة: «نعم!». ثم يقول: «كم أنت جميلة». هل سيقول ذلك؟ ماذا سوف يحدث عندئذ؟ هل سأحافظ على توازي؟ كيف أتصرف؟ ربما كان شقياً ومجنوناً، فيتبعني ويقرب مني، وفجأة وبدون مقدمات يمسك يدي. حينئذ سأرتجف، يغرزني بنظرات حادة جميلة، أتدفاها، وبمسكة يده يذوب قلبي ويرتجف. ماذا سأفعل حينها؟ لا أعرف.

ما هذه الأفكار التي نبشت رأسي؟ إنها نظراته التي حفزتها على ذلك. وعلى ما يبدو أنني انتظرت صديقتي أكثر من الوقت اللازم، ولم تأت. دفعت الحساب. انصرفت، وسأرى إن كان سيتبعني أم لا.

الحقبة

انتابه فرح حينما اشترى له أبوه حقيبة كبيرة.. فرح كثيرًا.. أعجبه لونها البني. لها رائحة غريبة تشبه رائحة الدفاتر الجديدة. في تلك الليلة أخذ يصف باستمتاع كتبه المدرسية بداخلها.. كان حريصًا أن يكون كتاب التريفة الإسلامية فوق كل الكتب الأخرى وبعده يأتي كتاب اللغة العربية، قبل أن ينام حرق إليها كثيرًا وهي ممتلئة بالكتب والدفاتر والأقلام والمسطرة المصنوعة من الخشب التي يحدها معدن مثل السكين، جرحته مرة بينما كان يجرب حذتها.

في الصباح خرج بها متباهيًا، بداخلها فطيرة الجبن التي أعدها أمه. أحس أن الجميع ينظرون إليه بإعجاب. وصل مكان انتظار الباص.. وجدته مزدحمًا بالطلبة. ينتظر الآن خوض معركة قاسية من أجل التدافع والتسابق والاستحواذ على مقعد شاغر.. حقيقته جديدة.. انتابه خوف من أن يصيبها مكروه.. سوف توبخه أمه لأيام طويلة.. يتذكر كرة القدم التي اشتراها له أبوه وانفجرت في اليوم الثاني.. حينها تلقى توبيخًا شديدًا من أمه.

وصل الباص.. تأهب الجميع للدخول في المعركة.. ارتفعت الحقائق والكتب.. ثلة من الطلبة المشاكسين يلجؤون للضرب من أجل الاستحواذ على مقعد.. ومنهم من يلجأ إلى العبث بمؤخرات الآخرين في سبيل الصعود داخل الباص.. هو يحذر دائمًا من كل هذه التصرفات.. نصائح أمه تتردد في

ذهنه كلما نظر في أحد الأولاد الملاعين الذين يهونون إفساد الأولاد الأقل منهم سنًا.. لذا يفضل أن يكون آخر من يدخل الباص.. أمه تقول له دائمًا: «إياك أن ترابع الصيع.. عن يضحكوا عليك.. كون رجال.. عن تمشي في هذيك الدرب.. كون رجال». كان ممسكًا بالحقيبة حتى لا تقع منه.. سمع أصواتًا من داخل الباص تقول له: «أوه.. شنطة جديدة.. شنطة جديدة.. إيش عليك..». بالطبع لم يجد مقعدًا شاغرًا.. وقف مع الواقفين.. ووضع حقيبته بين قدميه.

تفاجأ بسائق الباص يتجه ناحيته والغضب والعرق يتساقطان من وجهه.. ظن أن هناك من أغضبه، لكن ما ذنبه هو حتى يوجه له الغضب.. دب الذعر فيه وتذكر أمه وأباه وأخوته والمدرسة.. كاد ييكي.. صرخ السائق: «جايلي شنطة أكبر منك.. أنت تعرف أن الباص مثل قوطي طماط.. ما يسد الطلبة الجعور.. هيا أخرج بشنطتك هذي. هيا.. هيا».

غادر الباص محشوًا بالطلبة وكأنه صندوق مكتنز بالتمر. تركه مع حقيبته في الشارع. قلبه يخفق بسرعة، وعرقه يتصبب، كان يحاول أن يستوعب ما حدث.

قمة البرج

في وقت الغروب، يدخل صناديق الفاكهة والخضرة والزعر والهيل والعدس، يغلق باب دكانه الخشبي ويقيده بقفل كبير. هذه الليلة انتابه هاجس من نوع غريب فهو لا يريد أن يذهب إلى صلاة المغرب في المسجد، ولا يريد أن يرجع إلى البيت ليتناول عشاءه ويسمع أحاديث زوجته وأولاده، انتابه قلق وحرقة في الفؤاد، يحاول أن يعرف سببهما فيفشل، لن يضع مفتاح الدكان في حزام خصره بل سيخبئه، هذه المرة، تحت صخرة صغيرة أمام الدكان.

يتوغل داخل السوق كأنما يبحث عن شيء، يسعل ويتذكر المئات من نوبات السعال التي رافقته طوال حياته، يحك صلعته من تحت العمامة البيضاء ثم يتنقل للحيته يمسخها. يحشر جسده في زحام السوق مارًا بأزقة الملتوية المظلمة، يحصي عدد المجانين الذين يراهم كل يوم، ويلقي نظرة على آخرين يستعدون للنوم على الأرصفة أمام محلات سوف تغلق بعد قليل، يلقي نظرة عجلية ناحية أرض خاوية كان عليها مستشفى (الرحمة) فتنفطر منه دمعة، أصوات الباعة تتباطأ في الدخول إلى أذنيه، أنفاسه كسولة، روائح السوق منعشة، لكنه يشم رائحة غريبة يحاول أن يتتبعها.

سقف السوق سماء غائمة معلق عليه قمر صغير، تترأى له أجنحة تطير من بين الزحام، تأسر قلبه، يركض كي يلحق بها ويلامسها، لكن التعب يطعن

قدميه وقلبه، يجلس، يمد قدميه، يمسد عليهما بتأنٍ ويراقب طيورًا تحوم حول قمة برج السوق.

يقف على قدميه من جديد ويتجه ناحية باب البرج، يناشد قدميه أن تسرعا وألا تخذلاه في الوصول. تركلان حَجْرًا وزجاجة لم تكن فارغة لتوقظ قطًا نائمًا، قلبه يخفق، قدماه تمشيان باتجاه الهواء البارد والغيم، أنفاسه كسولة وحارقة، القدمان تتعثران وتسقطان في بركة وحل صغيرة كونها المطر، لكنهما تتحديان السقوط، ترفسان الوحل فيتطاير خائبًا.

يعاود المشي فتقطع إحدى نعليه، ينظر فيها بحسرة وحزن، لكن رغم ذلك قدماه تتشبثان بالنعلين جيدًا حتى لا تنفرطا. أخيرًا تتسلقان السلم المؤدي إلى قمة البرج، هاجس الوصول يزداد لديه، فقدماه هما السبيل للوصول تحملان جسده إلى أعلى كي يلتقي ربما بالطيور أو الأجنحة بعد كل هذه السنين، خطواته صعبة وثقيلة، درجة وراء درجة، القدمان صارتا تنزفان عرقًا، النعلان تسقطان إلى أسفل السلم، قدماه أصبحتا عاريتين، متفتختين، مشربتين بحمرة قانية، إلا أنهما تنجحان في الوصول إلى قمة البرج، عندئذ تنتهي مهمتهما الشاقة، يمددهما على أرضية البرج كمكافأة لهما على إنجاز مهمتهما، ثم سرعان ما خارتا في نوم عميق.

عيناه تحومان ناحية سماء مظلمة انطفأ قمرها بسبب غيمة وسوق أصبح نقطة هلامية من فوق البرج، يسمع صراخًا حادًا في السماء ويتلقى بعده سقوط مطر كثيف، يفتش عن شيء، يشعر براحة، ويشعر بحزن، العالم من حوله

مضرب منذ زمن بعيد، لا يفهمه، بشر كثيرون، قُرب دماء، أنفاس تتصادم.
يحاول أن يقوم، تخونه قدماه.

يزداد صراخ السماء، يزداد علو البرج، يزداد تضاؤل البشر والسوق، وبعد
ساعات حضرت شمس الصباح ساخطة، شربت بقايا المطر، غريان كثيرة
تحوم حول قمة البرج، بينما المفتاح هذه المرة مخبأ تحت صخرة، والقفل
كبير صامد يقيد الباب.

مساء صاخب

- الحورية الجميلة تقول..
- ماذا تقول؟ ماذا تقول؟
- لم العجلة.. يا أدمغة هائمة.
- عفواً.. نحن لا نريد ما تقوله الحورية. نحن نريد الحورية نفسها.
- هي ليست لكم.. وإنما له هو.. وحده.
- من هو؟ من هو؟
- لا يهم من يكون.. والآن دعوني أحكي ما تقوله الحورية.
- احك.. احك.. نحن منصتون.
- الحورية تقول إن ذلك الصباح، رغم كل الغيوم المتراخمة، لم يكن له حظ من المطر، وعند الظهيرة حينما فتح باب البيت وأدخل منه سرير «عدنان» الجديد، انقشعت الغيوم.. وابتسمت الشمس..
- اتسعت الظهيرة.. وزادت ارتعاشات قلبه.
- زادت ارتعاشات قلبه!! لماذا زادت؟
- زادت بمجرد أن تذكر طيف حورية تظهر من البحر وتعانقه أمام السماء.
- هل هي نفسها الحورية التي تقول؟

- ربما.. ربما.. بعد ذلك شحن رأسه بأشياء كثيرة لا تحصى.. غير المطر وفشله في السقوط.. غير الباب الذي أدخل منه سرير عدنان الجديد.. غير ابتسامة الشمس.. وغير الظهيرة التي تتسع وتتسع.
- أشياء لا تحصى؟
- نعم أشياء لا تحصى، كطيف الحورية التي أحبها فعلاً.. والتي كلما تذكرها أبدع في الحنين إليها.
- ولكن هل هي نفس الحورية التي تقول؟
- ربما.. ربما.. ولكن سرير عدنان الجديد لا يخلو من المتانة والقوة.. أما سريرهِ القديم.. فكان مهيباً للتشطي في أي وقت.. وكان يمتهن لعبة الصرير.. ولعبة استعراض الأحلام المزعجة.. ياله من سرير عجوز أصاب الخرف دماغه.
- هيه.. أنت أيها الغريب صاحب الحكاية.. أنصت لنا.
- ماذا هناك؟
- نحن هنا جميعاً نريد أخباراً عن الحورية.. لا عن عدنان هذا وسريهِ القدر.
- أدمغة هائمة.. بكل أسف أدمغة هائمة.. سوف أطرح عليكم سؤالاً.
- ما هو؟
- كيف هي مساءاتكم؟
- مساءاتنا؟ لا نعلم عنها شيئاً.. لأن ساعتها نكون نياماً!

- أما إذا سألتهم عن مساءه فإن له طعم الضجيج.. مساؤه ليس كأى مساء آخر..

• كيف؟

- في بداية المساء يخرج رأسه من نافذة الغرفة.. يقتفي صدى أول صرخة جديدة يطلقها وليد جديد.. يظل يتبعها.. ثم تدمع عيناه حينما يرى الصرخة تتسع وتتسع مثل ظهيرة ذلك اليوم.

• ما بك يا هذا؟ ماذا بك؟

- ماذا؟

• ما هذا؟ ماذا عن الحورية؟ ماذا عنها؟ ما لنا نحن وأول صرخة وليد.. دعنا في الحورية.

- يا أدمغة هائمة.. لا بد أن تعرفوا بقية ذلك المساء.. أنتم منصتون.. أم ماذا؟

• ما عسانا أن نقول.. هيا احك.

- عيناه تدمعان حينما يرى الصرخة تتسع مثل ظهيرة ذلك اليوم.. بعد ذلك يتحسس غرفته.. يلصق أذنه على الجدران منصتاً.. فيصعب عليه تحديد وقت الانفجار.

• ماذا؟ انفجار.. انفجار ماذا..؟

- أصابته الدهشة.. لأن الغرفة قادرة على التنفس.. وقادرة على الصمود.

• ما هذا؟ ماذا تقول يا مجنون؟

- الغرفة هي المجنونة.. لم يكن يعرف أنها مرتع حشرات متنوعة إلا مؤخرًا.. ثم اكتشف أن عينيها مخنوقتان جاحظتان.
- عينا من؟ عينا الحورية؟
- لا.. بل عينا الغرفة.. ولجده قصة..
- ماذا؟ جدته؟ ما لنا نحن وجدته.
- كانت عينا جدته تتبعان إدخال الخيط في ثقب إبره، عينا ذابلتان لكنهما تتحديان حركة الخيط والإبرة.. إلى أن سقطت قذيفة من السماء فوق رأسها.
- يا ويلها المسكينة.. يا ويلها.. قذيفة؟
- والتي اتضح فيما بعد أنها كرة قدم كان يلعب بها أولاد الحارة خارج البيت.
- كرة قدم..!! كرة قدم..!!
- نعم كرة قدم.. عندئذ رمت الجدة ما في يديها وصرخت مفزوعة.. ثم وضعت يديها المجمعدين على موضع الألم في رأسها.. أما الذي قذف بالكرة فقد نال شتائم ساخنة ولعنات تكفيه وأهله لسنوات.
- يا هذا ألا تعتقد أنك ابتعدت كثيرًا عن الحورية.. ها.. ماذا عنها؟ ماذا عنها؟
- أف.. يا ناس كان لزامًا على جدته أن تدخل المطبخ في تلك اللحظة.

- ماذا؟ المطبخ.. لماذا تدخل المطبخ؟ هل تطبخ رأسها؟
- لا.. وإنما تتناول أكبر سكين موجودة هناك.
- سكين! لماذا السكين؟
- كي تشق بطن....
- ويلنا.. بطن من؟ إياك أن تقول بطن الحورية..
- لا يا نفوسًا هائمة.. بل تشق بطن الكرة.
- وهل فعلت؟
- نعم.. شقت بطن الكرة.. وخرجت من المطبخ متشوية قليلاً حتى أنها اصطدمت بأخته الصغيرة سعاد.. عندئذ سقطت سعاد باكية..
- ماذا عن الحورية؟ ماذا عنها؟
- سوف أبقر بطونكم أيها الفحول إن لم تتركوني أكمل.. فهو ما زال يحاول تقدير وقت الانفجار.
- مرة أخرى انفجار.. أي انفجار هذا؟
- لأن الغرفة ما زالت تشاكس الرياح والأمطار والعواصف وصراخ أولاد الحارة، وأبواق السيارات، ومواء القطط، وزيارة الحشرات، وزيارة الحر والبرد.. ومع ذلك صعب عليه أن يحدد وقت الانفجار.. لذلك دهن الغرفة منذ أسبوعين.
- أيها المضجر.. بأي لون دهنها هذه الغرفة الأميرة؟
- هذه المرة لم يكن لوناً واحداً.. بل ألواناً متعددة.. لأنه بكل شدة يحاول أن ييث شيئاً من الفرح في جسد الغرفة، حتى الطاولة التي

يكتب عليها دهنها هي الأخرى بألوان متعددة.. وها هو يرى
الطاولة تتحب وتبكي على ليالٍ موحشة.. تبكي على ردم الخطوط
التي كان يخطها عليها.. فقبل أن يلون الطاولة لم يعد يرى أي
جمال في تلك الخطوط التي كانت في الماضي تجذب خياله.. حتى
الكتب التي قرأها هو وأصدقاؤه لم تعد تفتح الشهية لقراءتها.

- أيها الغريب.. من أجل خاطرنا وخاطر عقولنا.. ماذا عن الحورية؟
- سوف أفقد عقلي.. حسناً.. حسناً.. سأخبركم عن الحورية.
- نحن منصتون.. نحن منصتون.
- ذكر عن الحورية أنها شربت الليل كله من عيون رجال عديدين،
وذكر حسب ما ذكر شيء لا يصدقه عقل..
- ما هو؟
- أتعرفون أنها هي التي تسببت في ملوحة البحر.
- كيف؟ كيف؟
- إن هذه الحورية تناولت البحر في زمن عذوبته.. قبلته في فمه قاذفة
إلى جوفه مسحوقاً سحرياً.. توهج البحر.. زأر.. ازرق.. فاح دمه..
ارتفعت حرارته حتى أنك.. ثم تقيأ داخل جوفه كائناته المعروفة
هذا اليوم.. وبهذا جن البحر.. صار مالحاً.. صار يصرخ مولداً هذا
الهدير.. والسبب قبلة الحورية.
- ما هذه الخرافة؟ دعك من كل هذا.. ماذا عن ما تفعله الحورية في
البشر؟

- كفاكم.. عقول زائغة.. دعوني أكمل عن ذلك المساء.. فثمة أشياء حدثت لم تكن غريبة.
- أشياء لم تكن غريبة.. مثل ماذا؟
- لم يكن غريباً في نفس لحظة سقوط الكرة على رأس الجدة أن يرقص عدنان بفرح عارم على سريرهِ الجديد.. ولم يكن غريباً أن يسقط عدنان على الأرض ويصاب في رأسه.. ولم يكن غريباً أن تفتح الجدة بعد ذلك باب البيت وترمي الكرة المشقوقة البطن لأولاد الحارة.. ولم يكن غريباً أن تبقى الجدة على حالها غاضبة تلعن اليوم الذي سكنت فيه معهم.. وكل شيء في جانب وهو وتفكيره في جانب آخر.. فما زال يقدر وقت الانفجار.
- مرة أخرى الانفجار؟
- يحرق في المذيع العتيق الذي أصبح جزءاً من الطاولة وذلك من لوجوده في نفس المكان لزمن طويل.. لكنه لم يعد يطلق أو يعلن عن أي أنه مسموعة، يحرق إليه بغرابة هذه المرة لعله قد يصل إلى تقدير مناسب لوقت الانفجار.. يتساءل كيف لهذه الغرفة المجنونة القدرة على الصمود والاستمرارية؟ كل شيء في جانب وطيف الحورية في جانب آخر.
- انتباه يا جماعة.. انتباه.. لقد وصل إلى الحورية من جديد.. انتباه.. ليستيقظ كل واحد من نومه.. انتباه.

- كل شيء في جانب وطيف الحورية في جانب آخر.. فعيناها كوكبان
آخران يعيش فيهما حيث المتعة والجمال وحيث الحلم..
لشفتي...
 - ها.. ها..
 - لشفتيها الطريتين لذة لا توصف.
 - ها.. ها..
 - قلبها كبير ينشر الحب.
 - ها.. ها..
 - وجنتها قمران مبتسمان.
 - ها.. ها.. ماذا حصل بعد ذلك؟ ماذا حصل؟
 - هي رأسه.. رأسه الذي لم يستطع أن يتركها لحظة واحدة.
 - ولكن هل هي نفس الحورية التي تقول.. أو التي قبلت البحر؟
 - ربما.. ربما.. ولكن أباه..
 - ما هذا.. لقد تخلص عن ذكر الحورية من جديد.. ما لنا نحن وأبيه..
 - الأب حمل ابنه عدنان إلى المستشفى.
 - جئنا إلى الوجع.
 - وكان المستشفى غاصًا بالمرضى.. والأطباء الغاضبين من لا
شيء.. والأطباء العاشقين.. والأطباء النائمين.. وأيضا غاصًا
بالممرضات الطاعنات في السن والممرضات الخشنات..

والممرضات الناعمات.. والممرضات اللواتي يستعرضن تفاصيل أجسادهن.

- قف.. قل لنا كيف يستعرضن تفاصيل أجسادهن؟
 - يا مكبوتين.. دعوني أكمل..
 - دعوه.. دعوه.. لعله يذكر مغامرة تنعشنا..
 - والمستشفى غاصّ بالأدوية المنفرة والهواء البارد صانع الزكام.. ياه.. ذلك المستشفى غابة من البشر والكائنات الغريبة.. غابة لها أجنحة متنوعة.. أجنحة خضراء.. أجنحة زرقاء.. أجنحة ذهبية.. أجنحة لتغيير الملابس المتسخة.. أجنحة الأشعة.. أجنحة العناية المركزة.. أجنحة طيور الزينة.. وأجنحة الأرواح التي تطير إلى السماء.
 - ماذا عن أجنحة الحورية.. يا لوجع قلوبنا.. يا هذا إن دواءنا الحورية..
 - أما أمه حضن...
 - ما هذا.. سوف يعدد لنا جميع أقاربه..
 - أما أمه حضنت سعاد الصغيرة كي تحاول أن تلقمها الصمت.. وسرير عدنان الجديد كان شبه قلق ينتظر أول جسد يرقد عليه.. أما الجدة فقد أعلنت حالة الهدوء المؤقت حينما كانت تشرب دواءها من الثلاجة.. ولكنها لم تعرف أن أولاد الحارة جاؤوا بكرة قدم أخرى يلعبون بها.. لا تخبروها عن ذلك فهذا سر بيني وبينكم.
 - بل سوف نخبرها.

- إذن لن أحكي لكم بقية الحكاية.
- نحن نريد أن تكمل لنا سيرة الحورية.
- ياناس أنا أحكي عن ذلك المساء والحورية جزء من الحكاية لا أساسها.
- الويل لك.. ثم لك الويل.. والويل لك.. لقد ضحكت علينا.. في البداية قلت لنا أن الحورية تقول.. آه.. وآلف آه.. نتحسر على كل التهنيدات التي أسرفنا في إطلاقها عند ذكر الحورية.
- اسمعوني.. أنا لم أعد أهتم بكم وبأدمغتك الهائلة.. وسوف أكمل الحكاية حتى وإن لم تنصتوا لي.. حتى إن رحلتكم..
-
- رقدت سعاد وحلمت بأرجوحة لها وحدها.. واصلت الجدة تحت ضوء المصباح إدخال الخيط في ثقب الإبرة.. السرير حضن عدنان في مساء رطب.. هل تعرفون من هو عدنان؟
-
- أين أنتم؟ سحقا لرحيلكم.. سحقا لأدمغتك المنطفئة..
-
- إنه عدنان المربوط الرأس صاحب السرير الجديد.. ذلك العائد من غابة المستشفى.. ألا تعرفون الغابة؟ سحقا لكم.. سوف تندمون على رحيلكم.
-

- أما هو فما زال يحاول أن يقدر وقت الانفجار.. وليت لرؤوسكم
الهائلة أن تنفجر.. كيف تتركوني وحيداً مع هذه الحكاية؟

..... •

- سقط رذاذ خفيف في نهاية ذلك المساء.. لاحت له حوريته مع كل
قطرة رذاذ يتحسسها.. صدقوني حتى أنا لا أعرف من يكون.. ولا
أعرف حوريته.. وربما تكون هي التي تقول.. وربما كانت حورية
الظهيرة التي اتسعت.. وربما حورية البحر المجنون.. وربما خيال
المساء المحققون بالصخب والمشاكسة.. ربما.. ربما.. أعرف أنكم
لن تسألوني عن هذه الدموع.. ومن أين لي بها.. لأنكم لستم سوى
عقول هائلة.. مكبوتة.

حمالة الحطب

لم تكن الغرفة مقفلة ولن تكون، وأشجار الليمون تشهد ولوج امرأة الحطب داخل الغرفة، وتصيح لها: «تهدي.. جاء موعد المخاض».

تمشي.. رأسها يحمل دائرة صغيرة من خوص النخيل والدائرة تحمل جرة ماء طينية.. بالأس حملت رزمة حطب.. وغداً سوف تحمل أياماً ثقيلة. بعد أن نهشها الوجع سقطت.. تلففتها الأعشاب الخضراء الناعمة.. سقطت الجرة.. سال ماء عذب رشفته الأعشاب وملابسها المزركشة، حطت حولها حمامات ملونة سرعان من تحولن إلى رفيقاتها من النساء اللواتي جئن لجمع الحطب وملء الجرار بالماء من الفلج، سمعن صوت رفسات الجنين في جدران بطنها، كان الماء يزيد خريره في الفلج تضامناً مع هطول أوائل قطرات المطر، المكان المعشب والفلج بعيدان عن البيوت، المطر كأنه فقط يحيي البلاد بنغمة غنائية قصيرة ويتوارى خلف الجبال البعيدة المغطاة بالغيوم، النساء يفكرن أن كل ما يحتاجه لإتمام عملية الولادة أربعة جدران، ويفكرن بالمرأة رفيقتهن وهي تقاوم ألم المخاض. لم يكن هناك سوى غرفة واحدة قريبة، من حسن الحظ أنها خالية بعد أن رحلت كائناتها للرعي في الجبال. حملت الحمامات المرأة على أجنحتها إلى داخل الغرفة، حيث بدت ضيقة ومصنوعة من خوص النخيل اليابس والقش، أرضيتها مليئة بالروث وبقايا البول، تتدلى من سقفها المتين خيوط عديدة متفرقة مربوط بها كومات من

البرسيم الذابل. وبسرعة جاءت النساء بمقشاة ونظفن جزءاً من الأرضية. تخلصت بعضهن من أغطية رؤوسهن وفرشنها على الأرض كي يرقدن المرأة عليها، أشعلن ناراً خارج الغرفة لغلي الماء. في الخارج رجع المطر ضاحكاً ورقص كثيراً فوق سقف الغرفة إلى أن سمع صرخة تخرج من الغرفة فتواري ثانية خلف الجبال.

كانت تلك صرخة شهقت لها كل النساء، واهتزت على إثرها جدران الغرفة. صرخة فزع جاءت من كوكب الرحم. في البداية ظهرت قدمان صغيرتان رफستا الهواء الملوث برائحة البول والروث، ثم ظهرت الأعضاء الذكورية وحبل ممتد من الصرة إلى هوة سحيقة. ولم تجد النساء مقصاً لحبل الصرة فتبرعت إحداهن باستخدام أسنانها.

تفجرت الصرخة، صرخة الذهول والاستغراب والفرح، وسط عالم من عيون نسائية وبخور وروائح غرفة حيوانية وسقف مبلول وكائنات غاضبة في الخارج تنتظر دخول مسكنها، وأم خائفة وستظل خائفة إلى أبعد مدى يطوله قلبها.

ليل بعيد

يخرج الجد من البيت محمر الخدين، يكثر من الالتفات حوله، يدوس
بقدميه ظله الذي يطارده، يركب سيارة حمراء، يمضغ شعر لحيته المصبوغة
بالأسود، يسمع أغنية لعبد الحليم حافظ ويسعل. فجأة استخدم فرامل السيارة
والمنبه حينما حاول شاب أن يقطع الشارع، أشهر للشباب أصبعه الوسطى
وشتمه. صوت عبد الحليم ينساب في أذنيه مثل هواء عذب، اشتعل طربًا،
رقص رأسه، إلى أن وصل حارة قديمة بيوتها ذات جدران اتخذها الأولاد
لوحات للكتابة، قرأ العديد منها بينما كان يغوص بسيارته في الأزقة الضيقة..
«الحب جنون/ بيت خدوج وأولادها/ قالت سعاد/ بيت جدي وجدتي/ ليلي
والمجنون/ فرياق مارادونا/ الأهلي والعالم/ قوق سالوم
كبيرة/ حارتنا/ حرامي/.....».

أوقف الجد سيارته أمام بيت من طابقين ذي شرفة قديمة، ضرب منه
السيارة، ظهرت امرأة عجوز تضع مكياجًا براقًا، تبسم كي تكشف عن أسنانها
البيضاء اللامعة المكتملة، تلوح له بيديها، ولكنها رأت حفيدها مفتول
العضلات متجهًا ناحية البيت فدخلت مسرعة إلى غرفتها خجلة وفرعة. أما
الجد فأسرع بقيادة سيارته كي يتعد بها عن بيت العجوز الفاتنة، لكنه استطاع
مشاهدة باب البيت من داخل السيارة إلى أن خرج حفيد العجوز، بعدها
خرجت قلقة تنظر من الشرفة يمينًا ويسارًا، جاء الجد بسيارته من جديد، رآته،
فالتمع فستانها الأخضر المرصع بالنجوم اللامعة، كانت بالنسبة له نجمة

النهار، رمت له ورقة سقطت أمام السيارة، على الفور نزل منها وكاد يسقط بعد أن علقت دشداشتة البنية اللون بمقبض الباب، تمزقت قليلاً، لكنه تدارك الموقف بسرعة. التقط الورقة وركب السيارة متلهفًا للوصول إلى سطور حبيبته: «سوف أنتظرك في السابعة مساءً عند سوبر ماركت صابر، قلت لهم إنني ذاهبة عند خديجة.. أحبك.. عزة بنت خلفان».

أخذ الجد يقبل الرسالة بنهم، ويستمتع بعطر الزعفران المرشوش عليها. قاد سيارته بفرح، ورفع من صوت عبدالحليم حافظ، وحينما عاد إلى البيت سأله حفيده عن تأخره وأعلمه بقلقه عليه، فأجاب الجد والسعال يتتشر حوله أنه ذهب لصديقه سالم بن راشد وأنه جلس يحكي له قصصه القديمة عن النخيل والحمير والزمن الأول، فصدق الحفيد القصة.



في السادسة والنصف مساءً أخذ الجد سيارته بعد أن قال لحفيده أنه ينوي الذهاب إلى المستشفى لعلاج سعاله. اتجه ناحية السوبر ماركت، وفتح لها الباب، دخلت السيارة، فاح عطر الزعفران والصندل، التفتت ناحيته مبتسمة كاشفة له عن جزء من شعرها المصبوغ بالحناء وعن جبينها المصبوغ بدهن الزعفران الأصفر وعن أسنان اصطناعية لامعة. كلاهما أطلق تنهيدة ساحرة، وتبادلا كلمات الشوق، انطلقا يخرقان ظلام الليل يبحثان عن مكان لا يوجد به أحد، ينير القمر لهما الطريق ويشر باقات نجومه. وحين وجدا المكان، أوقف سيارته تحت شجرة، أطفأ مصابيح السيارة بينما ترك محركها يشتغل كي ينعم بهواء المكيف البارد.

التفت إليها بعد أن سعل مرتين، وقال بصوت مرح: «أخيرًا وحدنا»،
نكست رأسها خجلًا، مد يده المجددة وأمسك يدها، تدفقت بينهما حرارة
اللذة ورقصت قلوبهما اللذين ينبضان بصعوبة. مد يده كي يرفع رأسها فيشاهد
عينها المغمضتين اللتين بالكاد تفتحهما. نظف نظارته. قال لها: «أحبك».
ردت عليه: «حتى أنا أحبك». قال لها: «يا سلام.. متى متى؟». قالت له: «هذا
راجعلك». قال لها: «اقتربي شويه». أبعدت رأسها عنه وقالت: «مالك
مستعجل كذاك.. ما الحين». قال بحرقة: «حرام عليك». ثم مد يده ليداعب
ناحية صدرها، فغضبت وضربته على يده وقالت له: «قلت لك ما الحين».
ولكنه كرر الحركة وحاول أيضًا أن يقبل شفتيها، وقد سعل مرارًا. غضبت كثيرًا
وقالت له: «لازم نروح». تراجع هو، ونظر إليها بغضب وقال: «لا.. خلينا
شويه جالسين». «وبعدين». قالت له متمنعة، ثم تابعت: «أريد أروح».
قال لها: «أنا ما صدقت أنك توافقي تخرجي معي اليوم.. خلينا شويه
ارجوش». قالت له: «بس لا تكرر هذيك الحركة». قال لها باستياء: «زين زين
ما اسويها خلاص». وأردف بعدها وقال: «أحبك». ردت عليه: «أحبك». ثم
قالت له مازحة: «ليش ما تحلق هذي اللحية؟». رد عليها بغضب: «أحلق
لحيتي.. مو أنتيه مجنونة». ردت عليه: «خلاص ما تعصب أنا أمزح». أمسك
يدها بحنو.. تنهدت وقالت: «تأخر الوقت.. نروح». قال لها: «تأخر الوقت».

عشرة مقاطع

1. غضب

أنفه طويل معوجّ، له نصف شنب، الآخر يبدو وكأنه محروق، طلب قهوة، وقرأ الجريدة بامتعاض شديد، عطس كثيرًا، التفت ناحيتي وضبطني أحدق إليه، على الفور نكست رأسي، فجأة مزق الجريدة ورمى بها بعيدًا، ثم دلق القهوة على الطاولة، وجه كرسيه ناحيتي، ووضع رجلًا على رجل.. ربط ذراعيه حول صدره وحدق إليّ بغضب، أيعرفني؟ عطس بقوة إلى أن تطاير سائل من أنفه في الهواء، ركل كرسيه، تقدم ناحيتي وأمسكني من كتفي بقوة وقال: «ركز نظراتك في وجهي واكتب.. ألن تكتب؟».

2. الجندي

قبل الحرب يُعطى الجندي بدلة بلون التراب، وبندقية يتشبث بها خوفًا منها، وخريطة لقبر متنقل يحتفظ بها في جيب بنطاله.

3. خوف

السنوات أشباح، فكل سنة يموت أحد أبنائها، كل سنة تتمرغ في التراب والدموع، وبعد أن مات ابنها السادس في السنة السادسة، تجمع خوف كل الناس في قلبها على ابنها السابع والأخير. منعتة من الزواج، لعبت دور ظله، ضربها ذات مرة، ووقت أن هاجمته الحشرات دافعت عنه بضراوة، ثم تحول

إلى حشرة تلدغ نفسها بالسم، أما هي فقد تحولت إلى طير مفجوع ينبش التراب بأظافره وترقبه الكائنات دون حسرة.

4. رصيف الليل

اسمع، إذا فقدت أمك وبيتك، اذهب إلى ليل هذه المدينة، سوف يوفر لك رصيفاً مناسباً، وسيعطيك نهذاً ترضع منه هواءً بارداً في الشتاء، وسوف يضمك في عيون صيفه لتشوى بناره، هكذا ستحققك الحياة بمزيد من الآلام في روحك اليتيمة.

5. قبل أيام قليلة فقط

قبل أيام قليلة، تحدث الناس عن إنسانيته الجميلة، عن روحه الورعة، وتحدثوا أيضاً أنه من سلالة العبيد، وعن ورقة جاءته من المحكمة تأمره بألا يقترب من حبيته لأنها حرة، وعن حالات مشابهة كثيرة تنتشر وتنتشر. هذا قبل أيام قليلة فقط، أليست عندكم أيام مثلها مثلما كانت عند أجدادكم المندثرين؟

6. تكاثر

عند باب غرفة عملية الولادة آباء يعومون في القلق. أب مسن حوله أبناء وبنات كثر مختلفو الأعمار، منهم من يتشبث برقبته، منهم من يشد دشداشته من الخلف، منهم من ييكى، منهم من يطلب نقوداً لشراء عصير. جاءته الممرضة وقالت له: «المولود بنت». فرح جميعهم، على الفور تقدم ناحيته أب آخر على وجهه ابتسامة، صافحه وقال له: «مبروك.. إذن حصلت على

بنت». رد عليه الأب المسن: «وأنت؟». قال الآخر والابتسامة لا تفارقه: «الحمد لله زادت عندي بنت، وترتيبها الثامن بين أولادي، لكنها مريضة جداً». سقطت دهشة من أحد الأبناء حينما لاحظ الابتسامة تتطاير من الرجل الآخر.. وانتشرت الدهشة.. انتشرت بين الجميع.

7. في مقهي باليما

العجوز السكران مكتئب.. لا يضحك.. يزم شفتيه، متجاهلاً استظراف جليسه الشاب، ربما كان ناقماً على حالته ومنتشياً بثقل الشراب. الشاب مستمر في سرد النكت والضحك ويضرب كفه في كف العجوز المرتخية على الطاولة. وحينما قرر العجوز أن يغادر طير كل ما في الطاولة من كؤوس وزجاجات وصحون، طيرها بعيداً بحركة انتقامية ومضى مترنحاً يبصق على الأرض.

8. أمنية واحدة

هل يا ترى.. حينما يجلس الصياد أمام البحر محدقاً إلى الغيوم يفكر بمطر من الأسماك؟

9. تبخر

هكذا قرر. دخل أحد المطاعم الغاص بالرجال عارياً، فارتفعت الرؤوس ذات الأفواه المتحركة، اتسعت العيون للحظات، وبسرعة انتكست الرؤوس

وسقطت في الطعام، تأوه أحدهم وندت عنه صرخة تقول: «يا ااي..». لكنه خرج مسرعًا تاركًا وراءه رؤوسًا منكسة منغمسة في الطعام. بعد ذلك دخل أحد صالونات النساء، فارتفعت أيادٍ تحمل أحذية، قُذفت تجاه رأسه، لم يسمع تأوهات بل تمتمات تقول: «قليل الأدب.. حقير». خرج راکضًا تاركًا وراءه رؤوسًا ساخطة وشتائم تجلد ظهره. بينما هو يركض أمام المارة سقط في بركة ضحك ساخنة، لم يعبأ أحد بسقوطه، فقد تبخر.

10. دمية

تقذفه الغرفة كي يغطس في لهيب الشمس الحارق ويمشي إلى عمله. بعد ذلك تتمتع هي باللعب مع حشرات ملونة، تحب الغرفة أن تلعب به كدمية، تخلع له ملابسه، تحممه بحرارة الشمس، تخزه بالبرد، ترقده على سرير متآكل كطفل، تمشي الحشرات فوق جسده، تفزعه بقطط تخرجها له فجأة من تحت السرير، تلقمه قصصًا لا معنى لها، تزجه في ليل كئيب مؤرق، تتمتع بكل ذلك، هو دميتهما الوحيدة.

- ما هذا.. إلى متى تظل دمية في يد هذه الغرفة التعيسة..؟
- دعني.. دعوني.. أريد فقط أن أتحول إلى فأس لمدة دقيقة واحدة.. دقيقة فقط.. دقيقة.. ي.. ي.. ي.. قة.

أقاصيص حنين

1. شموع الحنين

يُحكى أن «حنين» ذات رهبة في الأحلام، وأن ليلها يوقد شموع الحنين كي تتدفأ بها القلوب، ويحكى أنها تقطن في غيمة، وأن حبات المطر عقد لؤلؤي يزين عنقها تتلهف له العيون.

وحينما تلعب مع أرجوحاتها التي تحملها إلى الهواء والغيمة، كانت تفكر بدميتها الوحيدة التي في البيت، وتفكر بالأحلام.

ومن أحلامها أن أباهما خرج يبحث عنها في كل مكان، فوجدها تركض مع أطفال في عمرها، ركض يناديها بأعلى صوته أن تعود إليه، إلا أنها تحولت إلى ثمرة فاكهة تعلقت بغصن شجرة كان ينتظر قافلة ريح ليرحل معها.

2. الملكة

جلست حنين أمام طاولة صغيرة تنظر بعينين فرحتين في المزهرية، فستانها وردي منتفخ عند الكتفين، على رأسها عقد ذهبي يشبه التاج.

تطايرت بالونات ملونة حولها. أُلْتَقِطَتْ لها صور ملونة بجانب أمها، ثم تساقطت على رأسها قطرات ماء الورد، وتطايرت أغان، على أثرها رقصت الشجرة الوحيدة المزروعة في البيت.

نزلت غيمة في باحة البيت. نزل منها أطفال كثيرون تتراوح أعمارهم بين السنتين والعشر سنوات، البنات يلبسن فساتين مزركشة، والأولاد يلبس كل واحد منهم دشداشة وطاقية على رأسه. جلسوا على بساط، كونوا دائرة حول حنين لتتوج ملكة ذلك اليوم، أمهاتهم يقفن خلف الدائرة ويصفقن لها. أم حنين تحمل وعاءً مملوءاً بالـ(الفراخ⁽¹⁾) والحلويات وأوراق الريحان وتشر محتوياته فوق رأس الملكة. الأطفال بكل فرح يتناولون الفراخ والحلويات المتساقطة من رأس الملكة، الأولاد يبسطون دشاديشهم ليملاًوها، بينما البنات يرفعن ألحفتهم ليملاًنها.

تنكمش الدائرة مع جلبية فوضى فرحة. الأم تواصل رش ماء الورد فوق رؤوس الأطفال. حنين تقود الأطفال وتدخل بهم الغيمة.

3. لمن هذا الحنين؟

المقهى يحتسي زبائنه بهدوء.

الزبائن تغوص في فناجين القهوة، وتغوص في أعين بعضها البعض، وتفتت الكلام تلو الكلام، ومنصور يتهيأ لاحتساء قهوته الساخنة، يشم رائحتها.. يتنشي.. يتذكرها حينما تقلى.. يسمع (طقطقة) حباتها مع بعضها البعض. يتلهف لأول رشفة، يتلمظ الجرعة الساخنة، يغمض عينيه متلذذاً، تصعد روحها الغريبة إلى رأسه وتعطيه شيئاً من الثقل والتوازن.

(1) الذرة المنفوخة المالحة.

من عادته أن يحدق إلى المارة وزبائن المقهى كي يرسم لهم أشكالا مغايرة داخل فنجان القهوة، يرسمهم كما يشاء، يوظفهم في حياة أخرى ربما تكون أفضل.. أو ربما تكون أسوأ.

حين تجلس إلى جانب رجل بدين، فيها شبه كبير من طفلة منصور الذي لم يكتف بالتحديق إلى هيئة الرجل البدين، وإنما رسم له هيئة أخرى مغايرة في قلب الفنجان:

رسمه يعوم بملابسه في سائل القهوة، يجر وراءه ضحكات أطفال مرحين ومشاكسين يرمنه بالبيض، إذ دخلت بيضة واحدة إلى فمه، لكنه أمسكها بأسنانه وابتلعها داخل بطنه، ثم تجشأ وأخذ يخرج لسانه ساخرا من الأطفال، ثم رقص لهم مثل أرنب عجوز، صنع كرات من الطين وقذفها ناحيتهم حتى هربوا. ثم دخلوا إلى بيوتهم خائفين، وآخرون صعدوا أعلى الأشجار كي يتخذوا من أغصانها خيولا يطفرون بها، فقط طفلة وحيدة لم تستطع الهرب من أمامه، ظلت واقفة تحديق إلى جسده المصبوغ بالقهوة. حدق الرجل إليها بقسوة، بكت هي خوفاً منه، ثم اقترب منها ضاحكاً بشدة ليكشف عن أسنان نخرة. جرّ الطفلة من يدها النحيلة ناحية قارب خشبي، وأبحر بها في سائل القهوة، أخذته أمواج دائرية في قلب الفنجان، وكان يهرب من كل رشفة يصنعها منصور بفمه.

ارتعد منصور خوفاً على حين، عدّل من وضع كرسيه بحيث جعله مواجهًا تمامًا لطاولة الرجل البدين، كان مُصرّاً على أن يحدق إلى هيئته،

وقرر أنها هيئة عدوانية، فرأس الرجل البدين يشبه المكعب، وكرشه منتفخ ويتحرك كأنه ابتلع أشياء حية، وشعره الثلجي يوحى بالكآبة، وتلك الطفلة فيما يبدو أنها غير سعيدة.

الرجل البدين شرب قهوته بامتعاض -منصور ما زال يحرق إليه- وأخذ يضرب الطاولة بيده المتوحشة، ثم نظر إلى حنين بعنف. قرر منصور أن تلك الطفلة الجالسة إلى جانب الرجل البدين هي طفلة التي فقدوها منذ زمن، وأن ذلك الرجل خطفها على قارب وأبحر بها في قلب محيط أسود، والقهوة صارت بحرًا أسود ينتهي بدوامة كبيرة يذوب فيها الأطفال. تقفز منصور من رائحة القهوة بعد أن كان يعشقها، كاد أن يقوم من على كرسيه إلا أنه تردد وظل يحرق إلى عيني الرجل البدين فشاهد فيهما:

صورة البدين نفسه يبتسم ثم يكتئب، ثم تجلس إلى جانبه امرأة نسيت أن تلبس شعرها المستعار.. والتي أخذت تتحدث عن أطفال مفقودين، وأن الأرض تحولت إلى مثلث برمودا مخصص للأطفال فقط، ثم تعلن أن هذا الرجل الذي بجانبها هو زوجها السابق وأنه لا يحب الأطفال، وتناشد الجميع بعدم إزعاجه في هذه اللحظة، لحظة احتسائه القهوة المرة، لحظة امتعاضه وجنونه. بعد ذلك كسرت المرأة زجاج عيني الرجل البدين بكعب حذائها.

تنبه منصور ضاحكًا لهذا المشهد الذي لم يتوقع ظهوره من عيني ذلك الرجل، وأحس بالاستياء والحيرة لعدم اهتمامه بكل تلك النظرات

الساخنة المحدقة إليه، إذ كل ما يفعله هو زم شفتيه وشرب قهوته
وتحريك رأسه المكعب وكرشه المنتفخ نحو اتجاهات مختلفة. حينئذ
تبدد صبر منصور وقام من على كرسيه قبل أن يوقعه على الأرض، اتجه
ناحية الرجل البدين، وسأله:

- أتحب القهوة أم تحب الطفلة؟

التهم منصور نظرات غضب من الرجل الذي رد عليه بصوت ثقيل
ساخر:

- لا.. بل أحبك أنت!

- لكنني سألتك عن القهوة والطفلة.

بدأت حين تتفحص منصور بدهشة واستغراب، حتى خيل له أنها
تبتسم وأنها سعدت كثيراً لقدمه، بل قرر أن ذلك صحيح.

قام الرجل من على كرسيه وضرب الطاولة بيده المتوحشة وقال:

- ما دخلك أنت في أنني أحب القهوة أو الطفلة؟

رد عليه منصور غاضباً:

- لأن هذه الطفلة هي طفلي.. وأنت خطفتها مني.

- ماذا؟ هل أنت مجنون؟ هذه ابنتي.

- لا.. إنها طفلي أنا.. أنت المجنون يا من تحب القهوة.

أمسك الرجل البدين بيد منصور بشدة وصرخ بأعلى صوته:

- يا ناس.. هذا المجنون يريد خطف ابنتي مني.. اقبطوا عليه.

سأل الشرطي حنين وهو يعصر أذنبا بقوة:

- قولي يا طفلي العزيزة.. من هو أبوك؟ هذا أم هذا؟

لكنها ردت عليه ببكاء حارق من الخوف والألم.

تناول الشرطي كرسيه المتحرك، جلس وأخذ يدور ويدور، ويتظاهر بالتفكير العميق، ثم ضرب بالعصى على الطاولة فأحدثت دويًا ارتعد منه الجميع بما فيهم الشرطي نفسه، ثم أشهر ابتسامة خيثة وواثقة ووجه كلامه لمنصور والرجل البدين:

- إذن ليس هناك من حل لهذه المشكلة العويصة سوى أن آتي بسكين

حاددة وأقطع الطفلة إلى نصفين كي أقيم العدل.. نصف لك..

ونصف لك.

صرخ منصور وقال:

- لا.. طفلي ستموت.. أريدها كاملة وحية.

صرخ أيضا الرجل البدين وقال:

- لا إنها طفلي أنا.. لا تفعل ذلك أرجوك.. إن هذا لص مجنون.

تيبس وجه الشرطي كأن صاعقة لدغته، أخذ يحدق إلى الرجلين

باستغراب الفاشل، بصق في الأرض ورفس كرسيه المتحرك وقال:

- شي عجيب.. إذن لمن هذه الطفلة؟

ثم عاد من جديد إلى حنين، شدها من شعرها بقوة، وقال لها بخبث:

- قولي يا شاطرة وسوف أعطيك حلاوة.. من هو أبوك..؟ هذا

المجنون أم هذا المجنون؟

صرخت حنين فرعة ومتألّمة.

صرخت حنين.. صرخت، حتى ابتلت الأرض بدموعها.

4. الفقاعات الملونة تقبل خديّ حنين بحنو

أرى من بعيد، الأم تدلق من الشرفة ماءً بفقاعات صابونية. تأتي حنين بعد ذلك تتأمل بفرح ذوبان الفقاعات في فم التراب. فوق السطح شقيقها ينفخ في أنبوب صغير فتطير منه فقاعات ملونة، أقرب أنا قليلاً وحنين تلاعب الفقاعات، تأتي الأم مرة أخرى كي تدلق جردلاً آخر من ماء الصابون، حنين في كل مرة تتنحى عنه، تتطير الفقاعات الملونة فوق رأسها المتشّية وتحاول منع وصولها إلى فم التراب.

أقرب أكثر وثمة أمنية تراودني بأن ألعب بالفقاعات، أشاهد الأم وكأنها مستاءة، تدلق جردلاً ثالثاً من ماء الصابون، بينما شقيقها مستمر في إحياء المشهد بفقاعات جميلة وناعمة تحمل بداخلها عيوناً ملونة تطير بها في الجو الجاف، لكنها لا تصل ناحيتي، ربما لأنني لست قريباً جداً، أما حنين فتحاول أن تغطي فم التراب بيديها الصغيرتين وتضحك ببراءة، بينما بعض الفقاعات تقبل خديها ببرودة وحنو.

هذه المرة اتضح لي وجه الأم، طفولياً، غاضباً، صامتاً، ذابلاً، فستانها ذو لونين غامقين وثمة لحاف يلف رقبتها، بينما شعر رأسها يبدو جافاً، وهي لا تحاول أن تنظر في ما تحت الشرفة، فقط تظهر كوميض غاضب وتدلق ماء الصابون وتخفي في الداخل، بينما طفلتها تحاول جاهدة

الاحتفاظ بالفقاعات لأطول فترة ممكنة في يدها.. فقاعة كبيرة نزلت بهدوء على كف يدها الصغيرة وبنفخة خفيفة من فمها الوردي طيرت الفقاعة وتحولت إلى رذاذ. ماذا لو امتلأت الأرض بفقاعات صابونية ملونة؟ هل سيصبح جميع الأطفال سعداء؟ وهل جميع الأمهات يدلقن ماء الصابون بغضب؟ وهل كل طفلة تمتلك شقيقاً يرسل لها فقاعات ملونة؟ ربما الأم تخرج وتدخل غاضبة بسبب نزاع مع زوجها، ربما هو جالس على كرسي أو على بساط أو سجادة يقرأ صحيفة أو يشرب قهوة وربما يساومها على أن يؤجل رحلة النزهة لأسبوع قادم.. أما هي فتغسل البيت بالماء والصابون لذلك رأسها ثقيل بتفاصيل البيت الكثيرة والمتكررة فتتشرب الحزن والغضب والهم، إذ لا أعتقد أنها تملأ الجردل بالماء والصابون لمجرد التسلية أو تمضية الوقت أو لمجرد أنها تنفس عن نفسها، أو أنها تفعل ذلك كي تلاعب طفلتها بماء الصابون لأن هذه الوظيفة يؤديها الصبي من فوق سطح البيت.

يبدو أن حنين مندهشة من الذوبان السريع للفقاعات سواء في الجو الجاف أو في يدها أو في فم التراب، وقد تكونت بركة صغيرة جداً في كف يدها واستحالت البركة إلى دغدغة لطيفة تضحكها. بينما هناك برك صغيرة تكونت حولها، لا تحاول هي أن تقترب منها وتبتعد بقدر الإمكان عن ماء الصابون الذي يهطل من فوق الشرفة بين فترة وأخرى.

أنا الآن خلف حنين بمسافة قليلة جداً، وهي تنتظر قدوم مجموعة أخرى من الفقاعات مثل انتظاري لها أيضاً، رغبة تلح علي أن أقبل حنين

في خدها وألعب معها، وبينما كنت أتطلع إليها بحنو وشوق خرجت الأم من باب البيت وحملت طفلتها بغضب إلى الداخل بعد أن حدتني بنظرات غريبة يشوبها الخوف، لم أتحمل تلك النظرات، واختفى أيضاً الصبي.

ابتعدت عن المكان دون أن التفت خلفي، وربما خرجت حنين من جديد كي تلعب بالفقاعات واستمرت الأم في دلق ماء الصابون.

نافدتان لذلك البحر*

* صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في عام 1993، مسقط، سلطنة عُمان.

الإهداء

إلى

أمي.. ما زلت تغسلين قلبي بالاطمئنان

صبرك عظيم.. عظيم

لو بيدي لوهبتك الجنات

أبي.. من بذر في نفسي الصمود

1

لوحات

اللوحة

غيوم وكأنها شلال غاضب خلف سد عتيق
برق يدق باب الأرض
رياح تهىء نفسها لاستيقاظ مبكر من خلف التلال والجبال والأشجار
مساحات تحمل ألواناً عدة، «أصفر، أخضر، أزرق»
التضاريس.. كل التضاريس ذات خطوط قرمزية واضحة
تلك هي اللوحة.. التي أخذت تحرق فيها بنظرات قلقة لساعات
وساعات.
اللوحة المخلوقة من الماء.
اللوحة المغلفة بالغموض وخدعة الحياة.
لوحة الغيوم والبرق والرياح.. ولوحة الأرض.
لم تشأ أن تتزعزع من مكانك في تلك اللحظة.. كلا لم تشأ.
لأنك لبست اللوحة.. وألبستك الغموض.
أجساد وأجساد عديدة تمر.. وتمر الدقائق والأجساد تمر.. وجسدك
مزروع أمامها.
شيء ما يفوح غرابية وغرابية.
والمعرض الذي دخلته بالصدفة كان خالياً من اللوحات المرسومة
التي تشد الأنظار، سوى تلك اللوحة وفقط، وكأنها مغناطيس يجذب

المعادن الرخيصة التائهة بين السهول والوديان.. والمنغرزة في صحراء بعيدة.. بعيدة جداً.. هناك في آخر طرف في هذه الأرض.

لبست اللوحة وألبستك الغموض.. غموض الصمت.. غموض التأمل.. وغموض الألوان.

رواد المعرض ينزلقون نحو الخارج ونحو الشمس واحداً تلو الآخر. البعض وهو خارج يحمل معه الكآبة وعدم الرضى.. وجماعة أخرى تحمل حقيقة من الابتسامات الصغيرة. بينما أنت وحيد أمام لوحة لم يقترب منها أحد سواك، حتى الرسام الذي رسمها لم يشأ أن يقترب منها.. إذ يبدو أن قذيفة من الندم أصابت رأسه بسبب رسمه تلك اللوحة، وكان فقط يوزع جسده الطويل على بعض تلك اللوحات البذيئة - في نظرك - والتي لا تمثل سوى زخم من البشر والحيوانات في حركات مختلفة تشاهدها كل يوم.

لبست اللوحة وألبستك الغموض.

والمعرض تخلص من جميع زواره، ولم يبق سوى الرسام.. ورجلين.. وأنت.. وبعض الجدران الصماء المنقطة باللوحات.. وبضع كراسي لامعة حزينة.

وكنت ما زلت واقفاً أمامها بصمود.

جاءك أحدهم.. وكان ذا وجه مصبوغ بالغضب. وقف أمامك.. ربط ذراعيه حول جسده البدين.. صك أسنانه.. فتح ذراعيه إلى أعلى وربطهما من جديد.. وقال:

- سيدي.. جميع الزوار ذابوا في الجحيم.. جميعهم في المنازل الآن.

-

- سيدي.. منذ بداية المعرض وأنت تحرق بجنون في هذه اللوحة..

إن كانت تعجبك اشترها وانصرف.

صوته كان لاسعاً على أذنك المسكينة. ضحكت بصوت عالٍ.. ولم

تبين سبب ضحكك الخبيثة تلك، قلت له:

- ولكنها غالية الثمن.. غالية جداً.

بعثر يديه نحو الفضاء.. ثم ربطهما مجدداً.. وأطلق علامات

التعجب.. وقال:

- ماذا؟ إنها أرخص لوحة في المعرض سيدي.

اشتعل جسدك باللاشيء.. ثم انطفأ في اللاشيء.. وأخيراً قررت

الانصراف من ذلك الركن الناري الشكل.

- أعتذر.. سأنصرف.

وانصرفت بهدوء نحو الشمس.. تاركاً خلفك جنون اللوحة وبعض

الغمغات وضربات كف على كف.

مشيت طويلاً ذلك اليوم، مشهد اللوحة يسيطر عليك.. حتى أنك

كرهت نفسك، وظننت أنك أجهل رجل في العالم. ظللت تمشي

وتمشي.. والطريق فضاء واسع من الاتجاهات الملتوية.. كل اتجاه

انشطر نصفين، ولم تعرف طريقك. كانت الشمس تحرق ما تشاء من

جسدك.. حتى أنها غضبت وأصابها الضجر من وجود كتلة من اللحم
تمشي نحو الفراغ.. من وجود هيكل عقلي يمتطي الهواء نحو الهواء.
وكان للأشجار رائحة منعشة تقلل التعب. تظل تمشي، وعيناك تطلان
نحو لوحة المعرض.. تعثرت بكومة من الرمال الساخنة.. ياه إنها رائحة
الصحراء:

الموطن الذي قذفك إلى هذه المدينة
الجرة الساخنة التي كنت تعوم فيها ليل نهار
ساحة اللعب المتبقية للريح والشمس
حياة الجمال والخيام.. وحياة الرمال.
تلك هي إذن الصحراء المنبوذة.

ولك أنت حياة الطفولة الصحراوية.. وقيادة قطع الأغنام في ساحة
الرمال. لم تشأ يوماً أن تترك خلفك فراشاً ناعماً من الرمال.. كلا لم تشأ..
ومع ذلك تركته لتبحث عن عمل.. وتركت الجميع يعوم في الجرة
الساخنة. وكم تمنيت أن يأتي الجميع إلى هذه المدينة ليشاهدوا رسوماً
من الخضرة.. قصوراً من الإسمنت.. طُرُقاً كالأفاعي.. بشر كقطع
الذئب في الغاب الكبير. تلك اللوحة غطت ذاكرتك بعوالمها.. غرزت
أظافرها الحادة في رأسك.. اقتلعت جمجمتك وطارت بها نحو السماء،
وهناك رأيت النجوم راقدة.. والقمر يحلم بالليلة القادمة وبدوره في
حراسة الأرض بعد الشمس.

في ذلك اليوم أخذتك قدميك إلى حديقة مكتظة بالأشجار والزهور وعرق البشر، ذهبت إليها لتستنشق الهواء الطري الذي ينال كالعسل من الزهور المبتسمة، ولعلك تطفئ اللوحة من ذاكرتك.

كان الأطفال يفرشون أجسادهم على العشب، ابتساماتهم البريئة كأنها قلاذات زهور علقت على رقاب مرتادي الحديقة. سيكبرون حتى السماء، ونحو الغد، حتى تقل ابتساماتهم. في هذه اللحظة يمتطون المرح والرقص والغناء مع الشمس التي كنت تحديق فيها متذكرًا اللوحة وغموضها.

مرح الأطفال بعث في عروقك الانتشاء والقوة، تمنيت أن تعود طفلاً، تمنيت أن تشق رقبة الصحراء وتخلق جسداً لمدينة البياض والخضرة، ولتعمل على تجفيف ينابيع الدم.

- ماذا؟ الدم؟ ما الذي ذكرك بهذا السائل الشيطاني؟

دفنت رأسك بين قدميك.. وبدأت تسأل لماذا حضر الدم في أفكارك القديمة وتلك اللوحة.. كنت في عالم آخر.. كنت في جنة الأرض الصغيرة.. وأصبحت تسبح في بركة من الأفكار المتوحشة.. لكن امرأة مسنة تخرجك برهة من الذي كنت فيه.. وكانت ككتلة من البياض المجعد.. وكانت منظرًا للجنة المهمومة.. وكانت تناديك:

- هيه.. يا ولدي.. تعال وساعد زوجي في النهوض ليجلس على كرسيه.

تلطخت بقطرات من الدهشة.. فتلاشت بسرعة حينما رأيت زوجها
جالسًا على العشب، وبجانبه كرسي متحرك. كان مقطوع القدمين. كان
نصف جسد منحوت بالتجاعيد والتشوهات. ساعدته على الجلوس..
أقعدته على كرسيه، ورشقتك بابتسامة شكر. قال لك:

- لا تندهش يا بني، إنه القتال.. صعب وبغض.

سحبته زوجته بعد أن قلبته في جبينه.. ورشقتك هي الأخرى بابتسامة
شكر. انصرفا ببطء سلحفتين.. تاركين رائحة الشيخوخة تحفر أنفك
الطويل.. وآخذين معهما سرًا من التاريخ المعذب.. وربما لن ينبش أحد
هذا السر.

حينها أحسست بأن قلبك بدأ يطير من مكانه.. تاركًا لك دمائه فقط.

- «ما الذي ذكرك بهذا السائل الشيطاني؟»

جوف الحديقة مملوء برائحة النسيان.. نسيان كل شيء.. إلا أنك لم
تمتلك القدرة على نسيان اللوحة وسر اهتمامك بها.. مشهدها قريبًا
منك.. أمام عينيك: غيوم وكأنها شلال غاضب.. برق ورياح..
مساحات.. وكل التضاريس بخطوط قرمزية واضحة.

تعود لجمال الحديقة.. لمرح الشيوخ والأطفال.. لصفير الهواء..
لرقصة الزهور والنافورات.

تعود إلى اللوحة: غيوم وكأنها شلال غاضب.. برق ورياح..
مساحات.. وكل التضاريس بخطوط قرمزية واضحة.

بدأ الصداع يغزو رأسك المتروس بمشاهد مفككة. صداع.. صداع
والرأس يدور. تمسك بصدغيك وتعصرهما حتى الاحمرار.. ثمة ألم
يشتعل.. تسقط مغشياً عليك، وبعدها لم تجد سوى السواد.. أقفلت
عينيك ونمت لمدة طويلة.. دخلت في أحلام وخرجت منها.. كانت
مشحونة بالمخاوف والقلق. وعندما استيقظت.. وجدت نفسك في عالم
آخر.. حيث لا يوجد عشب أخضر ولا أطفال ولا زهور.

انطفأ كل شيء.. كل شيء. وجدت كومات من الرماد والقبور
والجثث. كل شيء كأنه حلم.. حاولت الخروج منه لكن دون جدوى..
لأنه لم يكن حلمًا. على الفور تذكرت اللوحة. ركضت نحو المعرض..
دخلته.. وكأنك دخلت كوخًا من الرماد. كانت اللوحة ما تزال معلقة على
الجدران التي غدت هشة كالقطن. ورأيت مشهدًا لم تره في حياتك:
اللوحة تمشط أعضائها.

الألوان تنسكب بغزارة نحو الرماد.
التضاريس تحمل أشلاءها لتغادر الأرض.. تاركة لونها القرمزي.
اللوحة الآن.. ساحة جرداء مطعمة بخطوط قرمزية واضحة.. واضحة
جداً.. حاولت أن تجمع الألوان المتساقطة لتسقيها للوحة.. ولتكون
لوحة أخرى.. ولكن بلا فائدة ترجى. هذه المرة قرأت عنوانًا كُتب بخط
صغير أسفل البرواز الخشبي.. لم تره من قبل:
«الساحة المُنتظرة».

هربت مفزوعاً من ذلك المكان تاركاً اللوحة تفسخ ثوب الأرض
المتبقي. وعدت إلى صحراء الأجداد.. لتحضن فراشك الناعم.

فبراير 1991م

زكريا

المشهد لم يكن مألوفاً، وثمة لغط يتردد.. يناوش الصمت المتبقي من ليلة البارحة. عادة عندما أستيقظ تخطفني رائحة البيض المقلي من طرف أنفي نحو المطبخ.. وأظلم أحلم بوليمة إفطار تزيد من حجم جسدي القصير.. لكن هذا الصباح لم يكن هناك سوى الضجيج.

«اطوِ الحلم يا زكريا.. وابتهج في هذا الصباح.. ابتهج».

صوت يلعب في رأسي لعبة الإغواء.

في ساحة بيتنا الصغير قتال بين أنفاس وأنفاس.. وعرق يندلق من أجساد تتراكض. علوان يخرج من غرفته حاملاً صدره العريض ويدخل الحمام. عبدالرحمن يتبع علوان ويحمل شيئاً من الحديد وسطل ماء متأكلاً.. وأخي الكبير الخجول يحمل عصاً ويتبعهما.

ماذا هناك يا ترى؟ ومن أين لي أن ابتهج وكل هذا اللغط والضجيج؟ تسلفت ببطء من بطن السرير.. وكان مخاض عسير الانفلات من برودة النوم.. سريري هذا يظل جذاباً وقت الحاجة.. رغم أنه بات يلفظ قطعاً من بطنه المشقوق. النمال تشكل حقلاً يدندن باقتراب موسم ما.. والشمس جلاد في هذا الوقت.

نعيش الآن - أنا وأخي وصديقانا علوان وعبدالرحمن - في مدينة تبتلع الأجساد التي تركت قراها.. تلك القرى التي ما زالت تهيم مع هوائها البارد وسط الخضرة. وقبل الرحيل قالت لي جدي:

- «عند سقوط العرق من جبينك.. ستتذوق طعم الحياة والعمل».
بعد ذلك اشتعل حريق العناق مع التيه.. ورفعنا راية الرحيل ورحلنا.
فشبح الفقر ولد معنا.. وأخذ يغرز أظافره في لحمنا كل ليلة وكل صباح.
والأرض أخذت من الدم ما أخذت.. إلا أنها ألفت بأجسادنا نحو هذه
القمامة.. لنبحث في مجهول معتم.

كان اللغظ ما يزال ينمو في هذا الصباح.
أحمل نعاسي باتجاه حنفية تلفظ ماءها قطرات.. أغسل وجهي
لأزيله.. كان الماء ساخناً.. لكنه انقطع فجأة كالمعتاد.. سكنت الحنفية..
كان وجهي مشبعاً بالصابون.. «عليك اللعنة يا حنفية الشؤم.. يا ناس أريد
ماء.. الصابون حرق عيني».

«اطوِ الحلم يا سيدي، يا زكريا.. وابتهج في هذا الصباح.. ابتهج».
الصوت الساذج ما زال يعلن العناد.
لا بد من معرفة ما يدور في ذلك الحمام اللعين.. الهرولات تزداد
باتجاهه. هل يشكون من أمعائهم؟ تناولت معهم العشاء نفسه في الليلة
الفائتة.. ربما يكون ثعباناً يغازل الصراصير، كشفه علوان وأطاح به.. أو
ربما تكون جنية ظهرت على أخي الكبير تريد مضاجعته.. مسكين أخي..
لا بد أنه صرخ من الرعب.. وأعرفه.. فهذا أخي، سيمتتع عنها.. وإن كنت
في مكانه لاختلف الوضع.. فأنا أحلم بامرأة أضمرها إلى صدري للأبد..
وأنحت في قلبها الحب.. ليبقى ضوءاً لا ينطفئ..

- «ماذا هناك يا أخي.. يا حبيبي؟».
- «يا زكريا الكسول.. اذهب إلى فراشك.. فأنت لا تنفع لشيء».
- دائمًا يصدني هذا الشقي الأكبر.. الخجول.. الذي ما إن يشاهد فتاة جميلة حتى يحمر وجهه ويهرب.. يومًا شاهد واحدة.. غمرت له.. فانتابه الغضب.. وهرب. وجاء إلي بعدها يحكي مغامراته.
- «أقتلتم الثعبان يا أخي؟».
- «ثعبان في رأسك يا أحمق».
- «إذن ممن المؤكد أنك أسرتم الجنية.. آه.. نعم أسرتم الجنية.. إنها لي.. إنها لي».
- «أراك تحمل أحلامك في اليقظة أيضًا.. هيا اذهب وأفرغها في القمامة.. هيا».
- دائمًا يصدني هذا الشقي الأكبر.. دائمًا. بنفسه سأكشف المجهول الذي خرم عقول هؤلاء المهرولين إلى مكان الروائح التنتنة.. المكان الذي أكره الذهاب إليه سوى الحاجة التي تزج بي مُكرهًا إلى جوفه القدر.. فخيوط العرق تحفر في جسدك كأنهر تحمل معها سكاكين من نار.. والصراخ طويل طويل.. صراخ الغضب والتعب والغم. إني الآن محتاج أكثر لذلك الحمام حتى أقضي حاجتي. مشيت حتى أدخله.. لكن علوان أوقفني وقال:
- «إلى أين أيها القصير؟».

- «أريد دخول الحمام».
- «لا تستطيع.. ألا ترى..؟ البالوعة تتقيأ كل ما في جوفها.. في الداخل إعصار من المفترض أن تساهم في إخماده».
- إذن هذا كل ما في الأمر.. بالوعة تتقيأ كل ما في جوفها.. أيتها البالوعة الحمقاء.. حقاً لأنت بالوعة شؤم.
- كان أخي منهمكاً في إدخال العصا نحو ثقب ما.. كانت يدها قدرتين.. لذلك لن أصافحه بعد اليوم.. وكل من دخل ذاك المكان صارت رائحته محروقة تجلب الإغماء.
- كنت أذوب في مكاني.. لكنني لن أقدم أية مساعدة.. تكفيني مشكلتي.. قضيت حاجتي في صفيحة قميئة متآكلة.. وكأني أعيش في سجن تعذيب.. صفعت الأبواب وارتطمت بالجدران عدة مرات.. اهتز البيت وبان غضبه السريع.. إلا أنه سكت وترك شقوقاً تكشف عن عريها المجنون.
- «ما الذي فعلته يا أحمق؟». نهمني أخي.
- «لا شيء.. لا شيء.. مجرد هياج بسيط وسيزول عند أول الليل».
- «يا أحمق.. شققت الجدران».
- «سريري يبكي.. يريد جسداً يدفعه.. سأذهب إليه».
- سرير الجمرات التي لا تنظفيء وسرير الأحلام الناقصة. سأذهب لأكلم نومي المخروم.. وأهنأ بإجازتي الإسبوعية.



«سيدي زكريا.. سيدي زكريا.. حان وقت استيقاظك».

خطفني الصوت من نوم عميق له أجراس موسيقية.
كان هذا صوت علوان.. كان يلبس ملابس بيضاء نظيفة.. أناقة
صارخة.. عطر يحفر أنفي.. الغرفة جدرانها ملساء ولونها وردي.. السرير
كبير وناعم كغيمة باردة.. من السقف تتدلى مصابيح بلورية.. أين أنا بحق
السماء.. أين أنا؟

- «ما بالك سيدي؟».
- «أين سيدك هذا..؟ ماذا هناك يا علوان؟ وأين أنا؟».
- «أنت في قصرك سيدي.. وحمامك جاهز».
- «ما.. ما.. ماذا.. هل أنا في حلم؟».
- «عفوا سيدي.. ربما كنت في حلم.. اطوهِ سيدي.. وابتهج في هذا
الصباح».
- «ربما.. ربما.. لقد حلمت بإعصار ذوّب رأسي».
- «حلمك لطيف سيدي».
- «ماذا؟».

أخذني علوان الجديد إلى حمام كبير مكسوً ببلاط لماع.. يحوي
أحواضاً تشبه برك سباحة. غصت في رغوة صابون معطر.. الماء بارد
ينسال كالهواء على جسدي.. الفقاعات تنسكب على رأسي مثل
الموسيقى.. الانتشاء يداعب صدري.. لا ينقصني سوى امرأة جميلة
تشاركني هذه اللحظة. خرجت من الحوض ومشيت في أرض كالمرايا..
وأصبحت الحياة أسطورة من الذهب.

- «أين أخي يا علوان؟».
- «إنه في الغرفة المجاورة.. نائمًا مع أميرة الجنيات.. وأمرني أن لا أزعجه».
- «أخي أنا.. أخي أنا.. نائم مع...».
- انسكبت الضحكات من فمي كالماء.. وصدى الضحكات طعن رأسي مسيئًا لي صداً خفيفاً.
- «ضحكاتك لطيفة سيدي». قال علوان.
- علوان هذا.. الذي كان يأمرني أن أجلب له علبة السجائر من الدكان المجاور.. على أن يعطيني حبتين من العلبة.. اليوم هو نفسه بهيئة خادم مطيع. وذاك أخي الخجول.. يرسم الآن عرقاً وأنفاساً داخل غرفته.. تاركاً العالم يدور في رأسي المسكين.
- «ما بال سيدي؟».
- «هل كنت أنا في حلم؟»
- «بالطبع كنت في حلم.. أو ربما كنت في كابوس سيدي».
- «وقريتي؟».
- «سيدي.. من أسبوع واحد فقط كنت تنعم في القرية بصحبة إحدى الأميرات الفاتنات.. ألا تذكر؟».
- «أنا؟ ومن تكون هذه الفاتنة؟».
- «سلامة ذاكرتك.. إنها إحدى من تصطحبهن إلى القرية كل أسبوع».

- «أريد أن أراها فوراً».

- «لكن عندك موعد آخر مع فاتنة أخرى سيدي».

شعرها الذهبي يرسم خريطة اللذة والعذاب.. يستيقظ الفأر في قلبي..
تأتين أنفاسها على شكل فقاعات وهمية جميلة.. وكان صدرها ينادي
وينادي.. وفي قصر يقطن سماء بعيدة تلتقي الشفاه.. ترقص طويلاً مع
أنغام الأنفاس.. إنها الحياة المستعارة لمدة قصيرة.

«حبك لطيف سيدي».

«قريتك لطيفة سيدي».

«اطوهِ.. اطوهِ يا سيدي يا زكريا.. وابتهج».

ومضات الإشراق وفاتنات.. نوم موسيقي.. جزر خضراء غائرة في
العقل.. كلها غيوم تنهال على رأسي كزخات المطر.. غيوم باردة ناعمة
لها مذاق العسل.

الصمت موال حزين في هذا الليل.

أحمل جسدي القصيرة وسط الظلام وأمشي.. ثمة خوف طفيف
يتحرك في قلبي.. ربما بسبب المجهول.. وربما بسبب الظلام الذي يكسر
عظامي.. البيت الصغير ما زال بعيداً.. قطط متوحشة ترسم لوحة رعب
ليلية.. كلما زدت في خطواتي يقترب البيت.. كل خطوة تصحبها رعشة..

وكل رعشة يطير معها القلب.. ذلك المسكين الذي خلق لحياة واحدة فقط.

روتين من شبكة الوهم يسيطر عليّ كل ليلة وكل صباح.
إضاءة تنمو في ليل الانتشاء.. صخب يتردد في العتمة.. أنام عند الفجر
وأحلم بكوخ صغير يرقد معي في عشب أخضر ضاحك.. وعندما
أستيقظ.. تستيقظ معي أسواط الحياة.. تستيقظ الملاهي.
في يوم ما.. ركلتني قدم خشنة في ظهري.. تألمت.. قال الصوت:
- «يا أحرق قم.. بدأ الأسبوع.. ستفصل من عملك.. هيا قم».
وكانه صوت أخي.. كنت بين النوم واليقظة.

يوليو 1991م

الرجل صاحب الصرة

ربما..

ربما يكون..

ربما يكون الهواء باردًا الآن يداعب وجنتيك يا وليد.. أيها الصغير.. يا من تحديق في السماء وترى فيها صورتك حينما تغدو شابًا تناوش الفتيات بنظراتك. هي لحظات تغمض عينيك وتنام.. لكن بعد أن تعد النجوم.. تلك النجمة صغيرة بعيدة.. وتلك كبيرة قريبة.. وتحلم.. ساحة واسعة.. غرف كثيرة متراسة.. رجال يزعمون ويمسكون دفاتر وعصيًا يلوحون بها.. كوخ يكتظ حوله أطفال كثيرون يجلبون من داخله حلويات وفطائر.. ربما تكون من بين أولئك الأطفال يا وليد..

ربما تكون..

ربما..

- «وليد.. يا وليد.. استيقظ يا وليد».

صوت أيبك يقشع حلمك وسحابة نومك، كانت عيناك الصغيرتان تلتهمان الأشياء من حولك:

النخيل ترتفع.. الأشجار تراقص.. البيت شاحب صامت.. النجوم في السماء تراكض حول القمر. القمر؟ ما قصته هذا المشاكس؟ قمر عجيب

هذا القمر.. فوق مشيك تشاهده يتبعك.. تصيبك الدهشة.. تسأل أمك
عن هذا السر، وكانت تجاوبك:

- «القمر يحبك يا وليد.. يريدك أن تزوره يوماً».

أعرفك يا وليد فأنت تخبي كلام أمك في قلبك.. وفي الصباح تنسى
القمر.. لا تذكر سوى أصدقائك وكيف تضحك معهم.. وكيف تقودهم
إلى الشجرة المنقطة بشمار (النبق).. وكيف أنها تحضنكم بأغصانها
الفارعة.

- «وليد.. قم يا وليد».

قمت من مكانك.. تصيبك الدهشة وتظل في صمتك.. تدعك
عينيك.. تتأب.. النعاس يوسوس في عينيك، لكن صوت أبيك المتكرر
يطارده. أخوك الصغير ما يزال نائمًا إلى جانبك.. تتعجب من عادته في
فتح فمه أثناء النوم.. وهل تفتح فمك أثناء النوم يا وليد؟ أنت لا ترى
نفسك وأنت نائم.

أبوك يحرق ناحيتك ويهديك ابتسامة غاضمة.. تأتي أمك بلحاف ثقيل
وتغطي أذاك.

و.. و.. وماذا هناك عند الركن يا وليد؟ ها.. ماذا رأيت؟ صوب
نظراتك هناك عند زاوية الحوش.. ماذا رأيت؟

رجل غريب أليس كذلك؟ إنك لم تره من قبل.. تصيبك الدهشة
وتظل في صمتك.

الرجل ذو لحية طويلة مبعثرة.. دشاشته متسخة.. وبخبث يمسد
لحيته. لم تتفوه بكلمة يا وليد.. النعاس يدغدغ عينيك وجفنيك. وأبوك
بصوته يكشف نومك.. أمرك وقال:

- «قم يا وليد.. قم واشرب الماء».

- «ما عطشان».

- «وإن كان.. قم واشرب».

تمشي بتثاقل إلى مكان (الجحلة⁽¹⁾) المربوطة إلى عنق شجرة الليمون
المزروعة وسط حوش البيت.. وتجاهلت وجود الرجل ذي اللحية في
هذا الوقت من الليل. أظنك يا وليد رأيت صرة أمامه.. أليس كذلك؟
وبينما كنت تشرب من الجحلة.. كانت حشرات لا تعرف نوعها تهرش
رجليك. لكنك تبعدها برفسة واحدة.. ولمحت قطعة تموء فوق سور
البيت.. تتذكر أنك رأيته وقت الظهر.

تعود وتجلس إلى جانب أمك.. يسري في عروقك دفء لا مثيل له..
تحقق في حركات الرجل الغريب.. وتظل في صمتك.. سألك أبوك:

- «هل شربت الماء؟».

- «نعم أبي».

- «إذن قم الآن وتبول».

(1) الجحلة هي جرة أو إناء فخاري يستعمل لتبريد الماء.

لهذه الليلة يا وليد سر طويل .. عقلك لا يتسع لمثل هذه الغرابة .. تقوم وتمشي لتبتول .. تعرف جيداً أن عيني الرجل الغامض تراقبانك .. ولا يغيظك شيء سوى تمسيده للحيته التي تعانق كرشه المنتفخ .. وتلك الصرة ملهى آخر ليديه الضخمتين .

رفعت سروالك، وكونت بركة صغيرة من سائل أصفر مزبد .. نظراتك ترنو نحو قن الدجاج .. تتعجب من صمتها .. ربما هي نائمة الآن .. وقت الصباح كانت تركز هنا وهناك وتنشر نقنقاتها الحادة .. وكنت يا وليد ترمي لصغارها شباك المداعبة فتغضب الأمهات .. فتطاردنك بشراسة .. فتهرب وتسمع ضربات قلبك الصغير .. تختبي وراء أمك لتنهأ بالأمان .

تعود إلى جانب أمك مرة أخرى .. الرجل يعبت بالصرة .. يرسم ابتسامة عريضة بشفتيه اللتين أخرجهما بصعوبة من بين شاربته الكث ولحيته .

أحسست يا وليد بأن الجميع يحدقون فيك . تتضارب الأسئلة في رأسك .. تتشبث بأمك .. ما قصة هذا الرجل ؟ هل له أبناء ؟ من المؤكد أنهم شرسون كهيئة أبيهم هذه .

اكتشفت الآن بأن الرجل انتقل إلى مكان جديد يعبت به .. ألا وهو شاربته ..

والآن ..

والآن يا وليد ..

والآن يا وليد يقودك أبوك ناحية الرجل.. لا أحد يخبرك بشيء..
يдахمك الفزع.. تتشبث أكثر بأهلك.. لكن أباك ينتزعك منها.. قلبك
يرتجف.. تطلق نسيجاً حاداً.. تحرق في عيني أمك القلقتين.. تسمع نقنقة
دجاجة.. تمنيت أن تلاحق صغارها.. يجرك أبوك ناحية الرجل.. وهذه
المرة أسرك بشيء:

- «لا تخف يا وليد.. هذا الشايب عبود.. سيختنك الليلة».
لم تفهم كلام أبيك وسط الخوف.. إلا أنك بعد ذلك عرفت أن ذلك
الرجل عبث بقسوة في أشياء أخرى لا تخصه.. لا تخصه على الإطلاق.
يوليو 1992م

حبات البرتقال المنتقاة بدقة

الآن..

جميع الأشياء تحت سيطرة الشمس
هناك سيارات تلتهم الشارع بقسوة.. ورجل أعرج متردد
هناك شارع عريض أسود.. ورصيف حارق حزين
ويظل الجميع تحت سيطرة الشمس

الرجل الأعرج يحاول عبور الشارع كي يصل إلى الرصيف المقابل
المؤدي إلى بيته.. لولا هجوم السيارات..
وضع بجانبه (كيس البرتقال) الذي اشتراه منذ فترة، وقف كثيرًا عند
بائع الفاكهة كي ينتقي أفضل حبات البرتقال.
يتخيل مشهد أولاده حينما يعود إلى البيت ويقدم إليهم (كيس
البرتقال).. سيفرحون ويرقصون.. يلتفون حوله ناثرين قبلاتهم
المحمومة.. يأخذون الكيس ويتناول كل واحد منهم برتقالة ويقشرها.
(وما زال يحاول العبور..)

الشمس تغرز أشعتها في رأسه ورقبته.. عرقه يسيل.. عيناه تحرقانه..
يداري لهيب الشمس بوضع كف يده على جبينه.. وصارت يده مظلة
عاجزة..
بينما..
بينما الرصيف..

بينما الرصيف حارق حزين..

سيارات تلتهم الشارع وتمضغ الهواء الساخن..
والأعرج كلما رمى قدمه اليمنى إلى طرف الشارع.. انتشلها بأقصى ما
أوتى من سرعة.. في الوقت نفسه زوجته تقف داخل المطبخ أمام حنفية
مصدأة تلفظ ماءها قطرات.. تغسل الأرز.. وباللحاف الذي يغطي رأسها
تمسح عن جبينها العرق.. بينما طفلاها يلعبان بالكرة ويصرخان في ساحة
البيت.. الآخرون فرشوا بساطاً بعد عودتهم من المدرسة وتحت المروحة
البطيئة انكبوا يحضرون دروس الغد.. بينما صراخ الطفلين يزداد..
(وما زال يحاول العبور..)

وعدهم بحبات البرتقال.. فاكهة هذا الشهر.. ربما في الشهر القادم
سيقدم لهم تفاحاً أحمر.. يتخيل كل واحد منهم وهو يقضم تفاحة.
يلسعه الرصيف..

الرصيف الحارق الحزين..

أبواق السيارات عنيدة.. تفجر في نفسه مشهداً لأمه وللحادث القديم
الذي تسبب في إصابة قدمه اليسرى..
فأمة كانت تعلم ابنتها الخياطة.. والابنة تعلم أمها الكتابة.
قلب الأم يرتجف مسبقاً حتى جاءها خبر الحادث لتسقط مريضة. يفقاً
عين المشهد لأنه يحاول العبور.. فلا يستطيع.. السيارات تزمجر
بشراهة.. الأبواق تقذف اللعنات.

بينما..

بينما الرصيف..

بينما الرصيف حارق حزين..

والأشياء تحت سيطرة الشمس.

نوافذ السيارات لوحات للوجوه الملونة

بين الوهج والانتظار وحرارة الرصيف والوقوف طويلاً.. تتراءى له
نوافذ السيارات وهي تعرض وجوهاً شرسة أحياناً.. وأخرى مرحة..
وأحياناً صور أصدقاء قدامى.. أطفأ الزمن وجوههم وأشعلتهم الذاكرة
الواهنة تحت ضوء الشمس الحارق.. هكذا بدأت تظهر تلك الوجوه..
كالوميض الخافت.. توقظ قلبه المرتعش.. تنفث فيه لحظات مضت
حينما كان يشاركونهم الحزن والفرح.. الآن مجرد صور عابرة داخل نوافذ
السيارات المسرعة.. وتحت سيطرة الشمس.. وهو على رصيف حارق
حزين.. وقدام رصيف آخر يتمنى الوصول إليه.

كلما رمى قدمه اليمنى إلى طرف الشارع انتشلها بأقصى ما أوتي من
سرعة.. لأن سيارة تزمجر من اتجاه غير بعيد.. وكأنه يضع قدمه في ماء
شديد السخونة، ومن أثر لسعة الماء يسحبها بسرعة.
محاولة أخرى تسنح له.. فقد انقطع مرور السيارات.. أو كانت ما
تزال بعيدة.. حشد كل عضلات جسده الرهيفة.. رمى قدمه اليمنى إلى

طرف الشارع.. اتكأ بالأخرى المصابة.. وظل يهرول في الشارع العريض
بأقصى ما أوتي من قوة.. فليس بوسعه سوى الهرولة.. الهرولة فقط.
نجح أخيراً في أن يستحوذ بقدميه على الرصيف المقابل.
استعاد أنفاسه.. دعك عينيه.. جلس يستريح محدقاً في السماء.. وكان
لهائه يقل تدريجياً.. انتابته نشوة الانتصار التي سرعان ما تلاشت.. فقد
تذكر (كيس البرتقال) الذي سوف يقدمه لأبنائه عند وصوله.
لكن..

يداه فارغتان إلا من خيوط العرق..
نظر إلى الرصيف الذي كان يقف عليه حيث (كيس البرتقال) وحيداً
هناك تلسعه الشمس..
أخذ نفساً عميقاً ينم عن حزن وأسى.
أعطى ظهره للشارع.. والسيارات.. والشمس.. ولكيس البرتقال
البعيد..

ومضى بمشيته العرجاء نحو البيت..
منكس الرأس حزيناً
قلبه يرتجف
عيناه ذابلتان
يداه فارغتان

أكتوبر 1992

2

ثقل الكائنات الليلية

هنا الليل

1. جني الأرق

الظلام يركض في أحشاء الليل..
يركض مسرعًا كالبرق.. يحمل سلة كبيرة مملوءة كرات سوداء
ينثر الكرات هنا وهناك..
ومن خلال نافذة غرفتي تتساقط بعض الكرات
كرة تلو الكرة.. تتساقط..
إلى أن أصبحت الغرفة كومة كرات سوداء.. اتحدت مع بعضها
البعض لتكون أمامي دخان أسود في صورة ماردا:
إنه جني الأرق ولا شك.. موعد زيارته اليومية.
أحاول أن أطفئ عيني وأنا.. لكن الجني يحدق فيهما بشراهة.. كان
يتسم بخبث.. يمسد لحيته ويقهقه.. وكرات كثيرة تدور حول رأسه
وعنقه وخصره..
تحول سريري إلى قبر مهشم لا يسع جسدي.. وماء النوم تجمد.. ولم
يعد يبلل عروقي..
أنظر في عيني الشرستين.. أستعطفه وأقول له:
- «أخرج يا جني الأرق ودعني أغمض عيني»..
يقترّب مني.. كان فمه منبع ضحكات قيئة.. رد علي وقال:

- «لماذا تنام؟ لم النوم.. الليل خريطة الهدوء.. فاقتلع رجلك
الكسولتين عن الأرض الغبية هذه وامش.. امش لعلك تجد ما
يغسل صدرك بالاطمئنان.. أو تجد زهرة تأمل.. أو تجد امرأة
تعانقها.. أو حتى تجد حلمًا جميلًا تدخل في بطنه الواسع».

- «إنك تعبث بدماعي».

- «قم يا طفلي.. قم.. أنا ما أتيت إليك إلا لأحثك على أن تدع
عينيك مفتوحتين».

- «هما مفتوحتان طوال اليوم.. أنت مزعج».

- «لا تغضبني.. وإلا مسختك هواء.. هيا أغز الليل وأنا سأختفي
وأتبعك».

خرجت من البيت منكس الرأس. قدامي وخلفي منازل مرصوفة
كحبات الخرز. كان الشارع أمامي طويلًا وأسود.. وضوء القمر يتسكع
فيه مختالًا ومغورًا بعد أن يعاند الرياح الهوجاء. أحمل في رأسي شمعة
تأمل لمسرحية العزلة والهدوء. أرغب في معاندة الضوء لأمشي نحو
القمر وأقطف من فاتنة قبلة الليل.. يجب أن أهرب من الجنى.. علي أن
أقتله.

- «أنا بجانبك يا كسول.. هل أتاك حديث النوم مرة أخرى؟».

- «أي نوم.. لقد هرب.. وهربت الأفكار من رأسي».

- «يبدو أنك لا تعرف من أنت».

- «أنت مزعج كبير».

- «أنت من يجب عليه أن يعرف كل شيء».
واختفى مجدداً. سوف أنتظر حتى يتهشم الظلام ويهبط الصباح..
والجني سوف أخطط لقتله.. واليوم سوف أنهى زيارته المتكررة لي.

2. طيور الصدى

لم يبق في هذه المدينة سوى الظلام.. المدينة المكتظة بالكلاب والقطط
والذئاب.. التي تعلق على صدرها قناديل لا تضاء إلا بأمر النهار.. مدينة الآبار
المبعثرة.

جلست على صخرة حزينة وشاركتها الصمت والحزن.. كانت قدامي
مقبرة المدينة تتفنن في تغيير شكلها.. مرة تظهر على شكل زهور ذابلة.. ومرة
على شكل بحر كسول ملطخ بالسواد.. ومرة على شكل غابة صفراء.. ومرة
على شكل أرض صغيرة كروية تتعثر أثناء دورانها لتلقي بكل الأحياء
والأموات في الفضاء الواسع.

تحول رأسي إلى كرة تدور.. ولا تتوقف.

لم أنا مستيقظ والكل في موت قصير؟

- «أريد أن تعرف لماذا.. ماذا.. ماذا».

كان صدى صوت يبدو أنه ينبعث من أحد القبور المفتوحة.. يأتيني على
شكل طيور بيضاء غريبة الشكل.. لم تكن مألوفة.. كانت كالسحب لها أجنحة
ترفرف بالصدى.

قلت لصوت الصدى:

- «نعم أريد أن أعرف لماذا؟».

قال الصدى:

- «لأن الليل حفرة عميقة تخبيء أسرار النيام.. النيام.. نيام.. نيام..».

- «حيث الصمت المؤقت.. المؤقت.. مؤقت.. مؤقت..».

- «حيث الهدوء والبعد عن صخب النهار.. النهار.. نهار.. نهار..».

- «النهار الذي يحمل في بطنه صرخات التعب.. التعب.. تعب.. تعب..».

- «لكنه ليل خائن.. خائن.. نئ.. نئ..».

- «يعطي أحلامًا كاذبة لأناس سذج سرعان ما يحتفظون بالحلم الجميل.. الجميل.. جميل.. جميل..».

- «هيا ابحث عن نهار التعب لتجد ليل الراحة.. الراحة.. راحة.. راحة..».

انقشعت الطيور.. وطار الصدى بعيدًا.. لم يبق سوى قمر يخبئ وراء غيمة خجولة تحاول أن تعصر ما في جوفها.. فلا تستطيع.

3. الشبح الأخضر

جني الأرق.. كرات الظلام.. المقبرة وطيور الصدى.. عالم مفتت ينحت في رأسي مشاهد مسحورة.. هل هو ليل الغرائب؟ أم ليل الحلم الكئيب؟ أم واقع غير محسوس ومرئي؟ قال الصدى إن الليل حفرة عميقة.. بل حفرة مملوءة بماء السراب.. ماء مشاكس يلسع البدن ويهرب.. تاركًا آلامًا مبرحة.

جني الأرق يفجر هلوسة الأرق.. تتبعثر في الظلام.. وفي الصباح ير حل
ويتركني منهزماً. ملعون هو بجسده اللامرئي.. قادر على الاختفاء وهذا
سلاحه.. لكنني ما زلت عازماً على التخلص منه.. دعه يظهر ولو لمرة.

وعندما تراه لي بجسده القبيح.. ركض بعيداً عني.. وتلك خدعته حتى
أتبعه.. عندها يفتح مشهداً جديداً ينفجر في دماغي.

رأيتَه يدخل أحد المستشفيات.. وكان المستشفى مثل جوهرة لامعة في
الظلام. دخلته ودخلت ممرات الصمت.. ابتلعت رائحة الأدوية.. هاجمني
الصداع.. ممرات طويلة كأنها بلا نهاية.. أبواب تقابل أبواباً.. أرضية تمحو
الخطوات.. لا توجد حركة.. لا صوت.

ينفتح أحد الأبواب ويظهر منه شبح أخضر. كان عامل النظافة يمسك
جردل ماء ومكنسة.. كان وحيداً مثلي.. سلاحه المكنسة.. وهي من تربي
أبنائه.. لا يهمه من يأتي ومن ير حل من المستشفى.. خلق لنفسه عالمه
الخاص.. نهاره ليل.. وليله نهار.

تقدمت نحوه لأسأله عن الجني:

- «أسمح؟».

- «أية خدمة».

ترددت.. ماذا أقول له؟ هل أقول بأنني أبحث عن جني الأرق.. سيصفني
بالجنون.. وسيضحك.. إذن سوف أسهر معه حتى الصبح.. سيعد لي شيئاً
وقهوة.. وبذلك سيغتاظ الجني الأحمق.

قلت له:

- «أريد أن أتكلم معك بضع دقائق».

- «تفضل».
 - «أنا وحيد بين أحضان الوحدة».
 - «لطفاً لم أفهم شيئاً.. الطبيب المناوب في الغرفة المجاورة».
 - «لكنك وحيد مثلي.. وإذا التقينا تنكسر الوحدة».
 - «دعني لعملي.. أنا لا أفهم شيئاً مما تقول».
 - «وحيد أنا.. وحيد».
- أخذ يحدق في عينيّ بغرابة.. وكأنه يشرب منهما مآسي قرون مضت..
يحمل مكنسته العظيمة ويفتح باباً أو عالماً جميلاً ويدخله. ياه.. حتى
أنت أيها الكهل تطرد ابناً جاء إلى صدرك يحاول العثور على قلب كبير
يبعث فيه تعب الحياة.. حتى أنت.
- يا إلهي.. ما الذي يدور في رأسي الصغير.. حتما تهت ولم أعرف
طريقي.. أهو الحلم؟ أو هو ماء السراب؟ كلا.. بل هو الليل.. وعليّ أن
أتخلص من الجني الذي حقن جسدي بالقلق ورحل.. رحل الخيث..
رحل.

4. بحر الداعة

فضاء أسود أمامي.. ما زال القمر يتلصص من وراء غيمة.. الغيمة
وكأنها تحدق نحو شبح مبعثر الملابس.. وكان الشبح رجلاً يمسك
قنديلاً يرفرف بالضوء.. يضع على كتفه الأيمن بندقية عتيقة.. له لحية

- يقطر منها رذاذ الماضي .. عيناه واسعتان، وكانتا تبحثان عن شيء مفقود.
اقتربت منه .. لكنه رآني وسبقني في الكلام .. قال وهو يشير إلى القمر:
- «تعال .. تعال .. أرجوك .. اجلب ذاك القمر حتى يقتل الانطفاء».
- «القمر؟»
- «ههههه .. ضحكت عليك .. القمر مغرور .. القمر لا يأتي».
- «عن ماذا تبحث؟»
- «عن زهري .. كانت مزروعة هنا .. نعم هنا .. كانت مزروعة .. يا
لجمالها .. يا لحنانها .. لكنها سرقت .. سرقت».
أخذ بيكي بحرقه .. قطف قلبي .. يبدو أنه أمسك بالحرية بسبب
الجنون .. سأله:
- «هل هذه البندقية محشوة؟»
تجاهل سؤالي، ورد عليّ بسؤال:
- «أتعرف ما ينقصني؟»
- «ماذا؟»
- «حصان أبيض .. أريد أن أستعيد أميرتي الزهرة .. وأرحل معها إلى
الجنة ..»
- «من الذي سرق زهرتك؟»
- «الكلاب .. الأفاعي .. الذئاب .. نفاق الأرض .. إنها عصابة ..
عصابة».

عرفت ما يدور في رأس هذا الرجل .. هممت بالانسحاب من ذلك الموقف .. وعندما بدأت في المشي أمسكني من رقبتي وقال:
- «أتعرف من شرب البحر تلك الليلة؟»
- «كلا لست أنا.. كلا.. لا أعرف.. اتركني». كدت أختنق من قبضته تلك.

تركني وقال:
- «إنه أنا.. فالسماء قبعتي.. والأرض خُفي».
لم يكمل.. ركض بعيداً عني.. كان يهز البندقية إلى أعلى وكأنه يشير إلى السماء. لقد قطف قلبي. لكنه هو.. شرب بحر الوداعة من عيون أعدائه.. كان لون البحر أبيض سرعان ما تحول إلى سم.. وإلى غابات كوابيس.. يحملها كل فرد اغتصبت أرضه.. وجلس يعد الأيام حتى يقبل حنان الوطن.. وإن كان في حلم كاذب. إنه هو.. هو بعينه.. قطف قلبي.

5. الفجر

هنا الليل.. والليل هناك.. الليل حفرة عميقة تخبيء أسراراً وأسراراً.. الأرض ساحة صراخ.. السماء سقف صامت.. كان اليوم شاقاً وغريباً.. نسيت الجني ونسيت الأرق.. دموعي تقطر كلما تذكرت كل شيء.. قلبي يرتجف وتتأبني رعشة حارقة.. لا أعرف ما يجول في خاطري.. لا أعرف.. تعال أيها الجني لا ترحل.. لا أريد صبحاً قاسياً.. ولا ليلاً حارقاً.. تعال.. تعال.

الغرفة والمشهد الليلي

في الخارج كان الزقاق أسود..

وفي داخل الغرفة أربعة أشخاص نيام.. يتشاركون في كوابيس الليل..
يتبادلون الأنات والصراخ وقت ما يزداد الظلام كثافة بغياب القمر.

وعند استيقاظ أحدهم نتيجة ضجيج حاد كصوت كلب أو ذئب أو قط.. فإنه يشاهد ويسمع:

«شخيرهم وهو يتبخر في الظلام الذي يقيد أعينهم.. العرق الذي يسيل
من أجسادهم.. أصوات قلوبهم وهي ترتجف».

عندئذ يتتابه الحزن والقلق عليهم.. فربما حياتهم تسلط ضوءها الآن..
يهز رأسه أسفًا للمشهد المؤلم. ينام مرة أخرى.. لكنه لا يعلم بأنه سوف
يشاركهم كل شيء بعد أن ينام.

يستيقظ مفزوعًا للمرة الثانية.. رأسه ثقيل كأنه مليء بأحجار الجبال
التي تحيط به من كل جانب. المشهد كعادته ما يزال مستمرًا.. تلك
الأنفاس التي يلفظونها وهم نيام.. الظلام الذي يغطي أجسادهم..
وشخيرهم الممزوج بالأنات.. تحول إلى جمرة في العتمة.. بل إلى كتلة
محترقة تنزف دخانًا. يود لو ينقذهم من نومهم في الغرفة الصغيرة.. لكنه
خاف أن يتحولوا مثله إلى جمرة.

خرج من الغرفة إلى السطح.. كان ساخناً.. شاهده كالبساط المهتريء، يهتز بعنف وكأنه يستعد لاقتلاع جذوره من البيت والأرض لسبر أغوار السماء. سمع فتاة تغني بحزن.. لفحته نشوة.. ارتفع البساط عن البيت.. وانخفض صوت الأغنية.. بدأت شجرة البيت الوحيدة التي زرعتها أمه تصغر كثيراً.. ثم تحولت إلى نقطة خضراء. كانت يتسلق أغصانها.. كانت ملاذه الوحيد حينما يتتابه الحزن، وحينما يهرب من مضايقة ما.. كان يصنع منها مأوى مرتفعاً له يستمتع بخضرة أوراقها وبرائحتها الزكية.. وينام على غصنها.. ليجد نفسه بعد ذلك نائماً على فراشه.. لأن أباه يكون قد أنزله خوفاً عليه من السقوط.

أما الآن هو طائر الليل.. يطير بعيداً عن الغرفة.. تلاشت أغنية الفتاة واختفت النقطة الخضراء.. استقبلته السحب التي شاهدها أزهاراً ليلية تلتف حول نفسها.. والنجوم أطفال فرحون يتراكضون بعيداً عن الأرض.. وكأنهم يلعبون لعبة الإخفاء مثله عندما كان صغيراً.

وتذكر الغرفة وأجسادها الثلاثة.. سيحل الصباح ولن يجدوه بينهم.. سيهز كل واحد منهم رأسه حينما يعلمون برحيله.. يصطنعون البهجة وقت تناول الفطور، يلبسون ملابسهم البيضاء.. وبعدها سيذهبون إلى أعمالهم.. وحين يغادرون الباب تبتلعهم مستنقعات مائية موبوءة بالحشرات.. لكنهم يقاومونها.. ويقاومون الضجيج الصباحي وغبار السيارات الذي يعطرهم برائحة التراب. وإن شاهدوا فتاة جميلة تستيقظ في قلوبهم الشهوة ويتحولون إلى صقور عالقة في أشواك برية

أضناها العطش.. يقاومون كل شيء.. حتى يصلوا إلى الباص الذي
يهيئ لهم مكاناً آخر من المقاعد الشوكية.. وحتى يصلوا إلى عملهم..
ذلك الجحيم الآخر.

كل هذا سيحدث لهم في صباح الغد، وربما كل صباح جديد.. وهو
لن يكون معهم، الآن هو في السماء.. خارج الغرفة والزقاق والأرض.

في الخارج كان الزقاق أفعى..

وفي داخل الغرفة ثلاثة أشخاص نيام.. يتشاركون في كوابيس الليل..
يتبادلون الأنات والصراخ وقت ما يزداد الظلام كثافة بغياب القمر.

وعند استيقاظ أحدهم فإنه يمزغ المشهد بعينه وجميع حواسه
الأخرى.. عندئذ يدور حول نفسه إلى أن تتقافز الأشياء من حوله وكأنها
أرانب شقية. نافذة الغرفة كائن صامت في الظلام.. يرشقها بنظرات
الحيرة والدهشة.. يستأصل مشهدها النهاري حينما تكون مفتوحة
وصاخبة ومزعجة: «أحجار تتطاير هنا وهناك.. أبواق سيارات.. صبية
الحارة يلعبون لعبة الصراخ ولعبة الشتائم.. صفقات أبواب حديدية..
أغانٍ صاخبة.. روائح كريهة..».

الآن هي صامتة وكأن الليل قطع لسانها. يقوم ويفتحها.. لعله يستمتع
بهواء بارد.. فيأتيه صوت فتاة تغني أغنية حزينة.. أحس بالاطمئنان.. أخذ
قلماً وورقة.. وحاول تخيل وجه الفتاة ومكان جلوسها.

رسمها جالسة داخل زهرة في حديقة واسعة.. والحديقة مسورة بجبال خضراء.. وثمره عصافير تطير وتحط على رؤوس حسناوات يحملن سلالاً ويقطفن فيها ثمار الشجر.. وقد أكثر من رسم تلك الحسناوات. يقحم نفسه داخل الحديقة للحظات.. يقف إلى جانب نهر يتدفق من أحد شقوق الجبال.. لكن النهر يفصل بينه وبين الفتاة المغنية والحسناوات اللاتي يقطفن الثمار.. تمنى أن يقطع النهر ليجذب الفتاة ناحيته ويتبادل معها القبلات.. عندها سترقص الحديقة بكل أشياءها مع الصوت الموسيقي الذي ينبعث من الشفاه.. لكن النهر حاجز عنيد. انقطع غناء الفتاة.. رأى المشهد ما يزال حياً أمامه.. أحضر صرة ووضع فيها الحديقة المرسومة. خرج من النافذة ليلتهمه الزقاق. قرر أن يبحث عن حديقة مثالة. وفي الطريق تذكر الغرفة والجسدين في بطنها.. سوف يستيقظان في الصباح ولن يجداه على فراشه.. عندها سوف يهز كل واحد منهما رأسه. طرد كل الأفكار التي تتعلق بالغرفة. صادفه رجل مسن تنبعث منه رائحة طيبة.. قال الرجل:

- «مرحباً يا صاحب الصرة.. هلاً سألتك شيئاً؟».
- «تفضل..».
- «لقد تهت كثيراً في هذا الليل.. إنني أبحث عن فتاة أتت من السماء.. وجعلتها مثل ابنتي.. لكنها ضاعت مني.. هل رأيتها؟».
- «لا..».
- «إلى أين طريقك؟».

- «طريقي بعيد.. إني راحل عن هذا المكان».
- «إذن خذني معك يا بني.. فأنا الآن وحيد.. وربما نصادف الفتاة في الطريق».
- «ربما.. هيا بنا.. سأجعل منك حكيم الحديقة».

- في الخارج كان الزقاق أسود..
- وفي داخل الغرفة شخصان نائمان.. يتشاركان في كوايس الليل..
- يتبادلان الأنات والصراخ وقت ما يزداد الظلام كثافة بغياب القمر.
- وعند استيقاظ أحدهما يرى الآخر في ذات المشهد وحيداً يتألم..
- يحدق إليه في حزن ويقول:
- «إن أيقظته فسوف يزداد ألماً.. النوم فيه شيء من الراحة.. وأفضل من اليقظة على كل حال».

فتح الباب وداهمه صوت فتاة على شكل أغنية حزينة.. ارتجف قلبه.. ومضى ماشياً في الزقاق تاركاً خلفه الغرفة تغط في صمتها.. وتععض بأسنانها الجسد النائم.. لفحه خاطر بأن يتبع صوت الفتاة التي جعلته نشوان وهائماً.. لكنه أحس فجأة بأن شخصاً يطارده من الخلف.. استدار ليرى من يكون، فلم يجد أحداً. واصل مشيه بتؤدة.. لكن الإحساس بأن ثمة أحداً يطارده يزداد.. استدار بسرعة فوجد نوراً توهج في الظلام.. انكشف النور عن فتاة في غاية الجمال.. شديدة البياض.. بارزة النهدين. اتسعت عيناه.. تشنجت عروقه.. احمر وجهه.. أصبح جسده متلبداً

بالحرارة والصمت.. رشقته الفتاة بنظرات حادة.. انخلع لها قلبه من مكانه.. وغدا سهماً اخترق عينيها.. قالت له:

- «مرحباً.. أنا نجمة».

- «من أي جنة اتيت يا نجمة؟».

- «من السماء؟».

- «السماء؟».

وبصوت تسقط منه رنات الحزن.. قالت:

- «أنا في الأصل نجمة كنت في السماء.. ونفيت من مجموعة النجوم.. بحثت طويلاً عن مأوى يدثرنى.. فوجدت هذه الأرض وباتت تحت أقدامى.. وقابلت رجلاً مسناً.. وحولني إلى امرأة حتى أساير هذا البشر المتكتل عندكم.. وجعلني كأحد بناته.. لكنني استأثت العيش في هذه الأرض.. وأصابني الندم لأنني لم أجد هنا سوى القفار وبحر مملوء بالقمامة.. وأناس ينثرون الدماء لأجل النساء والمال.. لذلك افترقت عن الشيخ الجميل وقلبي يتقطع حزناً وألماً.. وأيضاً ندمت على فعلتي هذه لأن الشيخ كان طبيباً جذاً ومثالاً للإنسان الجميل.. والآن أنا أبحت عنه.. حتى تهت في هذا الليل».

- «كل هذا حدث لك أيتها النجمة.. نحن هنا نتمنى أن نطال النجوم.. أنت الآن جنتي.. هل تأتين معي لنبحث عن مأوى آخر يدثرنا.. وربما نصادف ذلك الشيخ الطيب».

- «سوف آتي معك.. ونبحث عن الشيخ.. لكن هناك شيئاً لا بد أن تعلمه.. فأنا لا أظهر إلا في الليل».
- «أشكر هذا الليل لأنه أرسل لي نجمة من السماء».
- قطفها من مكانها.. ومضى كالنورس يجوب الأماكن.. سألها:
- «ماذا تتمنين أن يحدث في هذه اللحظة؟».
- «أتمنى أن يسقط المطر.. فأنا أعشق المطر».
- عندها استحضر قريته العجوز.. حيث الأزقة تجاعيد مخنوقة بأنفاس البشر.. والبيوت تلهث إلى أن تنشر الكآبة.. تذكر المطر حينما يملأ الأزقة.. والوحل ثمار المطر.. وعند رحيل المطر يخلف برّكا مائية مرصعة بالبعوض.. ويترك أقدام الأطفال الحافية تعانق الطين المبلل.. وعندما ينام الناس على أسرهم المسنة وينام آخرون على الأرصفة يُنسى المطر الراحل.. ولن يذكره أحد إلا إذا سقط على رؤوسهم مرة أخرى. وينام الأطفال وأقدامهم مصبوغة بالطين.. والأمهات ينمن بجانبهم.. يحملن قلوباً خائفة عليهم.. وبوجل ينتظرن صباحاً مجهولاً.
- وهو الآن كالنورس يجوب الأماكن.. وقال للنجمة:
- «أما أنا أتمنى أن أظل محلّقاً في السماء.. كطائر لا يهده التعب».

في الخارج كان الزقاق أفعى..

وفي داخل الغرفة شخص نائم.. يشاهد كوابيس الليل.. يطلق أنات ساخنة وقت ما يزداد الظلام كثافة بغياب القمر.

وعند استيقاظه وجد نفسه وحيداً أسير الجدران.. وعرف بأن
أشخاصاً رحلوا عنه وتركوه وحيداً.. عندئذ راودته شهية الرحيل.. حمل
رأسه الصاخب ليلحق بالغيوم التي تركت منازلها لعل هناك من يقوده إلى
لغز آخر أجمل من لغز الحياة.

قلبه بركة فرح للآخرين.. وقلبه مثل طفل يحب الحياة ونجومها
الحالمة.. ولكن في فترات لا يرغبها يتحول إلى مارد غاضب لا يُرْعَب
قدومه.. في رأسه الصاخب خريطة ما يخطط لحرقها.

الخريطة رسمت منذ زمن بعيد.. لا يعرف من الذي رسمها ورحل..
أمامه ليل نهار يحملها في رأسه منذ طفولته.. طفولته التي سقطت في بئر
قديم ضارب في العمق. الخريطة مبهمة.. لمكان بعيد موحش.. ليس غابة
كثيفة الأشجار.. ليس قرية ذات أفلاج ونخيل.. ولا حديقة واسعة
خضراء.. ولا حتى بحر كثير الأسرار.. وإنما خريطة غامضة.. ذات
مشاهد ضبابية.. كوادٍ سحيق يكتنفه الصدى يسقط فيه من أعلى مكان..
تاركا صراخه لأمه التي تنتظره.. وكمستنقع مائي يغرق فيه.. وثلة من
الأصدقاء حوله يترحمون.

يتساءل أي خريطة هذه التي جعلته هائماً قلقاً. يحاول أن يخفي حزنه
في بئر قديم كما تخبأت عنه طفولته.. لكنه لا يستطيع.. فقط ضحكات
وليدة مع الأصدقاء.. أصدقاء كالزهور التي لها رائحة الحب.

يترك خلفه غرفة باتت كالصفيحة المتآكلة.. وبذلك قصف المشهد
الليلي في تلك الغرفة.. تراءت له أمه من بعيد وهي تبسم كعادتها.. ركض

ليحضنها ويتدفأ بحنانها.. فلم يجدها.. تراءت له غيوم ممتلئة بالحليب..
وتحت الغيوم أفواه جافة تبحث عن خنجر مسموم لتقتل مارء العطش..
والخنجر مرسوم في ناحية أخرى من السماء لا تطوله الأيدي.. وما زالت
الغيوم ممتلئة بالحليب.. والأيدي فارغة قصيرة.. والأفواه فاغرة..
والخنجر يبتسم بخلاء وانتصار.

ضرب الأرض بقدميه وسبر أغوار السماء.. حرق في الجبال ووديانها
المحشوة بالبيوت.. وحرق في النجوم وهي تتراكم مسرعة.. حينها
أحس بأن قلوبًا كثيرة ترتجف داخل أوكارها.. وأن عاصفة تهىء نفسها
لصباح جديد.. لكنه لم يجرؤ على التنبؤ.. ولا على تخيل الزمن القادم.
صوت فتاة يتطاير مصدرًا أغنية حزينة.. فتتبع حركة أحد النجوم
الضائعة في السماء حتى وقف فوق سطح منزل.. ليظلل فتاة كانت تحلق
بنظرها نحو حديقة في السماء.. وكانت هي مصدر الأغنية.. كان شعرها
يتطاير كالشلال.. وكانت عيناها لؤلؤتين حزينتين..
لقد عرفها..

هي تلك الفتاة الخجول التي لا تبرح منزلها إلا نادرًا.. وكان منزلها
القفص.. حاول يومًا اقتطاف نظرات منها.. ولكنه فشل. غريب جمالها..
يبدو أنه أول من يرى شعرها يتناثر مع الهواء.. جميل وغريب فمها
المنطلق هذا اليوم، وصوتها العذب. حاول الاقتراب منها.. لكنه خاف أن
يقطع لحظتها الجميلة هذه.. لحظة الحرية التي تستأصلها من الليل وقت
ما تخبو الوحوش داخل أوكارها.. ولا بد أنها أفضل لحظاتها اليومية.

لتكن هي نورسة الليل تحلق بعيداً عن هذا المكان الموحش.. لتحلق
بخيالها ناحية السماء.. لتغني وترقص لنفسها وللنجوم.. لتبحث عن أمير
يقدم لها سيوف الحماية.. لتعانق حرية الأجنحة.. لتترك أغلال الأمس
وراءها.. ولتفتح حدائق جديدة تنشر فيها أعلى صوت لها في الوجود..
عندئذ تكون زهرة يانعة لا تنبت إلا في الجنة.
باركها بنظراته وقلبه.. ومضى هائماً في بطون الأزقة.

في الخارج كان الزقاق أسود..
وفي داخل الغرفة أربعة أسرة خالية.. وقطتان تموءان بحزن وقت ما
يزداد الظلام كثافة بغياب القمر.

يونيو 1992م

3

ناحية الأمكنة البعيدة

إلى محمد بن علي البلوشي

الرحيل إلى كابوس مؤبد

أُسكن في كوخ صغير يلعب بالنار مع جسدي.. والمكان شبه قاحل
أنسلخ من خطيئة الصمت. الحب لم يعرف له طريقاً في هذا الزمان. وأذكر
فيما أذكر.. أزقة بهيئة ثعابين.. برك حارة مبعثرة في مدينة مكحلة
بالوساوس.. والمدينة خليط من إعصار مزمن.. وخليط من أجساد بالية
منشورة كالحجارة. انظروا إلى لحمي فهو لون عذاب.. وانظروا إلى
عظامي فهي فتات.. فتات.

أليس لهذا الكوخ من إعصار يخلصني منه لأبني كوخاً جميلاً على
صدري؟ أليس لهذه المدينة من زلزال حتى تفيق من جنونها؟
أعلم أن صراخي هذا لا يجدي.. لا يجدي، فلا أحد يسمعي ولا أحد
ينظر إليّ.

أنا خيال يمشي ويأكل ويشرب.. أنا خطيئة هذا الزمان.
صراخي هذا لا يجدي.. لا يجدي.

القاضي: حضرتك متهم بتحطيم المتحف العريق.. ذلك المتحف
الذي يضم أصناماً لمختلف الكائنات.. وثمة شهود أكدوا رؤيتك وأنت
تفتتها قطعة قطعة.. فما هي أقوالك؟
- حطمتها.. نعم حطمتها.. إنها خطيئة كبرى تلك الصخور.

القاضي: ما شاء الله.. ما شاء الله.. لكن هذه جريمة وإتلاف لمصالح الغير.. ثم إن الصمت مصنوع من الذهب.. هل تعرف ذلك؟
- وإن كان.. أنا أحتقر الذهب.. فهو جبان وعامل شتات وتبعثر..
كما أنه مصنوع من النفاق.. هل تعرف ذلك؟
القاضي: ما شاء الله.. ما شاء الله.. وأيضاً تشتمه..
سحابة طفيفة من الصمت غطت المكان.

القاضي: بعد أن اعترف المتهم.. وبوضوح.. حكمنا عليه بأن يزج به في كابوس مزعج.. يمكث فيه حتى الموت.. وذلك عقاباً له على جريمته.

ما لهذا العالم يتخبط في رأسي المسكين وكأنه يحقد علي ويخرم صدري بإبر النار.. متكبر أنت أيها العالم الصغير.. هكذا أنت صفحة ستحترق يوماً وترمى في زباله الكون.

ضجيج يكسر ضلوعي وهواء ساخن يصفعني بشدة.

كابوس مزعج؟

أي حكم مجنون هذا الحكم؟ أليكون لوناً آخر من التخطيم الجزئي؟
أو أنه بحر ثقيل سوف أشربه؟

عند تنفيذ الحكم جائي رجالان عملاقان كأنهما ديناصوران.. أمسكا غيمة سوداء كبيرة.. أحدثا فيها فوهة بحجم جسدي.. أخذت الفوهة تبعث حرارة حارقة وألواناً مظلمة.. ارتعبت.. أمسكني أحد الرجلين من ذراعي والآخر من قدمي.. وصرت أرجوحة معلقة في الهواء.. وبسرعة

خاطفة قذفاً بي داخل الفوهة.

تدحرجت ووصلت إلى رصيف ملوث.. صرت قطعة قمامة تناولتها
الأرصفة. مشيت حاملاً غربي على ظهري والأزقة تنمو وتتكاثر أمامي،
وأينما أرمي قدمي تغوصان في وحل دموي ساخن.. وأحس برمال ساخنة
تسقط من السماء على رأسي.

بين يوم وليلة وجدت نفسي في عالم محشو بالغموض. أي مكان
خراب هذا وأي جنون؟ فقد كنت في مكان الأشباح فيه تأكل بعضها
البعض لتخمد نار الشهوة والجوع.. لتغدو وحوشاً داخل برواز جميل..
أما هذا المكان فهو مليء بأشباح أكثر رعباً.. هذا المكان مقصلة تدلك
رقبتي كل ثانية من عمري.. وهذا زمان آخرس يتسم بمكر لولادته
القادمة. فزمان البراءة ولي.. وبقي زمان الرعب.

البيوت حفنة أحجار متكومة.. المدينة عارية من الأشجار.. البشر
يتقاطرون في الأرصفة ويصقون الصمت.. نساء شبه عاريات تطير
كالفرشات من مكان إلى مكان.. رجال بأفواه لزجة.. أطفال يلعبون
بالعصافير والبنادق المحشوة بالدم.. جثث حيوانات مرمية هنا وهناك.
كنت جامداً في تلك الساحة والذهول يلعب في رأسي لعبة الذهول.. لا
أحد يعبأ بي ولا يهتم.. حتى وإن كنت جثة مشنوقة تلتهمها البكتيريا.
على الفور أيقنت بأن غيمة عذاب جديدة تأتي ناحيتي بجسدها العفن.

بنيت كوخًا من الأحجار.. الأفكار تتسكع في عقلي والمشاهد تزداد..
من المؤكد أن كل هؤلاء محكوم عليهم بالرحيل إلى كابوس مؤبد..
ونسوا أن لهم حناجر وألسنًا.. هم مجرد أرواح تخترق الهواء العفن..
ليس ثمة صوت.. أنا الوحيد الذي نبت له حنجرة من بين هؤلاء.

كيف يعيشون في مكان موبوء بالصمت؟

أي زمن هذا الزمن؟ أي مكان هذا المكان؟ وأي خطيئة هذه الخطيئة؟
الأرض تأخذ أهلها نحو الغواية.. تخلق منهم رهبانًا يعدون الصمت..
تحرقهم وتفتتهم.. ثم تبني لهم قبورًا لمضاجعة التراب والنار.

أي زمن هذا الزمن وأي مكان هذا المكان؟ مقصلة تدلك رقبتى..
كوخ يدمر أنفاسي ويصبغني بالعرق. خرجت إلى العالم الوحشي.
خرجت مسرعًا لأستنشق بعض الهواء.. ولكي أريح رئتي من طعنات
الكوخ. ارتطم جسدي بامرأة شبه عارية.. سوى برقع يغطي وجهها.
وبانت عيناها وبعثا ضوءًا أزرق اخترق قلبي.. وكانت صورتها مثل
حوريات البحر. مشيت وراءها كالمجنون محاولًا كشف سر عينيها.
أحست بمتابعتي لها.. توقفت وأدارت وجهها نحوي.. ابتسمت وتهت
كالأبله في عينيها.. رمقتني بنظرات لذيدة.. ثم أزاحت البرقع ليكشف عن
أنياب أفعى سامة.. سرعان ما تحولت إلى أفعى.. هربت.. ركضت ورائي
وفحيحها لا ينقطع. تواري في مبنى حجري.. وهناك رأيت جماعات
تطير وأخرى تحبو.. عالم وحشي ومخيف.. مزعجة هذه المدينة حتى
الأغماء.. مزعجة.

عطشت، وخرجت من المبنى لأبحث عن ماء.. فلم أجد سوى دم بارد.. ووجدت نافورات تقذف دمًا.. هناك بائع مرطبات عرض قائمة العصائر المتوفرة لديه. كانت كل العصائر مختلطة بالدم: (دم مع شراب البرتقال.. دم مع شراب العنب..). بحثت عن شيء آكله.. فوجدت بائع الفطائر يتلمظ خبثًا لمرور امرأة أمامه.. حينها مر طفل في الوسط قطع نظرات البائع للمرأة.. غضب البائع لانكسار لذته فأمسك عنق الطفل وقطعه بسكين. بعدها رمى جثته لقطة سوداء بعد أن عصر الدم في كأس. أخذ البائع يشرب ويضحك ويغمز لي بطرف عينه.

وعندما هربت من نظراته الخبيثة بضع خطوات وجدت نفسي أمام رجل ذو شكل مخيف.. كان بحجم جمل سمين.. يحمل صقورًا جارحة على كتفيه.. يربط حول خصره أفعى تلعب برأسها.. كانت كالتّي رأيتهما سابقًا.. يجرو وراءه قطيعًا من المواشي والسيارات والطائرات، كلٌّ في صف. أمسكني الرجل من شعر رأسي.. وحفر ألمًا شديدًا فوق ألمي.. ثم نطق فجأة.. وقال:

- «أرى عندك لسان».
- «يا إلهي.. أنت أول من أراه يتكلم هنا».
- «اخرس.. أنا الكبير هنا.. وأنا الذي يتكلم فقط.. أسمع».
- «يبدو أنك تضع الدنيا في جيبك».
- «اخرس.. اخرس».

أمر بعض رجاله بأن يحملوني على أكتافهم الساخنة.. ذهبوا بي حيث مكان مملوء بالألسن المبعثرة في الأرض.. وكانت كالرمال الزاحفة.

أمسكني الرجل مرة أخرى من شعر رأسي.. وقال:

- «اسمع يا هذا.. إذا أردت العيش هنا عليك التخلص فوراً من لسانك.. وعليك إعطاءنا بعض من دمك فيبدو عليه الاحمرار والنظافة.. وسوف تعيش في سلام هنا».

- «لم كل هذا؟».

- «لأن الصمت مصنوع من الذهب.. هل تعرف ذلك؟».

- «.....».

- «يبدو أنك إنسان طيب ولا تحب المشاكل.. هيا هيا قدم لسانك».

- «كلا.. كلا.. لن تناولوا شيئاً مني.. كلا.. كلا».

هستيريا من الصراخ تغرز أشواكها في رأسي.. هربت من أمامهم.. إلا أنهم جاءوا ورائي يحمل كل واحد منهم مديّة جديدة تلمع مع ضوء الشمس.

يونيو 1991

نافدتان لذلك البحر

«حدّثت مستنقعة عن البحر فحسبتي خيالاً
يبالغ، وحدّثت البحر عن المستنقعة فظنني مفترياً
يهجو».

جبران خليل جبران

تمهيد

تتنهد.. وتفتح النافذة.
سما صافية.. وبحر هاديء يحتفظ بميناء مهجور ملغم بالصمت.
سفن شاخت نسيها الزمن.. لم يتبق منها سوى هياكلها الخشبية
ورائحة قديمة لصيادين رحلوا.
تتنهد.. وتعلق النافذة.
تمشي في الغرفة مرفوعة الرأس.. تقف أمام مرآة شاحبة.. تتبع تفاصيل
وجهها.. وثمة خيوط تهيب نفسها للبروز.

تمهيد آخر

رياح تفتح النافذة.

قلعة عجوز.. وبحر هائج يشهر حيتاناً بلون الجزر.

البحر يخبيء أسماكاً تطارد أسماكاً تطارد أسماكاً.. يخبيء كنوزاً

لممالك أبيدت ونسيت.. وزهرة وحيدة يعاكسها الذبول.. وحيدة في غرفة

بعيدة بها نافذة تطل على قمر يعكس وجه بحر قديم.

رياح تغلق النافذة.

(1)

أبي ذلك الصياد العنيد

تتكاثر النجوم لنجلس على شاطئنا الواسع نسمع غناء البحر ونشاهد
رقصة الأمواج.. تتكاثر النجوم لنعد النجوم.. نجمة نجمة.. لعبة تخلق
المرح في وجوه إخوتي وتداعب خيالاتهم الجامحة.

وكان ذلك اليوم بعيداً حينما عاد أبي من رحلة الصيد تلك.. عاد
بأسماك صغيرة إلى جانب سمكة كبيرة ملأ بها ساحة بيتنا الصغير المواجه
للبحر. وكان أبي صياداً عنيداً يلعب بالبحر. تزين وجه أمي بالغبطة..
رقص إخوتي وهدأت أعينهم من التنطيط وراء كل نجمة.. ومن أجسادهم
خلقوا دائرة حول أبي يرشقونه بالقبلات. غمرني إحساس بالفرح
والقلق.. ففي الليلة الماضية سمعت صوتاً ينادي، ولا أعرف إن كان
حلمًا أو حقيقة، يأتي متناغمًا مع هدير الأمواج. كان يقول:

- «ها أنتم أيها الصغار تشدون النجوم كي تنالوا السماء».

قلت له حانقة: «لعبة.. مجرد لعبة.. أو.. وهم كالبحر».

قال الصوت:

- «البحر ليس وهمًا.. إنما سوف يداعبكم من بعيد.. وسوف
تشاهدون العجائب».

وفي هذه الليلة.. جاءنا أبي بهذه السمكة التي ما إن أحرق في عينيها
حتى أراها جمرتين متقدتين.. وفمها مفتوح لابتلاع أي شيء أمامها.

قال لنا أبي متفاخرًا أنه اصطادها بعد جهد يحسد عليه من منطقة يقال أنها مسحورة، وأن من يذهب هناك يتلعه البحر ويقيه في جوفه، وهناك إما أن يعيش ملكًا أو عبدًا.. وأن الكثير من الصيادين اختفوا هناك.. ولم يعرف لهم طريق.

وهذه أسطورة تتردد عبر أفواه الصيادين.. الخوف منعهم من الاقتراب من ذلك المكان، لكن أبي كما قال كسر هذه الأسطورة وخنق البحر وانتصر عليه.

أحضرت أُمي سكينًا كبيرة. تناولها أبي بفخر.. وكأنه استلم سيف النصر ليتهياً لقتال كبير.

وقفت مع إخوتي بعيدًا نشاهد أبي يقطع السمكة. وكأنني لمحت البحر يشهر غضبه في تلك الساعة.. غضب كأنه النذير.. ويشعل نارًا في كل مكان.. وكأن الجزر البعيدة تغوص في بطن البحر.. وكأن الكائنات البحرية تستيقظ من أماكنها لتشاهد عرضًا أعد لها. وما إن غرز أبي طرف السكين في بطن السمكة حتى صرخت.. استيقظت من موتها.. انتشر الذعر في كل أنحاء البيت.. اهتز المكان.. انطفأ القمر.. عاصفة غزت المكان.. رمى أبي السكين بعيدًا.. طارت في الهواء وانغرزت في بطن البحر فخرجت منه أصوات لغط.. ثم اختفت. وما إن هدأت العاصفة اشتعل القمر مجددًا.. واختفت السمكة من مكانها.. ومن البحر ظهرت امرأة عملاقة بحجم السمكة ومشيت ناحيتنا. ارتعدت فرائص الجميع

ومعهم بيتنا الصغير. جاءت المرأة ووقفت أمام أبي.. وضعت يداً على
يد.. وقالت لأبي:

- «حظك سعيد أيها الصياد.. سأعطيك كنزاً من هذا البحر يجعلك
ثرياً.. شريطة أن تقدم ابنتك هدية لي.. تلك الجميلة الواقفة وسط
إخوتها».

وأشارت إلي..

أرسل إخوتي نظرات فزعة إلى السماء.. وكأنهم يبعثون رسائل
الاسترحام.. ذعرت وصرخت.. قامت أُمي ووجهها مشرب بالفزع لترمي
المرأة بالحجارة.. غير أن المرأة لم تتأثر بل ضحكت ساخرة. وأبي ذلك
الصياد العنيد وزع نظراته بيني وبين إخوتي والبحر. قاد السمكة إلى مكان
منعزل يسر لها بشيء.

(2)

المائيون

الغرفة ضيقة بها سرير رقدت عليه منذ زمن لا أعرفه.. وبها منضدة
خشبية وضع عليها علبة لآلي وعلبة سجائر.. ولجدرانها ثقب زجاجية
بحجم العيون يتسلل من خلالها ضوء خافت يحك جسدي بحرارة دافئة.
فتح باب الغرفة.. وصرير مزعج انتشر، دخل خمسة أشخاص
كالجنود، وبينهم امرأة.. وقفوا أمامي.. وبصوت واحد رددوا:

- «نحن المائيون المائيون.. جئناك كي نسليك.. جئناك لنبعث في صدرك روح الملح.. روح الملح».

كانت هيئاتهم قريبة من كائنات بحرية مفزعة وأقرب إلى أشكال آدمية مقرفة. أخذوا علبة السجائر.. امتص كل واحد منهم سيجارة.. امتلأت الغرفة بالدخان.. وبعد أن تلاشى الدخان أمسك كل واحد منهم بأذن الآخر.. كوّنوا دائرة ضيقة مركزها المرأة التي بدأت بتأدية رقصات أفغانية قميئة.

أخذوا يدورون بسرعة وهم يرددون ما قالوه: «نحن المائيون المائيون...».

وبعد أن زادوا في الدوران انقشعت الدائرة.. تبعثروا في أنحاء الغرفة.. مكوّنين صخبًا حادًا من الضحكات. اختنقت الغرفة واختنقت معها.. ودوامة من الأصوات والمشاهد في رأسي. انبعث صوت وقال:
- «ها هي لعبتنا ابتدأت».

(3)

أمي تكش عني الحمى

عندما أخذتني تلك المرأة السمكة داخل براثن بحر مجهول كبلتني بيديها وقدميها وصوتها الخشن.. واستيقظت في نفسي مدارات البعد والوحدة القاتلة.

أمي.. أين أمي الآن؟

أمي.. أين أنت؟

كانت أمي تفرش لي قلبها كي تداعبني وأنا صغيرة.. بينما الآن أهذي في سفرة غريبة بسبب ذلك اليوم البعيد.. الحمى الساخنة نهشت جسدي.. ولم يطرق النوم رأسي.. جاءتني أمي تحمل في قلبها زهرة حنان.. كانت تود أن تقدم لي الزهرة.. ولكنها بعيدة عني الآن.. آه أمي.. في البيت كنت تكشين عني الحمى بشتى الطرق.. تظلين جالسة إلى جانبي تذرفين الدموع.. تطاردين الحمى التي سرقت بهجة ابتك.. تطاردينها لتطفئي نارها.. وتبعثي في وجهي نورًا آخر أكثر صفاءً وبرودة.. أين أنت الآن يا أمي.. هذه الليلة عجيبة مسحورة.. هذه الغرفة مظلمة صاحبة.. وفي عمق هذا البحر الشرس أهذي وحيدة على سرير ليس بسرير.. في مكان ليس بمكان.. أطلب من الله أن يأخذني إلى أمي لتغسل جسدي من الحمى.. من هذا البعد الطويل.. لكنه أبي.. أبي الصياد العنيد الذي يلعب بالبحر.

(4)

ذلك المائي الفحل

تلك المرأة السمكة بت أغسل لها قدميها ونهديها وفخذها الممتلئين.. إلى أن جاء يوم وزجت بي داخل بئر عميق تكاثر فيه صدى صراخي.. هناك زوجتي من رجل لا أعرفه.. قالت بأنه ابنها من رجل حوت كان في زمانه يصطاد الحوريات والنساء ويكبلهن بأغلال جسده، ويقضم قلوبهن بعد أن يضاجعهن في بركة من الوحل.. والمرأة الوحيدة

التي قاومته هي المرأة السمكة.. سحرته وحولته إلى كائن ذليل ليس له سوى طاعتها فقط، إلى أن جاء ابنهما البكر هذا.. كبر ثم قذفته ناحيتي، وقالت له:

- «يا مائي الصغير.. خذها لك.. واجلب لنا فحلاً آخر نروضه».

جاء إلي ضاحكاً في تلك الغرفة الضيقة.. عرض أسنانه الصفراء الناخرة.. وعيناه الحمر اوان الواسعتان كعيني حوت مقتول.

دخل الغرفة وأغلق الباب بقوة.. وبخطوات وييدة متحفزة تقدم إلى المنضدة الخشبية وأخذ علبة اللآليء وقدمها لي.. ومن شدة هول الموقف المخيف أخذتها ورميتها.. ابتعد عني وجلس على الكرسي يضحك بغباء ويحدق إلى صدري المرتعد.. وكان فمه يمضغ اللعاب.. ومنظره مقرف يثير الغثيان.. أخذ علبة السجائر واشعل سيجارة.. نفث الدخان بكثرة حتى ملأ الغرفة.. أصبحت الرؤية منعدمة.. لم أستطع تبيين ملامح جسده.. فقط أسمع ضحكاته.. ازداد فزعي.. حاولت الصراخ لكن صوتي انحس من أثر السعال الذي سببه الدخان.. وفجأة أحسست يدين صلبتين تطوقان خصري وتعصرانه.. حاولت الإفلات فلم أستطع.. الضحكات تنفجر قريبة من أذني.. اليدان تمتدان إلى صدري وتعصران نهدي.. حاولت المقاومة ولكن قوة اليدين حالت دون ذلك.. رُميتُ على السرير بقوة.. ثم غطاني جسد خشن وثقيل.

(5)

يلبس قبعة الفجر على رأسه

كلما أتذكر يوم ظهور السمكة أتذكر وجه أبي الصياد العنيد الذي يلعب بالبحر.. مرارًا سألت السمكة عن أبي، إذا كان ما يزال يلعب بالبحر ويراهن عليه.. لكنها تنفجر في وجهي كعادتها وتأمّر ابنها بأن يغتال سؤالي على مرأى من السماء.. وكعادته يتحول إلى وحش ليشاطر الليل في وليمة جسدي.

كيف كان أبي يواجه البحر بسيوف مصقولة؟

كان يلبس قبعة الفجر على رأسه.. يفلق الفجر ويشرب مائه.. تستيقظ كائنات خرافية تشده نحو المغامرة.. وتستيقظ فيه عوالم المرح فيقبل جباه أطفاله النائمين والحالمين بالوصول إلى الكواكب البعيدة. وبجسده الحديد يداهم فم البحر.. يناوش جزرًا ثقتبت عرض البحر.. وحيثانًا تصارعها الأمواج.

كان يلبس قبعة الفجر على رأسه.. وحينما ينتصر يرقص رقصة البحر.. يمزق الشباك في دم الأسماك الذي تدفق من جلد البحر.. وعند العودة كان يجلس إلى ساحل يضج بالصخور المبللة ويتذكر.. ويظل يحرق في الوليمة.. وأمامه فراشات أخرى من الأسماك تتراقص في عينيه

يتأملها ويحلم بها.. يضعها في جيبه منذ رؤيتها وهي بعيدة. هل هو أبي
الصيد المتقاعد؟ كيف كان هذا العنيد؟ كيف صار؟

(6)

إذ صار الطفل.. وإذ جاء

الطريق موغل في غبار معتم.

المكان غير مرئي.

والحياة فارس مكدود يمتطي أقرب سحابة مهيأة للانقشاع.

من أين يبدأ السؤال؟

صار الطفل وأتى..

«لا تأتي أيها الوليد.. لا تأت».

لكنه جاء.. جاء يمتطي حصاناً أعمى يقوده أب ممسوخ إلى وحش.

من أين يبدأ السؤال؟ من الولادة أم من آخر رمق يبقى. بين مسار

النطفة ومسار الروح مسافات طويلة.. بين القدم والرأس عظام هشة. ما

زال الطريق موغلاً في غبار معتم. والمكان غير مرئي.

بينما طفلي ينام.. تأتي تلك المرأة السمكة وتركله بقدميها اللتين

تشبهان قدمي فيل.. قالت صارخة:

- «كفاه نومًا هذا المغفل.. يجب أن يكون فحلاً من الآن».

يتدحرج طفلي ناحية قدمي أبيه.. الذي بدوره يريه على التمرغ في
التراب.

يعوم الأطفال في ماء البراءة.. يجرون وراءهم نومًا بلا أرق.. وكلما
كبروا.. كلما طالعتهم السماء بأمطار الخطيئة تبلل أجسادهم وترمي بهم
في صفيحة قاذورات وخيانات.. وترمي بهم في فوهة بمقاس أجسادهم..
يرقصون فيها حتى الموت. وطريقهم موغل في غبار معتم. وأمكتهم غير
مرئية.

حينما يرضع طفلي مني، يأتي ذلك المسخ أبوه ليخطف من فمه
نهدي.. ليرضع بشراسة وأمه تبدي ارتياحها من المشهد. كلما تذكرت
ذلك اليوم.. تذكرت وجه الصياد.. العنيد.

(7)

هل لأولئك المائيين بكاء

في الغرفة الضيقة وضعوا طفلي وحيداً بداخلها.. ووضعوني أشاهد من
الثقوب الزجاجية.. دخل الخمسة الأشخاص الذين يشبهون الجنود ومن
بينهم امرأة.. تحلقوا حول طفلي مكونين الدائرة وهم يرددون:

- «نحن المائيون المائيون.. جئناك كي نقويك.. جئناك كي نبعث في صدرك روح النار، روح النار».

يصفقون بقوة في أذنيه.. المرأة تدفعه بمؤخرتها ليسقط ويقوم مرة أخرى.. كان يبكي والفرع يخنقه.. كان يحمل قلبه إلى السماء.. كان يناجي بعينه الصغيرتين الدامعتين.. والخمسة يشدون الحصار حوله.. تضيق الدائرة. كنت أصرخ أن يدعوه وشأنه.. لكن بلا جدوى.. هل من معين؟ كدت أهدم الجدران المثقوبة.. بلا جدوى.. انتهى كل شيء.. لم يبق سوى بعض الصراخ.. لا أحد يسمع.

صمت.

هل لأولئك المائيين بكاء؟

(8)

حوار الكواكب

- «أيتها الكواكب البعيدة.. إني أناديك».
- «من أين ينبعث صوتك يا فتاة.. صوتك مخنوق».
- «من عمق البحر.. أو من حفرة في الأرض.. ربما من قلعة.. أو.. لا أعرف من أين.. صدقيني أيتها الكواكب.. لا أعرف من أين.. لا أعرف».
- «عن ماذا تسألين؟».

- «عن البحر».
- «بحر أرضكم؟ لا تذكرينا.. إن له قصة مضحكة.. نحن هنا يومياً نضحك على هذا البحر».
- «لماذا؟».
- «نشاهده مستنقعا صغيرا.. صغيرا جداً.. وإن وجد قارباً يطفو عليه.. فلا يشكل سوى نقطة بالكاد ترى».
- «ربما لأنكم بعيدون جداً».
- «بحركم يزأر كالوحش ليخيفكم.. يناوش الصيادين والحيتان والجزر.. يستعرض عضلات قوته.. مع أنه بحر صغير.. ضئيل.. بنفخة واحدة يتطاير شذرات».
- «إنك مغرورة أيتها الكواكب».
- «كما تشائين.. ولكن أتعرفين.. هناك بحر عجوز إلى جانب هذا البحر.. كثير السعال.. يوماً نفذ صبره.. غضب كثيراً.. أصابه الضجر.. ماتت أسماكه وصيادوه.. تبخر إلى السماء.. لعقته السحب وضمته في أحشائها.. نحن نضحك على هكذا غضب.. نضحك».
- «إنك مغرورة أيتها الكواكب.. لن أسألك عن الصياد العنيد أمام ذلك البحر.. لن أسالك».

(9)

الأبواب والقلعة

عادت خائبة تلك المرأة السمكة في ذلك اليوم.. تجر وراءها حبالل الهزيمة.. مثقلة الرأس كانت.. يسيل منها العرق وسوائل أخرى غريبة.. بطلَ سحرها.. ربما أبطله البحر بشراسته وغموضه.. أنهكتها السنون وما زالت تحاول أن تعوم في أسرار جريمة أخرى.

عادت كالمجنونة تحطم كل ما أمامها.. وذلك الممسوخ وحشًا يلعب مع الكائنات الحية وغير الحية في تلك الغرفة ويعلن صراعات جديدة تنبت في رأسه الماجن. وحينما شاهدته المرأة السمكة شدته من عنقه وغرزت أظافرها في وجهه.. وقطعت لسانه.. فتقيأ الدم. كنت أحوم في الغرفة فزعة أحاول أن أبث النسيان فيها.. لتنسى وجودي.. بعد أن اندست في نوم عميق بجانب ابنها.. خرجت أبحث عن مخرج.. مررت بقفص كبير وضع بداخله أولئك الخمسة الأشخاص ومن بينهم المرأة.. بدا عليهم الهدوء.. كانوا يلعبون جسد المرأة.. والمرأة كانت نائمة وكأنها خدرت. ركضت ناحية باب مفتوح لاكتشف أن وراء أبوابا.. ثمة أصوات ليست كالأصوات.. صار الفزع رفيقي أينما أولي قدمي.. جدران عالية أشبه بالأسوار الغائرة في البعد.. ليس ثمة سوى ثقوب زجاجية تتسع لحجم العين.. وكل الثقوب تؤدي إلى بطن البحر.. كائنات بحرية عجيبة.. أنفاق.. أغصان شائكة.. جماجم لرؤس آدمية.. حوريات ناقمات يشاكسن ما حولهن بخبث.

فتحت أبواباً كثيرة.. وجدت ثقباً زجاجياً يعرض قلعة صغيرة وسط البحر.. ذكرتني بالقلعة التي كانت على شاطئنا.. كان الصيادون كأنما يكون حولها وهم على زوارقهم.. القلعة شاخت نسيها العابرون ومن شيدها في زمن ضارب في القدم.. القلعة تبكي.. وتبكي بشدة. تذكرت أيضاً أخي الصغير الذي كان يشاهد نفسه في وجه أبيه.. كان يتمدد على الشاطئ ليبحث ربما عن دفء ضائع.. تداعب الرمال الرطبة ظهره وقت ما يحل المساء ويهدأ البحر.. يطلق من جوفه أنين حزن.. ومن الرمال الرطبة يصنع قلعة صغيرة.. يتأملها كثيراً.. وحينما يعود إلى البيت يتركها وراءه شامخة تستقطب أجساد الطيور وتداعبها الأمواج.. لكنها تبقى صامدة تجاه بحر ينثر هديره بعد فترة في آذان الصيادين العاشقين لرائحة الأسماك.

وهل لهذه القلعة التي أمامي الآن من وراء الثقب الزجاجي جسد كالسد العتيق؟ أو كالفارس الخالد الذي حارب الزمن ولم يمت؟ واصلت البحث عن منفذ.. واصلت تتبع رائحة جزر أعرفها إلى أن بزغ الفجر الذي ذكرني برائحة صياد لم يعد أبي.

وأطعمت نفسي مذاق المغامرة.

ديسمبر 1992م

